سمر يزبك

بوابات أرض العدم

دار الآداب

أكتبُ بأربعين إصبعًا.

أكتب بعيون عمياء.

أعيش الواقع. أكتبه، فأختفي.

أنا التي يمرّ الموتى عبر حنجرتها، واحدًا واحدًا، يجذّفون في صعودهم الإلهيّ، ثم يتساقطون في دمي!

أنا الحكواتيّة التي تتأمّل حيواتكم القصيرة. تتأمّلكم بنظراتها، كما فعلنا في ليالٍ طويلة ونحن نضحك، ونخمّن: من منّا ستأخذ القذيفة التالية. أفعل ذلك من أجلكم. لا مفرّ من استحضاركم، وتحويل قصصكم أعمدةً تصل الأرض بالسماء.

أكتب إليكم. من أجلكم، ومنكم: شهداء الثورة السوريّة المغدورة.

البوّابة الأولى

آب ٢٠١٢

تخدش ظهري الأسلاكُ الشائكة. قشعريرة تستقرّ في منتصف رأسي. كانت تحت الأسلاك الممتدّة على طول خط الحدود، حفرٌ تكفي لتسريب شخص واحد. استطعت اجتياز حفرة، ثمّ ركضت سريعًا، نصف ساعة من الرّكض، مسافة كافية لعبور الحدود بين بلدين. لم يكن بصحبتي آنذاك غرباء كثرٌ، ولم أعرف أنّني سأكون قادرة على متابعة هذه التّفاصيل، إذ كنت أظنّ، لسببٍ غامض، أنّني سأضيع في زحمة الموت هناك، حيث قرّرت العودة إلى الوطن. في تلك اللّحظة، وقدمي تنغرس في الحفرة، وظهري يحتكّ بالأسلاك الشّائكة، في المسافة الفاصلة بين خطّيْ حدود، أرفع رأسي وأنظر، للمرّة الأولى، إلى السماء البعيدة التي كانت تميل إلى السّواد، بعد انتظار حلولِ اللّيل لساعات طويلة، كي نستطيع العبور دون أن يتنبّه

إلينا الجنود الأتراك. هناك، في تلك اللّحظة، تنفستُ بعمق ورفعتُ ظهري، وركضت حسب التّعليمات. أخذت أركض كي أجتاز منطقة الخطر. الأرض صخريّة وصعبة، ولكنّني ركضت بخفّة. رافعة من قلبي تحملني وترميني في الهواء. لقد عدت! ها أنذا هنا من جديد! كنت أتمتم وألهث: لقد عدتُ! ولم يكن هذا مشهدًا سينمائيًّا. كان حدثًا حقيقيًّا. أركض وأتمتم: لقد عدت. . . لقد عدت.

سمعنا أزيز رصاص متقطّعًا، وهدير آليّة عسكريّة تتنقّل في الطّرف الآخر، لكنّنا استطعنا النّفاذ والرّكض.

كلّ شيء يبدو كما لو أنه مقدّر منذ زمن بعيد.

وضعتُ على رأسي غطاء، وارتديت سترة طويلة وبنطالًا عريضًا، حيث كان علينا بعد ذلك اجتياز هضبة عالية صعودًا، قبل أن ننحدر ركضًا وبسرعة، لنجد سيّارة في انتظارنا. خيّمَ اللّيل، وكلّ شيء بدا عاديًا، أو هكذا اعتقدت. في العبور المتكرّر لاحقًا، سيتغيّر المشهد.

مطار أنطاكية وحده كان كافيًا لمعرفة ما حصل في سورية خلال سنة ونصف من الرّحلات إليها. وعبور الحدود أيضًا يؤكّد ذلك، وكلّ المظاهر التي وضعتها في رأسي لاحقًا كمؤشّر للتّغيير السّريع والعميق الحاصل. لكنّني، حينذاك، وأنا أنزل من الهضبة ركضًا مع ألم ساقيَّ، لم أفكّر في كل ذلك. وصلت إلى أسفل الهضبة، ثمّ ركعت على قدميّ، وبقيت لأكثر من عشر دقائق، أتنفّس بصوت مخنوق، محاولةً تهدئة ضربات قلبي. اعتقد الموجودون أنّني منفعلة برؤية البلاد. في الواقع، لم يكن المجال متاحًا لذلك التّرف. ركضنا لفترة طويلة، وصدري يوشك على الانسلاخ منّي، ولم أقدر على النّهوض.

أخيرًا، ركبنا السّيارة، وتنفّست قليلًا. هناك شاب يقود، نحن في

الخلف ثلاثة، في الأمام اثنان. ميسرة ومحمّد، سيتحوّلان في ما بعد جزءًا من عالمي. إنّهما مقاتلان مختلفان ومن عائلة واحدة. العائلة التي سأمكث في كنفها. محمّد وهو في العشرين من عمره، سيصير صديقي الدّائم ويشاركني العمل.

كنّا في ريف «إدلب» الّذي لم يتحرّر بشكل كامل من سيطرة قوّات الأسد. هناك حواجز كثيرة تعترضنا، وهي تابعة لكتائب الجيش الحرّ. نجتاز حقول الزّيتون ونركض. ندخل بوّابة أرض العدم الأولى. مقاتلون يحملون أسلحتهم، ويرفعون شارات النّصر. الرّحلة طويلة. أحاول سرقة الصّور من الواقع. أمدّ رأسي من نافذة السيّارة، وانفصل عمّا يحيط بي. السيّارة تمضي، وصوتُ القذائف يُسمع من بعيد، ولا تنتهي الطّريق. دهشةٌ منسوجة من فرح تدغدغ خلايا جسدي، وأنا أرى الأرض المحرّرة. هذه أرض محرّرة، لكنّ السماء لا تدعنا نضحك. السماء تشتعل، والمشهد يتحوّل إلى أربع شاشات سينمائيّة متقطّعة. لا أنظر إلى المشهد بعينين اثنتين فقط. أضع عينيّ في رقبتي أيضًا. على طرفَيْ أذنيّ لي عيون أيضًا. وحتّى في أطراف أصابعي، مثل كائن وحشيّ خرافيّ. أثبّت الرّؤية أمامي. يتوزّع البصر بين ثلاثة مشاهد. الآليّات المدمّرة، السماء المشتعلة وسيّارة في داخلها امرأة وثلاثة رجال يتّجهون إلى بلدة «سراقب».

كلّ ما يحصل في سرد هذه التّفاصيل هو واقع. لا يوجد سوى شخصيّة واحدة مُتخَيّلة تُلاعب السّرد هنا. أنا الوحيدة التي تستطيع العبور وسط الدّمار، وكأنّني شخصيّة متخيّلة في كتاب. أستعين على الواقع بالخيال. أراقب التّفاصيل والواقع وما يحدث، ليس على أساس ما أنا عليه الآن. ولكن، أفترض أنّني شخصيّة روائيّة، أفكّر في خيارات شخصيّة مُفترضة في رواية، لأقوى على الاستمرار. المرأة

الواقعيّة أتركها جانبًا. أصير الأخرى المفترضة، التي يجب أن تقوم بردود فعل تناسب ما عاشت لأجله. ما هو هذا الشّيء الّذي من خلاله تبحث عن سؤال الوجود؟ الهويّة؟ المنفى؟ العدالة؟ جنون الدّماء؟ وكلّ هذه الطّرقات التي تعبرها السيّارة في عتمةٍ حالكة، متّجهةً إلى بيت العائلة التي ستصير جزءًا من عالميّ.

الغريب أنّني الآن أذكر حوادثَ تأتي وتروح. لم أكن أنوي كتابة هذه الحوادث حتى رحلتي الثانية. كان الهدف من مشروع عودتي إلى سورية في آب ٢٠١٢، بعد خروجي منها في تموز ٢٠١١، هو إقامة مشاريع صغيرة للنّساء، وتأسيس منظمة في الشّمال السّوريّ لتمكين النّساء اقتصاديًا ومعرفيًا وتعليم الأطفال. كنت أبحث عن فكرة قابلة للتّطبيق نستطيع من خلالها إقامة مؤسّسات مدنيّة ديموقراطيّة في المناطق التي صارت خارج سيطرة الأسد. لم أفكّر أبدًا في كتابة هذه اليوميّات. كنت أستعدّ للبدء بروايتي الجديدة. تغيّر الأمر، وأنا أغادر. حادثة صغيرة غيّرت المسار، وجعلتني أفكّر في كتابة شهادتي هذه.

قبل الحدود في طريق العودة، كنّا نتّجه من بلدة سرمدا لنعبر من سورية إلى تركيا، كان اللّقاء بالمقاتل الشّاب الّذي جعلني أمسك بقلمي وأدوّن في دفتر صغير ما قال. في تلك اللّحظة، قرّرتُ أن أكتب، بعد أن قال: «ونحن نريد دولة مدنيّة».

كان ذلك في اليوم الأخير، قبل ساعات من الرّحيل، على حاجز كتيبة «الفاروق»، والشّابُ الصّغيرُ الّذي تلمع النّجوم في عينيه يروي وهو يبلع ريقه كيف انشقّ عن «الوحدات الخاصّة» في الجيش لأنّه رفض قتل النّاس، ثمّ يتابع الحديث: «يعني أنا كيف سأرمي نفسي في الموت، من يريد الموت؟ لا أحد! لكن، كنّا موتى ونريد أن نعيش».

كانت السماء زرقاء. لا شيء يعكّر صفونا، ولا حتّى أزيز الرّصاص، ولا الحواجز، ولا كلّ الأبنية المهدّمة على جانبي الطّريق. لا نبعد عن بلدة سرمدا إلّا قليلًا. تركناها وراءنا مع جدرانها الملوّنة بعلم الثورة.

«ونحن نريد دولة مدنيّة»... يكرّر الشّاب الأكبر سنًّا. يقول لي شاب آخر: «يلعن أبو هالضباط، كلهون علويين!». ينظر إليه الآخر، ويتمتم: «لأ مو كلهون».

أنصت إليه، وهو يروي لي قصّة انشقاقه للمرّة الثّانية، فيقترب صديقه منه، ويهمس في أذنه شيئًا ما. الشّابّ الصّغير، ذو العينين اللامعتين والذّؤبة العسليّة، ينظر إليّ مذهولًا. يسقط سلاحه على الأرض، ثمّ تنكسر نظرته. حدّقتُ في عينيه المرتجفتين، وبقي سلاحه على الأرض، ثمّ أدار وجهه.

السماء لم تتغيّر. ما زالت زرقاء، والجبل الحجريّ الّذي خلّفناه وراءنا يحدّق بصمت. لكنّني استطعت سماع طقطقة ما، حين أدار الشّاب وجهه نحوي. كان يعضّ على شفتيه. قال بصوت مرتجف ـ هو الشّاب نفسه الّذي كان يقف على حاجز مسلّح، ويحمل سلاحه، ويشهر غضبه في وجه السماء ـ «سامحيني يا خالة، والله ما كنت بعرف».

وجه الطّفوليّ عاد إلى سماحته، والشّباب الّذين يحملون السّلاح تحت الجسر ينظرون إلينا بفضول. كان علم أبيض يرفرف بالقرب منهم كُتب عليه «لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله». اثنان منهما يطلقان لحية طويلة. السماء لا تزال زرقاء، لكنّ الجنديّ الّذي صار طفلًا، اقترب منّي وقال متلعثمًا: «أنا ما بكره حدا، بس هن كلاب بدهون يانا نقتل

النّاس. . . سامحيني يا خالة».

وقف المقاتل الأكبر سنًّا إلى جانبه. كانت عيناه تحدّقان بغضب وهو يكرّر: «نحن نريد دولة مدنيّة. أنا في كتيبة الفاروق، وأريد دولة مدنيّة. أنا طالب جامعيّ تجارة سنة ثانية».

لم يطل بقاؤنا معهم. استمعت إليهم، وقلت: «ما في مشكلة... حصل خير». لكنّ الشّاب الّذي صارت عيناه أقلّ لمعانًا، كان مصمّمًا على أن يشرح لي أنّه لم يقصد إهانتي. قلت له قبل أن نرحل مع ثلاثة شبّانٍ: «لكنّني لست علويّة، وأنت لست سنّيًّا. أنا سوريّة، وأنت سوريّ».

نظر إليّ بدهشة، فقلت له: «هذه حقيقة. نحن سوريّان فقط».

كنت أبرطم في السيّارة، ونحن نغادر حاجز كتيبة «الفاروق»: «من يحتاج إلى التّطمين هنا؟ من يريد أن يبني وطنًا من دم ونار، أهذا الجنديّ المنشقّ الّذي تحوّل طفلًا؟ أم أولئك القتلة أتباع الأسد؟»، وكان الشّباب ينظرون إليّ باستغراب ويضحكون، ولا يفهمون شيئًا ممّا أقول.

من أين تنبع قوّتهم؟ مَن الغريب فينا عن معنى الحياة؟ مَن الأكثر التصاقًا بجوهر العيش، نحن أمْ هم؟ الّذين يعيشون في حضن الموت ويلتهمونه كلقمة سائغة في ضحكاتهم التي قد تبدّدها في لحظة أشلاؤهم المبعثرة. إنّهم مجرّدْ وهم في عقول النّاس. أن تقول «الجيش الحرّ» يعني أن تتخيّل جيشًا، لكنّهم هم أنفسهم من يمكن أن تصادفهم في الشّارع. وهم مجموعات متباينة في التّوجّه والصّفات، في القسوة والرّحمة، مختلفون في الانضباط بأخلاق الثورة، والتّفلّت منها، لا يحملون صفة التّشابه في ما بينهم. كتائب «الجيش الحرّ» هي

نسخةٌ عن حياتنا وتنوّعها، فيها تفاوتٌ شاسع. الفارق فقط أنّ موتًا بخفّة ريشة يتبختر بينهم، وأنّ توصيفهم الأكثرَ واقعيّةً هو «كتائب المقاومة الشّعبيّة المسلّحة».

لا أعرف السّبب الّذي جعلني أبدأ الكتابة عن بوّابات أرض العدم، بالحديث عن آخر حاجز مسلّح قبل مغادرتي، سوى تأثري بالجنديّ المنشقّ الّذي تحوّل طفلًا. كلّما أغمضت عينيّ، انفجرتْ صورة الجنديّ الصّغير الّذي رمى سلاحه ليعتذر إليّ عن ذنب لم يقترفْه حقيقةً، وهو أنّ «الخالة» التي أمامه، من طائفة ضبّاطه في الجيش.

كانت البوّابة الأولى التي عبرنا منها إلى سورية تمرّ عبر المشفى المحاذي للحدود التّركيّة ـ السّوريّة في الرّيحانيّة. هناك طبقةٌ خاصّةٌ بالسّوريّين الّذين يتمّ إسعافُهم بعد القصف. غرف متجاورة تفوح منها رائحةُ مَن يتمدّدون على الملاءات البِيض، بأقدام مبتورة وأذرع مقطوعة وعيون حالمة. تطير أعضاؤهم سابحةً في الفراغ. طلب إليّ منهل، وهو أحدُ نشطاء الثورة الأوائل في «سراقب»، أن أتماسك، ونحن ندخل غرفة طفلتين: ديانا ابنة الرّابعة، وشيماء ابنة الحادية عشرة.

ديانا التي استقرّت رصاصةٌ في نخاعها الشّوكيّ، سبّبت لها شللًا دائمًا. كانت تستلقي باستسلام مثل أرنب أبيض مذعور. كيف لم تهشّم الرّصاصةُ جسدها الهشّ الصّغير؟ هذه معجزة! بِمَ كان يفكّر القنّاص حين صوّب رصاصته إلى ظهر طفلة تعبر الشّارع لشراء حلوى للإفطار؟!

إلى جانب سرير ديانا، كان سرير شيماء التي بترتْ ساقَها القذيفة. فاجأتها مع أهلها وهم يجلسون أمام البيت. قُتل تسعةٌ من أفراد عائلتها، بمن فيهم أمّها. كانت عمّتها تقف إلى جانب السّرير.

شيماء تنظر بعينين غريبتين، فيهما رجاءٌ وغضب. ابتسمتْ أخيرًا عندما وضعتُ أصابعي على جبهتها. يدها اليسرى أصابتها شظيّةٌ وتعرّضت للتفتّت. لفافة بيضاء تحيط بحوضها، تنتهي بأعلى فخذها. الفراغ يحتلّ مكان السّاق المبتورة. الفراغات تحدِّد شكلَ العضو البشريّ النّاقص. نحن ناقصون بالكمال. نحن كمال النّقصان. لا كلام يقال لهذه الصّبيّة الصّغيرة التي تنظر إليّ بعينين ساحرتين. قدمُها الأخرى مصابة أيضًا، وهناك إصابات متفرّقة في كلّ أنحاء جسدها.

أصابعي على جبهتها، وابتسامةٌ صمّاء بيننا. لم تكن شيماء وديانا وحدهما في هذه الطّبقة. في الغرفة المجاورة شابّ ينتظر أن تُبتر ساقُه بعد أن فتّتتها قذيفة. يضحك بعينيه. وشابّ آخر ينتظر أن تشفى قدمه من شظيّة، ليعود إلى سورية ويقاتل. كان قائدَ مجموعةٍ عسكريّة. هذا هو عبد الله الّذي سألتقيه في المرّة القادمة يتلكّأ في مشيته، ونصير صديقَيْن، ونذهب معًا في البوّابة الثّالثة للعدم، تحت وقع القذائف لنرتشف القهوة مع خطيبته الجميلة.

في ممرّ المشفى، وقبل الحدود بقليل، كانت كلّ أعضاء السّوريّين المتروكة خطأ في ترابها تفتقد الفراغ. الشّباب الّذين يرقدون أنصافَ أجسادٍ ممزّقة ينظرون من نوافذ المشفى القريب من رائحة البلاد. هناك، حيث عبرت الخطوة الأولى للدّخول في أرض العدم، وحيث سنلمح السماء بعد قليل، حين تشتعل بالقذائف فوق رؤوس البلدات النّائمة، ونتناول العشاء الأوّل لنا، مع إحدى الكتائب بعد "تفتناز". هناك، حيث سأنظر مذهولةً إلى وجوه الشّباب، وهم يضحكون حين تمرّ القذائف فوق رؤوسنا.

لا بطلَ سوى الموت. لا قصصَ يرويها النّاسُ سوى عنه. كلّ شيء قابل للنّسبيّة والاحتمال، إلّا بطولة الموت المطلقة، أو لحظة

خارجة عن السّياق الزّمني، حين كنّا نجتاز الأسلاك الشّائكة ليلًا. نعبر التّيه إلى التّيه، حيث حفر الشّبابُ بوّابةً لمرورنا. كنّا نركض حينًا، ونسير على مهل حينًا آخر. تلك اللّحظة المتأرجحة في سؤال المنفى والوطن. هناك على طرفَي السّياج، كانت الأجسادُ تخرج فجأة من الظّلام، ونسير كالعميان. تحتكّ كتف بأخرى. نسمع صوتًا يقول: «مساء الخير»، صوتًا يروح، وصوتًا يأتي، كأنّنا قطط سُودٌ، لكنّ عيوننا لا تلمع. المسافة الحدوديّة التي صار السّوريّون يختفون في اللّيل تحتها ليست كبيرة. يدخل ناس ويخرج ناس، يتقاطعون عند مسافة سلام اللّيل، والكثيرون لا يلقون السّلام. هلاميّون في الانسلال.

في طريق عودتنا، وعند الأسلاك نفسها، التقينا شابّيْن تونسيّيْن يعبران الحدود. قال لي الشّاب الّذي دخل برفقتنا: «إذا بقي الدّعم والتّمويل لمجموعات معيّنة من المقاتلين على حساب مجموعات أخرى لن نكون بخير أبدًا». هذا الكلام ردّده الجنودُ المنشقّون الّذين لا يملكون الذّخيرة الكافية، كما يحصل مع مجموعات إسلاميّة ناشئة حديثًا، تملك العتادَ والذّخيرة، ويقولون عنها إنّها متطرّفة وممولّة من بعض الدّول. الكتائب الممتدّة في ريف إدلب وحماه وحلب قالت في الغالب الكلامَ نفسه، لكنّ هذه الكتائب الضّعيفة التّمويل تجد دائمًا ما ينقذها من الانضمام إلى المجموعات الإسلاميّة، فعناصرها يبيعون أشياءهم وأغراضهم، يساعد بعضُهم بعضًا، كأنّهم أفراد عائلة واحدة، ويقومون أحيانًا ببيع حُليّ زوجاتهم. إحدى النّساء، وعندما كان قائد مجموعة يقوم بجمع بعض المال لشراء بنادق، خلعت خاتم زواجها وقدّمته إليه، لكنّه رفض. قائدُ مجموعةٍ آخر قال لي: «إذا بقينا على هذه الحال، فلن نتوانى عن الانضمام إلى الشّيطان لنواجه نظام بشّار

الأسد». بدا غاضبًا وحزينًا.

ليس لديهم السّلاحُ الكافي لتوسيع أرض المعركة. يريدون تخفيف القتل عن مدينة حلب، ويشعرون بالعجز. سماسرة السّلاح يشتغلون، والمعارضةُ السّياسيّة لم تنشغل بواقع الكتائب المسلّحة على الأرض، ولم تهتمّ بتشكيل قيادةٍ موحّدة. يقول قائد المجموعة: «تحت القصف والجوع والحصار والقنص والاعتقال، الكلّ سيتّجه إلى المجموعات المموّلة جيدًا بالسّلاح». سألته: «أهذا ما يريده النّظام؟». ردّ بغضب: «قولي هذا لنخبة المعارضة السّياسيّة والثّقافيّة، أين هم؟ الضّباط الكبار، لِمَ يعيشون في تركيا؟ المعركة الحقيقيّة هنا! نحن نموت كلّ يوم، وسنموت، ولا نستطيع أن نقدّم أكثرَ من أرواحنا، ولن نتراجع عن مواجهة النّظام. ربّما سنموت، لكنّ أولادنا وأحفادنا سيقاتلون نظام الأسد. أين أنتم من كلّ ما يحدث؟».

لا أستطيع الكتابة عن طريق التّسلسل، لا أجيد السّرد المتسلسل. لا بدّ من كسر الزّمن.

أعود إلى أحاديث الشّباب، وأتحدّث عن عبورنا التّائه بين حدود بلدين، وكيف استقبلتنا بساتينُ الزّيتون ورائحةُ البلاد الجديدة، وكلّ الجهات التي عبرتُها من قبلُ مع جدران البلدات المزيّنة بصور الثورة وأعلامها، ووجوه النّاس المتعبة.

في السيّارة التي تخترق حجابَ اللّيل، تجاوزنا حواجزَ عدّة لـ«الجيش الحر». لم تكن حواجز ضخمة، لكنّ الشّباب يعرف بعضهم بعضًا. القرى محرّرة، ومنها ما هو شبهُ محرّر. وكلمة «محرّرة» فضفاضة، لأن السماء ما زالت تحت سيطرة النّظام. تنطلق قذائف عدّة من حولنا، ونسمع أحيانًا هدير طائرة. الشّباب يطمئنونني. كلّ شيء

بخير، لكنّ هناك بضعةَ كيلومترات من الخطر: «بسيطة جدًّا»، يقول أحدهم، وهذه «البسيطة» تعني أنّ الموت سيأتي من السماء! نحن في السيّارة. سنمرّ على «بنش» ونشارك في التّظاهرة، ثمّ نلتقي إحدى الكتائب.

التّظاهرة في «بنش» خالية من النّساء، وفيها رايات كُتب عليها: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله». كنت وحدي وسط الرّجال، وكانوا يحدّقون إليّ بغرابة. تعرّفت إلى بعض الشّباب منهم. كانوا غايةً في التّهذيب. غنّوا وصفّقوا، ثمّ جاء شيخ يخطب فيهم. لم نغادر البلدة فورًا. تحدّثتُ مع بعض النّساء اللّواتي كنّ أمام البيوت يراقبن التّظاهرة. قالت إحداهنّ: «كنّا نشارك في التّظاهرات، والآن لم يعد ذلك ممكنًا. رجالنا يخافون علينا من القصف والقنص». «بنش» كانت محرّرةً فعلًا، لكنّ السماء خائنة. هناك حالةٌ من الغدر والخسّة، عصيّةٌ على الشرح تقوم بها الطّائرات ومدافع الدّبابات. لا يستطيعون مواجهة الثّوار على الأرض، لا يجرؤون على الدّخول إلى البلدة بعد أن جرّبوا المعارك مع أهلها. يأتون ليلًا وفي أوّل الفجر يقصفون ويهربون. يموت الأطفال والنّساء والشّيوخ غالبًا، ولا يملُّ الأهالي والكتائب من مواصلة القتال. «هذا قدرنا»، يقول الشّباب في «بنش».

لم ألمح امرأةً سافرةً. وهذا جزء من تقاليد المكان، فهم يمارسون شعائرَ الإسلام. وقفتُ في تظاهرة «بنش» سافرةً بينهم. وعندما تنقّلنا بين البلدات والقرى، وضعت الحجاب كيلا ألفت الانتباه إليّ. ولكنْ، عندما اجتمعت مع الشّباب، جلستُ بينهم سافرة، لكنّ بعضهم لم يصافحني. الحوار الّذي دار بيننا كان ذا مستوًى عقليّ وإنسانيّ عالٍ. هم أنفسهم أخبروني بأنّ بعض الكتائب الأخرى لن تقبل وجودي إلّا محجّبةً. لم يتحدّث أيّ منهم عن قيام دولة الخلافة

الإسلاميّة، بل عن دولة مدنيّة. كان وجود الكتائب الجهاديّة ضعيفًا. وفي العموم لم تكن نسبة هذه الكتائب وتوزّعها عالية، ولم تبدأ إلّا قبل أشهر قليلة. حتّى الحديث عن «الجهاديّين العرب» كان مبالغًا فيه، لكنّه بعد كلّ مجزرة، كان يزداد. في «سراقب» كان هناك قرابة تسعة عشر مجاهدًا عربيًا، من أصل سبعمئة وخمسين مقاتلًا.

العشاء الّذي تناولناه في «بنش» كان باذخًا، بيتٌ وسط بستان زيتون، ومجموعةٌ من الشّباب تجتهد في تقديم أفضلَ ما عندها من طعام إلينا. قائد المجموعة في أوائل الثّلاثينيّات، وسيم وهادئ. هو ابن بلدة «بنش». أدهشتني مرونة الشّباب في الحوار ودماثتهم، ورغبتهم في الحديث عن المشكلة الطّائفيّة، وضرورة حلّها. تحدّثنا عن محاور عدّة، وعن ضرورة عدم الإفساح في المجال لحرب طائفيّة. قال لي أحد الشّباب: «إنّ هناك ردود فعل عنيفة ضدّ عنف النّظام، لكنّها قليلة، ولا تتجاوز حالات فرديّة يتمّ تصحيحُها ونبذُها». سيقول لي الشّابّ نفسه بعد أيّام أيضًا: «إن هناك شابًا ينتمي إلى الطّائفة العلويّة تمّ ذبحه، ردًا على مجزرة، ونحن وقفنا ضدّ هذا العمل. حتّى الآن لم يكتمل للنّظام ما أراده، ولم تهجم قريةٌ سنّيّةٌ على قرية علويّة. هذا لم يحدث، ولن يحدث أبدًا، ولو دفعنا أرواحنا ثمنًا لذلك. لكنّنا لا نستطيع السّيطرة على حالات الغضب عند بعض الّذين يتمّ قتلُ عائلاتهم كاملةً، أو قصفُ بيوتهم. الزّمن ليس في مصلحة هذا الغضب!». الشّاب الّذي قال ذلك قُتل بعد أشهر عدّة على أيدي ملثّمين، اتضح أنّهم ينتمون إلى مجاهدين غير سوريّين.

يروون لي الكثير من التّفاصيل عن بعض العصابات المرتزقة التي تسرق باسم «الجيش الحرّ»، وتخطف باسم الكتائب، وهم ينشغلون بها وبحلّ مشاكلها عن مقاتلة النّظام، كما ينشغلون في بعض النّزاعات بين

الكتائب المسلّحة التي تتسبّب فيها تفاصيلُ وضيعةٌ أحيانًا، تصل إلى حدّ أنّ بعض الكتائب تخطف عناصرَ من بعض البلدات التي يدخل أفرادها في نزاع شخصيّ، ويقوم الوجهاءُ بحلّها في ما بينهم. ويتحدّث الشّباب عن بعض أخطائهم، ويفكّرون في تصحيح مسار الثورة. من الممكن ألّا يمثّل هؤلاء جغرافيا الشّمال كاملةً في ريف حلب وإدلب وحماه. لكنّ كلّ الكتائب التي التقيتُها لم تشذّ عن هذه القاعدة، بمن فيها شيخُ إحدى العشائر.

كنت أستمع إلى شباب «بنش» حين دوّى انفجارٌ كبير، ونحن على الشّرفة المطلّة على بستان الزّيتون. القمر جعل الرّؤية شبه واضحة. كانوا نحو عشرة، في الجهة المقابلة للشّرفة. لمعت السماء، فقال أحدهم: «قصف على تفتناز». وعادوا إلى متابعة الحديث وطلبوا إليّ الاستمرار في تناول العشاء. أكلت بصمت، وأنا أسمع دقّات قلبي من الخوف. سيكتب لي أحدهم لاحقًا: «بعد أن غادرتِ، بدأ القصف علينا. الحمد لله أنّكِ رحلتِ».

أصرّ عليّ الشّباب أن أرى مقبرةَ الدّبابات في «الأتارب». مجموعةٌ من الآليّات المحترقة تتكوّم فوق بعضها. هياكل معدنيّة معجونة، وآثارُ الحريق تمتدّ في أرجاء المكان، ووسط البيوت المقلوبة، مثل علب كرتون ممزّقة. الصّمت والوحشة. لا صوت في «الأتارب». لا شيء حتّى الهسيس، أو نباح الكلاب! لكن في نهاية إحدى الطّرق الفرعيّة، إذ كنّا نبحث في الخراب الهائل الّذي فسّر لنا معنى كلمة «إبادة»، كان هناك ضوءُ شمعةٍ داخل دكّان صغير، وثمّة من بعيد يلوح خيالُ امرأة تتحرّك. كان هذا الدّليل الوحيد على أن «الأتارب» ليست مدينة أشباح. مجرّد ركام بلا تشكيل ولا هويّة. وكنّا لا نزال نسمع أصوات القذائف القريبة.

تابعنا طريقنا إلى «سراقب»، وحرّكَ القائد بندقيّته وقام بتلقيمها بسرعة. ارتجفتُ. ثمّ وضع قنبلة بجانبه. كانت القنبلة إلى جانبي مباشرةً. نظرتُ إلى كتلتها الخضراء. بضعة سنتيمترات وألمسها. ارتجفتُ ثانية. وإذ اجتزنا المنطقة الخطرة، أحكم قبضته على القنبلة. وضع سلاحه على طرف الزّجاج. انتبهتُ إليه وهو يجول بعينيه كذئب في اللّيل. قال: «يا أمّا كلاب النّظام، يا أمّا الزّعران والحراميّة اللّي بيشلّحوا باسم الجيش الحرّ».

ميسرة في الأمام جهّز بندقيّته، والسّائق كان يقود بثبات الأنبياء. ومحمّد إلى جانبي قام بالحركة نفسها بسلاحه.

استطعنا المرور في العتمة المخيفة. أشجار السّرو العالية تحيط بالطّريق الإسفلتيّة الضّيّقة. بدا لي أنّ هذه الطّريق لن تنتهي. تظاهرتُ بالشّجاعة. لكنّ استرخاءَ البندقيّة إلى جانب قائد المجموعة، ووضعَه القنبلة في جيب سترته، جعلاني أفكّر في أنّ الوقت حان للزّفير، لولا فوهة البندقيّة التي صارت في مواجهتي، إذ وضعها القائد بيني وبينه. الفوهة أمام عينيّ تمامًا. فكّرتُ في أنّ حركة سنتيمترات من أصابعي على الزّناد، كفيلةٌ بإغراقي في العتمة الأبديّة العذبة.

فوهة صغيرة جدًا وشهية، تحدّق إليّ وسط العتمة. انتشلني منها صوت القائد، وهو يقول: «نروح كلّنا ولا تُمسّ شعرةٌ منكِ».

دخلنا أزقة «سراقب» بحذر. لم تكن البلدة محرّرة بالكامل، وقنّاص الإذاعة ما زال موجودًا، حيث مات كثيرون بيديه حتّى هذه اللّحظة.

دخلنا البيت المكوّن من أقسام عدّة، بيت عائلة كريمة، ميسورة الحال. يضمّ في داخله ثلاثة بيوت. هناك باحة وسط البيوت الثّلاثة.

في الجهة الخلفيّة، غرفة قديمة يسمّونها القبو، حيث صرت أفضّل البقاء. إنّها بناء قديم مقبّب يعود لأجداد العائلة. إلى اليسار، بيت الابن الأكبر، أبي إبراهيم وزوجته نورا. سأبيت عندهما. إلى اليمين بيت الابن الأصغر، ميسرة وزوجته منال وأطفاله آلاء وزُها ومحمود ونالا، وهم يعيشون مع الأمّ الكبيرة والخالة العجوز. الاثنتان مُقعدتان تقريبًا، تشرف عليهما عبّوش، الابنة التي لم تتزوّج.

ما إن وصلنا، حتّى استنفر البيت لإعداد العشاء. ميسرة من الّذين خرجوا سلميًّا ضد نظام الأسد، ثمّ تحوّل إلى مقاتل. محمّد كان طالبًا في بداية العشرين يدرس التّجارة. انخرط في الحراك السّلميّ، ثمّ انضمّ إلى المقاومة المسلّحة. نتربّع على الأرض حول طبق العشاء، وإلى جانبي دائمًا زُهام وآلاء.

صباح اليوم التّالي، وقبل الخروج لرؤية نساء الشّهداء ودراسة أحوالهنّ، وفي بيت العائلة الكبير، تتحلّق الجاراتُ الجميلات حولي، ويبدأن الحكايات عن «سراقب». آلاء إلى جانبي تنصت، تمسك بيدي. ورُها تساعد أمّها، وتنظر إليها شزرًا، وأنا أحاول استرضاء الاثنتين. أهمس في أذن آلاء بأنّ علينا سماع هذه الحكاية، فتغمزني وتضع يدها على ذقنها، وتنصت معي إلى حكايات النّساء.

المرور على بيوت النّساء لم يكن سهلًا. كان على محمّد أن يرافقني بشكل دائم في السيّارة، وكان ممنوعًا على الرّجال دخولُ بيوت الأرامل، خصوصًا أنّهنّ في مرحلة العِدّة، التي تقتضي، حسب الشّرع الإسلاميّ، أن تمتنع عن مقابلة أيّ رجلٍ إلّا بعد مرور ثلاثة أشهر وعشرة أيّام.

في طريق عودتنا من آخر زيارة، اقترح محمّد أن نزور الخطّاط والرّسّام الّذي يقوم بتلوين جدران «سراقب». فنّ «الغرافيتي» كان أحد

أهمّ الفنون التي لجأ إليها النّشطاءُ في الثورة. ما إنْ تتحرّر البلدات حتّى تتحوّل جدرانُها إلى كتب مفتوحة، ومعارضَ متنقّلة. الرّجل الّذي يقوم بتلوين جدران «سراقب» ورسْمِ لوحاتها، هو من يدفن شهداء القصف. قال لي: «أنا أدفن الجثث». يقول جثث، ويَفْرد كفّيه، ويضيف: «سأحكي لك حكاية كل واحدة منها. لكنّ ذلك قد يحتاج إلى زمن طويل. أنا أدفن الشّهداء، وألوّن جدران سراقب! ولن أترك هذا المكان».

نقف أمام الجدران المواجهة لمبنى المركز الثّقافيّ في «سراقب»، ألوان مشعّة تكسر شحوب المكان. في الجهة المقابلة، بناءٌ كُتبَ على جداره الأماميّ: «صدّق يا حاف العين ما تنسى الجفن، وصدّق يا حاف الوردة ما تنسى الغصن». وفي المقابل، جدار آخر مكتوب عليه: «دمشق، نحن والأبديّة سكّانُ هذا البلد».

نتجوّل في الشّوارع. أصوّر الجدران وواجهات المحالّ، بينما المدينة غارقةٌ في أصوات التّكبير للموت، وجنازاتُ الشّباب والأطفال، النّسوة وكبار السّنّ. غبارٌ وقحط، ولهيبُ الشّمس الحارق، ونحن نمشي. كان رجال قلائل يمرُّون، عيونهم محمرّة، لكنّها مشعّة. وأزيز رصاص القنّاص لا يزال مسموعًا. القذائف لا تتوقّف. في المساء، سيأتي شابّ أسمر، وهو قريب عائلة ميسرة، محروق الخدّين. سيجلس صامتًا لبعض الوقت، قبل أن يقول إنّ القذائف سقطتْ في حقله وأحرقت التّبن الّذي كان يتاجر به. «موسم هذه السّنة انتهى». قال جملته، وأسند رأسه إلى الحائط. كنّا نجلس فوق حصير بلاستيكيّ، على فراش إسفنجيّ، نصغي بصمت. أمّه تنظر إليه بذهول، ونسمع نخيرها لثوانٍ، قبل أن تصمت أيضًا، وتصغي معنا إلى صوت رصاص القنّاصة.

في اليوم التّالي، قال محمّد، ونحن نقف مقابل أحد الجدران في الظهيرة: «يحرقون الأراضي الزّراعيّة المحيطة بالبلدة لمعاقبة أهلها. لكنّني لست متأكّدًا ممّا إذا كانوا سيوجهون قذيفة إلينا الآن. ربما يفعلون!». ننظر جميعًا إلى السماء الزّرقاء الصّافية التي ترعد بالقذائف. «عندما تسقط قذيفة فوق رؤوسنا، لن يتسنّى لنا حتّى سماعها»، يقول، ونضحك. كان رتلُ الدّبّابات الذّاهب إلى حلب، لا يزال يتابع مروره قرب البلدة.

«سراقب» ستكون منطقة تماس لاحقًا عندما تحتدم المعارك، ولن يتوقّفوا عن قصفها». يؤكّد ثانيةً ونحن نتابع التّقدّم بالسيّارة. نصير أمام بيت مهدّم. نتوقّف، ويردف محمّد: «هذا البيت قصفوه بقذيفة، بعد أن تمّ حرقه وقُتل أحد أبنائه. الابن الّذي مات تحت التّعذيب في السّجن، لديه سبع أخوات، وأخ واحد، وهو يتيم الأب. بعدما قتلوه، علّقوه في سيّارة، وسحلوه في الشّوارع. كان من الشّباب الّذين خرجوا في تظاهرات سلميّة. شاب آخر كان يقوم بتصوير التّظاهرات، أمسكوه ثمّ وضعوه تحت الدّبّابة، وقالوا له أنّ الدّبّابة ستمرّ فوقه. ثمّ حرّكوا الدّبّابة، وكان تحتها. ظلّوا على هذه الحال لبعض الوقت، ثمّ أطلقوا ضحكاتهم، قبل أن يعتقلوه. «نحن نعيد بناء ما يقصفونه. في الجهة المقابلة، ترين هذا البيت؟»، يشير إلى بيت في الطّبقة الثّانية، فيه فجوة كبيرة: «هذا البيت لأخت أحد المنشقّين، قصفوه فقط انتقامًا من أخيها».

نهضنا خائفين منذ الخامسة صباحًا على أصوات القصف. لا وقت محدّدًا للقذائف. في اللّيل، يأتي القصف في توقيت دقيق. بين كلّ نصف ساعة وساعة تسقط قذيفة. منذ ثلاثة أيّام، سقطت مئة وثلاثون قذيفة. منال، زوجةُ مبسرة، قالت إنّهم منذ بداية الثّورة، لا

يعرفون النّوم جيدًا. يناموون ساعةً واحدة، ثمّ يستيقظون. كانت عيونهم غائمة. أخذتُ آلاء ورُها، ونزلتُ بهما بسرعة إلى الملجإ. آلاء أمسكتني بجذعي ونحن ننزل الدّرجات، ورُهام أحاطتني بذراعيها. كنّا ننزل ببطء لأن الطّفلتين تمسّكتا بي من جانبَي، وأيّ حركة غير محسوبة كفيلةٌ بأن نسقط نحن الثلاث. البيت كبير، لكنه يعجّ بأفراد العائلة النّازحين من بيوتهم: الجدّة الكبيرة، أمّ الجميع، والخالة أيضًا، وجيل البنات وأزواجهنّ، والرجال وزوجاتهم، وجيل الأحفاد، وأولاد الأحفاد. كل بيت تتكوّم فيه عائلات عدّة، هناك بيوت اقْتُحمتْ وخُرّبتْ، بيوت أخرى في مرمى القصف، أو يشكّل موقعُها نقطةَ تماسّ. بيوت تقع تحت عين القنّاصة. وبيوت لمنشقّين اختفوا. العائلة كبيرة هنا، «لكنّ الخير موجود» كما تقول إحدى النّساء.

الملجأ عبارة عن غرفة واسعة، والعائلة تستخدمها لوضع لوازم العمل في الأرض والأنابيب والمعدّات. في الملجإ فتحةٌ تمّ ردمُها. قالت منال إنّها آثار قذيفة سقطتْ من السماء، وباب الملجإ غُلّف بأكياس من نايلون. الأطفال والنّساء هنا، وينضمّ إليهم بعض الرّجال. العجوزان تبقيان في الأعلى مع رجال العائلة. تقول البنت الكبرى: «لا تستطيعان التّحرّك، والوقت اللّازم لنزولهما وخروجهما غير كافٍ للهربِ من مصادفة الموت بقذيفة. وهما مريضتان، وتبقيان في الغرفة، تسمعان أصوات القذائف. وعندما يهدأ القصف، نسمع صوتًا من مئذنة الجامع ينعى موتَ أحد الأهالي، تبقى العجوزان في الأعلى تنظران إلى الفراغ البسيط الّذي يتيحه زجاج النّافذة».

بعد أن نزلنا إلى الملجإ، كانت آلاء ورُها وتالا يزهون بأنفسهنّ، ويتحدّثن عن أنواع القذائف والصّواريخ، وتحمل إحداهنّ بيدها قذيفة، تحتفظ بها ذكرى. جاءت عائلاتٌ من الجوار، ونزلتُ إلى الملجإ.

عائلات كثيرة لا ملاجئ لديها. العائلة التي يتمركز القنّاص في مواجهة بيتها، هربت إلى هنا أيضًا. رأيتُ بيتها، كانت آثار رصاص القنّاص تتوزّع على الجدران. قالت الأم، ونحن نتجوّل خائفين ومسرعين، أنّها عندما تريد الانتقالَ بين الغرف، وعبورَ صحن الدّار، تقف طويلًا وهي تراقب القنّاص. تغافله، ثمّ تهرب منه لتشرب كأس ماء، أو تأتي لأولادها بالطّعام، أو لتقضي حاجة. «أنا ألعب مع ابن الكلب هذا القنّاص»، تقول وتضحك. تضع على رأسها حجابًا زهريًّا، وترتدي فستانًا مزركشًا بنباتات استوائيّة. الفستان يلامس الأرض. النّساء كلّهنّ هنا يرتدين فساتين طويلة، والأمّ التي تلعب مع القنّاص بدت غريبةً بزهوها وسط دمار بيتها. قالت لي نساء البلدة، لاحقًا، أنّ القنّاص نفسه قام باستهداف امرأة في عضوها التّناسليّ، وقتل طفلة في الثّانية عشرة من عمرها يوم مغادرتي البلدة. وهو القنّاص نفسه الّذي اضطرّ الشّباب لجعلي أدخل بين البيوت، لتجنّب المرور في الشّارع الّذي يطلّ عليه. تلك الحادثة التي جعلتني أتوقّف، وأشعر بأنّ شللًا ما يمنع ركبتيّ من الاستقامة. صرخ الشّباب: «هيك ما بيمشي الحال، بدها قوة قلب!». أيضًا تعلّمت من تلك الحادثة أن أؤجّل حزني وشقائي لوحدتي. كانت أبواب البيوت مفتوحة أمامنا، ونحن نراوغ القنّاص. نقفز من نافذة، إلى سلّم في أسفل الدّار، ثمّ ندخل صحن دار أخرى ونحمل أحذيتنا، ونحن ندخل البيوت الغريبة. العجوز التي اجتزنا بيتها، بينما كنّا نمرّ في غرفة الجلوس، ألقينا عليها السّلام، وردّت وهي مستلقية، من دون أن تتحرّك. كانت معتادة على مرور أهل البلدة عبر بيتها. لقد فتحوا أبوابهم وهدموا الجدران في ما بينهم، وجعلوا من بيوتهم شوارع لهم، تجنّبًا للقنّاص. وأنا أقفز من النّافذة، حذفت فيها عليّ ألمع استغرابًا ما. كانت تحدّق النّظر في السّقف، كأنّها لا

ترانا نحن الثّلاثة. عبرنا بيوتًا كثيرة، وصرنا بأمان. كانت هذه هي الطّريقة الوحيدة للاحتماء من القنّاص!

في النّهار أيضًا، كانت القذائف تنهمر رغم سطوع الشّمس، والصّمت لا تقطعه في وضح النّهار إلّا أصواتُ القذائف، ورصاصُ القنّاص. قالت الأمّ ضاحكة، ونحن نتجاوز عتبة البيت: «ما تخافي، لما بيكون القصف شغّال، القنّاص بيهدّي اللعب». غمزتْ لي بعينها، ثمّ حملت ابنها بيد واحدة ورفعته في الهواء، ورمته في حضنها. كان بيتها فارغًا، مجرّد بساط يغطّي أرضُ غرفةٍ واحدة. عندما عدت معها إلى الملجإ، جاءت عائلةٌ جديدة من الجيران. قالت آلاء التي دأبت على سرد حكايةٍ ليليّةٍ قبل النّوم، وهي تشير إلى العائلة الجديدة: «أمّهم معنا، وأبوهم مع بشّار أنا أبي من الثّوار، وهدون مع بشّار كمان، يعني مو معنا! بس معليش، لازم يتخبّوا عنا منشان ما يموتوا».

هذه السّمراء الصّغيرة ـ شهرزادي ـ كانت تملك أجمل عينين سوداوين رأيتهما في حياتي. تمشي بخفّة، وتسرّح شعرها كلّ ساعة. تضع عليه الورود الاصطناعية، وورودًا صفرًا وحمرًا وزهريّة، تختارها بألوان ثيابها. تراقب الجميع، وتصبح أكثر دقّةً عندما ننزل إلى الملجإ. تهتمّ بأختها الصّغيرة ابنة السّنتين ونصف السّنة. السّمراء تراقب جميع الأطفال حولها، ولا تسمح لأحد بالاقتراب منّي، ثمّ تشرح لي بالتّفصيل، حكايات موت الجيران، والشّباب الّذين اختفوا من البلدة واحدًا تلوَ الآخر.

قبل توقّف القصف بقليل، سحبت القذيفة من يد أختها ابنة السّنتين والنّصف، وقالت لها بكلّ هدوء: «الصّغار لا يحملون القذائف». هي لم تتجاوز السّابعة، وعندما كانت تسمع صوت قصف جديد، ونحن ننتظر متكوّمين بعضنا فوق بعض، تهرع لتحضن أختها،

وتضمّها بشدّة. امرأة أخرى يتكوّم أطفالها حولها في زاوية الملجإ، تقول: «كان جنود بشّار ورجال الأمن والشّبّيحة يدخلون وينهبون. يأتون بالشّاحنات المعبأة بالذّخيرة، يقتلوننا بها، ثمّ يعودون بتلك الشّاحنات ممتلئة بأثاثنا المسروق. قتلوا أولادنا وسرقوا بيوتنا. ولكن، لماذا فتحوا خزانتي، وقاموا برمي فساتيني في ساحة الدّار، ومسحوا مؤخّراتهم بها، وبالوا في أكواب الشراب؟ حتّى فستانُ عرسي القديم لم يَسْلم منهم، صار كلّه خراء».

في بيت آخر، سأرى أطفالًا كثرًا صامتين. كانت هناك امرأة تقارب الأربعين تمسّد ظهرَ ولدٍ تجاوز العاشرة، وهو الوحيد الّذي بقي لها، لكنّه مصاب بخللٍ عقليّ. لا يتكلّم، عيناه الزّرقاوان تضحكان، وجهُه قمحيّ جميل، وفمه مفتوح ، يسيل منه اللّعاب. كانت المرأة أمًّا لثلاثة شبّانٍ آخرين، حكت قصّتها، وبقيت عيناها مفتوحتين على اتّساعهما، وهي تشرح بالتّفصيل كيف سحبوا ابنها من حضنها. احمرّت عيناها، وسقطت دمعة. قالت إنّ الدّمع لم يعد يخرج، كانت دمعة كبيرة جدًّا، سقطت بهدوء، وهي تروي قصّتها: «أخي كان من أوائل النّاس الّذين خرجوا للثورة. كيفما اتّجهتِ هنا يعرف النّاس محمّد حاف. إنّه بطلُ سراقب. خرجوا في تظاهرات سلميّة أوّلًا، لكنّهم قصفونا، وأعدموا تسعةً من أولادنا أمام الجميع. بقي أخي يقاتل حتّى الرّمق الأخير. كان يقول لي: لن نموت كالجبناء، سنموت كما يليق بنا. أخي الثّاني أيضًا قتلوه. حرقوا بيتي، وهربنا من البيت. قُتل أخوان لي، وابني انتزعوه من حضني، رجوتُهم أن يتركوه بحاله، لكنّهم لم يستجيبوا لي. ابني الثّاني أيضًا قتلوه. ما زال لديّ هنا ولد، لكنّه مع الثّوّار. ذهب أولادي. راحوا كلّهم، وبقي هذا الصّغير، تشير إلى ابنها المريض الّذي ينظر إلينا باستغراب، ويضحك. تتابع: وكما

ترين. . . يا حسرتي! ابني الّذي بقي مع الثّوّار قال إنّه لن يعود حتّى تصير سورية حرّة».

تأتي بصور ولديْها الشّهيدَيْن. الأوّل، عيناه خضراوان وشعره ذهبيّ، في التّاسعة عشرة من عمره. أصابعها على الصورة تتحرّك كأمواج. تفرد الصّورة الثّانية لشابّ لم يكد ينمو زغب فوق شفتيه، ثمّ تسحب صورة «محمّد حاف» وترفعها عاليًا. الصّورة الرّابعة، تتوقّف عندها. تطرق رأسها أرضًا. تقول: «انتزعوه من يدي. بقيت ممسّكة به حتّى اجتمعوا عليّ وسحبوه من حضني. توسّلتُ إليهم أن يتركوه. ركضتُ وراءهم، لكنّهم أخذوه. كان ناشطًا في الثورة، قتلوه. كان طفلًا . . .».

قصص الصّباح لا تنتهي. في المساء، حين نعود من جولة في القرى مع الشّباب، يحضر أحد المقاتلين المنشقّين من جبل الزّاوية، وهو قائدُ كتيبة عسكريّة. عيناه تضجّان بالحيويّة، لكنّه بين حين وآخر يسهو، فيلتحم جفناه، ويبدو وجهه هادئًا إلّا من الموت. قال: «أخي الصّغير، أخذوه إلى السّجن، عذّبوه، وأخبروه بأنّني قُتلت، وأنّهم قطعوا جسدي ورموا أجزاءه في الجبل. بعد أن عذّبوه، أحرقوه حيًّا. نحن من قرية عين لاروز، قُتل منها ستّة أولاد. أخي كان في السّادسة عشرة. كان حيًّا عندما أحرقوه. . وقد بلغ عدد الشّهداء في قريتنا ستة عشر شهيدًا. أهلي تركوا البيت، واختبأوا. في بداية الثورة والانشقاقات، كنت أتواصل مع ضابط علويّ؛ كان صديقي، تواصلنا مع صف الضّبّاط أيضًا، ومع الأهالي. وخلال شهر في بداية الانشقاقات كان لدينا سبعمئة عنصر، أربعةٌ هرّبهم لي هذا الضّابطُ العلويّ الّذي كان يقوم بمساعدتنا. في البداية خفتُ منه، ولكنّني جازفتُ بالتّعامل معه، وبقي يساعدنا حتّى آخر لحظة. كانت الاتّصالات بيننا تتمّ بسرية تامّة. لم نكن نتحدّث عبر الهاتف. فجأةً

اختفى. ولا أحد يعرف عنه شيئًا. النّظام يخاف من الانشقاقات، فكان يقوم بتغيير الضبّاط دائمًا. بعد ذلك، سيطر الجيش على المنطقة كلّها. وانسحب الآن تكتيكيًا إلى حلب، لكنّه سيعود. نحن نقوم بتصنيع بعض الأسلحة حين لا يتوافر السّلاح. جرّبنا أن نصنع صاروخًا بموادّ بدائيّة، لطالما كنّا نفعل ذلك، لكن في إحدى المرّات، انطلق الصّاروخ الّذي كنّا نجربه، نحو السماء واختفى. خفنا، وركضنا. كنّا في حقل قمح. كانت تجربة فاشلة».

يقهقه، فتغرق عيناه في محجريهما. يتابع: «ركضنا مثل توم وجيري، وخشينا أن يسقط فوق البيوت، رغم أنّنا كنّا بعيدين جدًّا منها، لأنّ وزنه كان ستة عشر كيلوغرامًا، وهذا يعني أنّه سيسقط بوزن ستة عشر طنًّا! وجدناه بعد أيّام في حقل القمح نفسه. نحن نعلّم أنفسنا، ومن الممكن في أي لحظة أن تنفجر بنا الصّواريخ».

يصمت الشّاب، ينظر إلى الجمع حوله. كنّا كثرًا، نجلس في القبو ببيت العائلة الكبير، وكان عدد المقاتلين يفوق العشرين، وصوتُ القذائف لا يزال يُسمع.

يريد المقاتل الاسترسال في حكايته. لكنّ صوت القذائف لا يتوقف، وآلاء السّمراء تنظر بعتب ونزق، لأنّ وقت النّوم قد فات، وهي لا تنام قبل أن تحكي لي حكاية، حكاية الجيران الّذين قُتلوا، والّذين تحبّ تعداد صفاتهم واحدًا واحدًا، وهي تقرّر مَن كان أحبّهم إلى قلبها. قالت لي، ونحن نغادر القبو: «يعني إنتي كمان رح تموتي؟». ضحكتُ، وقلت: «لا... لن...».

قبل أن أتمّ جملتي، هزّت رأسها، وقالت بسخرية: «هي... هي... كلّ اللي ماتوا قالوا نفس الشي!».

تركت آلاء هذه المرّة بعيدًا من الحكايات. طلبت من ميسرة ومحمّد عدمَ رواية ما يحصل أمامها. أخذت تلاحقني بعينيها منذ الصّباح، كأنّها أدركتْ خيانتي لها. الشّاب الّذي سيذهب معنا كان ينتظر في الخارج، وعندما أخبرتُها بأنّني ذاهبة إلى جبل الزّاوية، شمال غربي «سراقب»، عبستْ، وأدارت ظهرها، ثمّ رمقتني بنظرة قاسية. قلت لها: «سنذهب إلى جبل الزّاوية، يجب أن نرى زوجات الشّهداء، ونرى ظروف كلّ واحدة منهنّ، والمشروع المناسب ليصبح بإمكانهنّ الاعتماد على أنفسهنّ. كنت أتمنّى أن أتمكّن من اصطحابكِ، لكنّ هذا خطر عليك والقصف مستمرّ». قالت: «أنا ما بخاف!». حسمت أمّها الموضوع: «البنات ما بيروحوا لهيك محلّات». نظرتْ إليّ باستغراب. غمزتُ لها بعيني وهمستُ: «أنا رجل متنكّر متل البنات»، فضحكتْ بصوت عالٍ، ثمّ غمزتني أيضًا، وابتعدتْ عن أمّها، وهمستْ لي: «اليوم منحكي باللّيل رح أحكيلك شو بيصير». ضحكتُ وأغلقت الباب بقوّة.

في الطريق إلى «جبل الزاوية» توافر الوقت لسماع المزيد من القصص. كلّ شاب يروي لي قصّة. سجّلت مئات القصص، ومنها:

«وجدناه بعد ستّة أيام. كان ملقًى في الحرش. اختفى يوم الرّابع والعشرين من آذار سنة ٢٠١٢. وهو اليوم الّذي اقتحم فيه الجيشُ مدينة سراقب. كان متكوّمًا، ورائحةٌ نتنةٌ تفوح من المكان. دمه القاني واضح، لأنّ جرحًا ثخينًا بدا جليًّا في رقبته. مات ذبحًا. ثيابُه على حالها. يبدو جسده من بُعد كقطعة قماش مرمية. لكنّ قطعة القماش تلك حملتْ في ذلك الحرش جسدَ شابّ من بيت العبود، هو أوّلُ من استُشهد يوم اقتحام سراقب. ظننا أنه معتقل مثل كثرٍ غيره، لكنّه كان ميتًا. بقي حيًّا في قلوبنا ستّة أيام إضافيّة، أنا واثق من أنّه تمّ القبض عليه بطريقة غادرة. يومذاك لم يحمل سلاحه، تركه في البيت، ثمّ خرج واختفى. لو كان يحمل سلاحه لما سلّم ببساطة، لكنّهم غدروه. الجرح الّذي حزّ رقبته كان من الخلف، لقد شرب التّراب دمه.

وتابع: انسحب الجيش بعد الاقتحام الأوّل، وكانت خدعةً لنا. بقي القليل من عناصره. كان ذلك يوم السّبت. عاد يوم الثّلاثاء ليقتحم تفتناز وجرجناز، وأيضًا لإخضاع المنطقة كلّها مجددًا، بعد أن سيطرنا عليها. أحرق سبعين بيتًا في جرجناز، ومئةً في سراقب. دخلتْ دبّاباته واقتحم البيوت، كان عديده كبيرًا. عندما خرج، كانت سراقب كتلة من خراب. يومذاك قتلَ خيرة شبابنا. سعد باريش طريح الفراش بعد إصابته بشظيّة في يده، وأخرى في رجله. كان في بيت أخته، والأخت وابنها عدي معه، حينَ اقتحمَ عناصر الجيش البيتَ وخرّبوه، ثم سحبوه وابنَ أخته من حضن أمّه. أخذوهما، وجرّوهما في الشّارع. كان الجريح يصرخ، لكنّهم لم يلتفتوا، بل ظلّوا يسحلونهما في شوارع سراقب حتى توارَوا عن الأنظار. أخذت الأمّ تصرخ وتلحق بهم.

رموها أرضًا، واختفوا، وسمعنا رشقات رصاص. كانت الأم تركض حينًا، وتزحف حينًا آخر، في اتجاه مكان إطلاق الرّصاص. وجدناهما ملقيين على الأرض مقابل حائطٍ. رصاص في الرّأس وفي كلّ أنحاء الجسد، حتّى في مكان إصابة الجريح، في رجله ويده. رصاص مزّق اللّحم. الأمّ نفسها التي انتزعوا ابنها من حضنها وجرّوها على الأرض قبل أن يمزّقوا جسد الابن بالرّصاص، استقبلت جنودًا آخرين بعد فترة. جاؤوا من أجل ابنها الثّاني. كان الجنود جائعين، فطبخت لهم الطّعام. أحدهم صار يصرخ بها، فشتمته وقالت: أنت في بيتي وتأكل من طعامي، وتصرخ في وجهي؟ صمت الجنديّ، وطلب من رفاقه ألّا يؤذوا المرأة، لكنّهم أخذوا ابنها المراهق. حين خرجوا، كان الجنديّ الّذي صرخ بالمرأة حزينًا وهو يراها تبكي، وتتوسّل لكي يعيدوا ابنها. خرجوا، وعاد الابن ميتًا.

«مع ذلك، لم يستسلم الشّباب، ولم يخافوا من أعدادهم الضّخمة، ولا من قصفهم وقتلهم، وظلّوا يدافعون عن البيوت حتى فرغت ذخيرتُهم. بقي ستّة منهم محاصرين بلا ذخيرة، فاستطاع الجيش اقتحام المنزل الّذي يتحصّنون فيه. أحرقوا القبو، وكانوا سيعدمون صاحب الدّار رغم أنّه رجل عجوز، لكنّ زوجته جثت عند أقدامهم وقالت لهم: «بّوس رجليكم يا أولادي لا تقتلوه، بّوس رجليكم اتركوه... زلمة ختيار... وما إلو دخل بشي». لم يقتلوه، لكنّهم ضربوه بوحشيّة، ورموه في الشّارع. أخذوا الشّبّان السّتّة، كانت أعمارهم بين العشرين والثّلاثين. أسندوا ظهورهم إلى أحد الجدران، وأطلقوا النّار عليهم دفعة واحدة، فخرّوا جميعًا خلال لحظات، وتكوّموا بعضهم فوق بعض، وغادر الجنود المكان، كأنّهم لم يفعلوا شيئًا! في اليوم التّالي، جالوا في شوارع سراقب. أوقفوا محمّد عبّود

في وسط الشارع، وأطلقوا النّار عليه، ثمّ اعتقلوا أخاه. يومذاك، قتلوا محمّد باريش الملقب محمّد حاف. لم يتجاسروا على مواجهته، لأنّه عُرف بشدّة البأس، وكان قائدَ كتيبةٍ حظيتْ بشعبيّة كبيرة في سراقب. حامت طائرةٌ في السماء لاغتياله، وفي داخلها جنود يطلقون عليه النّار من أسلحة رشاشة. يعاونهم على الأرض عناصر في عربة بي إم دبليو يطلقون زخّاتٍ متواصلة من الرّصاص في كلّ الاتّجاهات. بعد أن قتلوه، وتأكّدوا من أنّه فارق الحياة، اقتربوا منه، وقاموا بالرّقص والهتاف ابتهاجًا. أما زهير عبّود الّذي اعتقلوه في ذلك اليوم، فقد خرج بعد ثلاثة أشهر من التّعذيب. وبعد أيّام قليلة كان يسير في أحد شوارع سراقب، فدهمه رصاص قنّاص. حقّقوا نصرًا مؤقتًا علينا. كنّا نضرب بالكلاشنيكوف، وكانوا يردّون علينا بقصف الدّبّابات والطّائرات، لكن، كما قلت لك، كان هذا النّصر مؤقّتًا فقط».

انتهت روايةُ الشّابّ، قائدِ المجموعة، عن الاقتحام الأول لـ «سراقب»، والّذي كان يرافقنا في السيّارة. قصّة واحدة تكفي لتدوينها من بين مئات القصص!

الشّمس تحرقنا، ونحن نجوب الرّيف الشّماليّ لحلب وإدلب وحماه. أثناء مرورنا نتوقّف عند حواجز الكتائب المسلّحة ومقارّها. كان ذلك بمثابة اكتشافٍ متأخرٍ للهويّة السّوريّة، ولجغرافيّة بلد من طين ودم ونار، ومفاجآت لا تنتهي. الغبار في كلّ مكان، ولهب من نار ظلّ يلوح من بعد، ثمّ ذلك الصّمت المريب في القرى. كأنّها مجرد أوابد. النّاس لا يظهرون إلّا قليلًا، وأصوات تحليق طائرات في الجوّ. القصف صار بعيدًا عنّا. قال الشّاب: «ممكن في أيّ لحظة أن تسقط قذيفة. ولكن لا يبدو الآن أنّها ستسقط!».

الطّريق الخاوية، واجتياز القرى الصّامتة، وحواجز الكتائب

المسلّحة في الظّهيرة، والملوحة في عينيّ: كلّ ذلك ألقى بي على حواف البكاء، لولا أنّني لمحت شيئًا ما يتحرّك. نظرت فإذا حقلٌ واسعٌ، في نهايته مجموعةُ خيوطٍ من الماء ترشّ الحقل. إذن، الحياة مستمرّة رغم كلّ شيء! وفي نهاية خطّ الأفق لاحت فتاة لا تتجاوز الخامسة عشرة. خفق قلبي ونظرتُ إلى السماء، هل من الممكن أن نكون هدفًا لقنّاص في طائرة؟ كانت تقفز بفرح وتضع رأسها تحت الماء. تنزع حجابها وتبلّله مع شعرها، وتمسح وجهها.

فجأة، ظهرت بيوتٌ طينيّةٌ صغيرة مقبّبة، ثمّ مرّت شاحنة صغيرة. مجموعة من الفتيات الصّغيرات الملثّمات تحت الشّمس، انحشرن في صندوق الشّاحنة. كنّ واقفاتٍ، وبيد كلّ واحدة منهنّ معولٌ، وإلى جانبهنّ بضع نساء. تتوقّف السيّارة، ينزلن منها ويتّجهن إلى الحقل. من غير الممكن أن تكون هذه المناطق عرضة للتحوّل إلى حاضنة شعبيّة للجهاديّين والسّلفيّين، لأنّ طبيعة الحياة الزّراعيّة والرّعويّة هنا تتطلّب وجود النّساء في العمل قبل الرّجال. إلّا في حال تمّ حكمها بقوّة السّلاح.

قرًى على امتداد الشّمس والفقر والتّعب، لأسمائها رنينٌ خاصّ ومعانٍ مفاجئة: «ريان، لوف، معصراني، قطرة، كفرعميم، قطمة...»، وقرًى أخرى تقاوم الموت النّازل مباشرةً من السماء. تنزل الفتيات الصّغيرات والنّساء باتّجاه الحقل. اللّثام الّذي تتلثّم به كلّ واحدة، والّذي لا يبدو منه سوى أعينهنّ، وُضع بطريقة تكفل حماية وجوههنّ من الشّمس لأنهنّ يقمن بعزق الأرض في عزّ الظّهيرة.

هناك تلّة تلوح من بعيد: إنّها «مملكة إيبلا»، في قرية «تل مرديخ» التي ازدهرت حضارتُها منذ الألف الثّالث قبل الميلاد، قال الشّاب إنّ قذائف صاروخيّة عدّة انهمرت عليها.

الوهج الحارق يلفحنا. اختفت الحياة من جديد، لولا أسراب من الطّيور تقطع الصّمت. كان يجب المرور أمام مجموعات عدّة من الكتائب، فالشّبّان بحاجة إلى ذخيرة ويريدون الحصول على بعضها، إضافة إلى أنّ هناك مشكلةَ خطفٍ سيقوم أمير إحدى العشائر بحلّها. وصلنا إلى مقرّ كتيبة «لواء أحرار العشائر» في منتصف الظّهيرة. كنّا مجموعتين في سيّارتين. الشّبّان يفاوضون على شراء كمّيّة من السّلاح. لم يعد لديهم ما يدافعون به عن أنفسهم. وقفتُ بعيدة أراقبهم. الرّصاصات تلمع تحت الشّمس، والشّبّان يحركون أصابعهم بينها ويذرونها مثل حبّات العدس. لم تكن كمّيّة كبيرة، وبصعوبة تكفي للدّفاع عن بضعة بيوت، ولكنّها كانت ضروريّة لكي يواصلوا التّفاوض للحصول عليها، والأفضل بسعر أرخص أيضًا، لأنّهم لا يملكون المال الكافي!

دخلنا البناء. الشّمس تجلد الوجوه. أربعة شبّان كانوا في انتظارنا، كلّ سلاحهم لا يتجاوز «الكلاشنيكوف»، ومقرُّهم لا يوجد فيه هاتف أرضي، أو إنترنت، والهواتف الجوّالة غير متوافرة لأنّ خدمة الاتّصال مقطوعة عن المنطقة كلّها. كانوا يَشغلون غرفتين فقط بمجموعة من الأسلحة البسيطة، يواجهون الدّبّابات والطّائرات. وعلى رغم ذلك استطاعوا أن يهزموا قطعاتٍ عسكريّةً عاليةَ التّسليح، وأن يجبروها على التّراجع. الشّابّ الأسمر الّذي جلس إلى جانب قائد المجموعة اعتذر عن فوضى المكان. كانت هناك طاولة وبضع كراسٍ، والشّمس تخترق الغرفة. وجوههم ملوّحة بسمرة قاتمة. في الزّيارة اللّاحقة سأعرف أنّه تمّ قصف المقرّ. حينذاك، وقبل القصف، كنّا مستعجلين للوصول إلى عشيرة «آمار الموالي» في «الدّقرة»، وهي من عشائر ريف «معرّة النّعمان»، التي سنلتقي بأحد أمرائها، فسأكتشف فقر

أبنائها وكرمَهم وعزّةَ نفوسهم وشجاعتهم. سأسمع أيضًا قصصهم الكثيرة، التي كان آخرها حماية صوامع الحبوب من السّرقة، كي لا يجوع النّاس. هناك، سنتحدث مع مجموعة من الشّباب، ومع أمير العشيرة، عن أهمّيّة وجود دولة مدنيّة، وعن سورية واحدة، طائفتُها الحرّيّةُ فقط.

أمير العشيرة، عبد الرزّاق، كان رجلًا في منتصف الخمسينيّات، يحاول فكّ أحد المخطوفين. زوجته تعدّ لنا الغداء، وابنه ذو الثّلاثة عشر عامًا يقوم بخدمة الضّيوف.

مرّت طائرة في السماء، خرجتُ لأنظر. خرج الجميع ينظرون إليها مثلي. الخوف يسمّرهم. وحين نظرت في تلك اللّحظة، عرفت معنى المنفى والوطن، رغم أنّني أتسلّل هاربة وبطريقة غير قانونيّة عبر حدود بلدي. فالوطن هو أن أحدّق الآن في طائرة ستلقي قذائفها علينا، وأحدّق إليها بثبات ودقّة، ومن دون خوف، وأتابع أين سترمي الموتَ. والمنفى هو أن أكون جالسةً في ساحة «الباستيل» وسط باريس، أرتشف قهوتي تحت شمس لطيفة، وعلى يساري عاشقان يتبادلان القبل، ويحطّ عصفورٌ على ركبتي، فأقفز من الفزع والخوف!

عدنا إلى مضافة أمير العشيرة، نتابع تفاصيل تحرير أحد المخطوفين. قال الأمير: «كما ترين نحن هنا انتفضنا ضدّ الظّلم. لا نريد سوى مطالبنا العادلة في وطنٍ فيه القانون هو ما يحكمنا، نحن بالأصل عشائر ولدينا سلاح، وغير أنّنا خرجنا بشكل سلميّ. ولكنْ عندما أرادوا قتل أطفالنا ونسائنا حاربناهم. والله العظيم أنا رجل جامعيّ ومتعلّم، لكنّ ظفرَ طفلٍ من عشيرتي يساوي الدّنيا كلّها، ولن أقبل أن تُمتهن كرامتُه وكرامة أيّ سوريّ. والله أنتِ كأختي، والّذي يمسّ شعرةً منكِ، فكأنّه مسّ أختي. أنتِ معنا في موقفنا ضدّ ظلم

وطغيان بيت الأسد. ونحن كلّنا سوريّون ضدّ الظّلم...».

تحدّث الأمير مطوّلًا، وأنا أصغي إلى حديثه الذّكيّ والمثقّف، البسيط والعميق، وهو يروي كيف ضاعت ثروته منذ بداية الثورة، وكيف تقاسمها مع النّاس. وتحدّث بفخر عن أخيه، القائدِ المقاتل ضدّ بشّار الأسد.

كلّ تلك الاكتشافات المذهلة في قرى الرّيف المتناثرة لم تمنعني من استحضار حديث جنديّ منشقّ، في مقرّ الكتيبة المقفر التي تركناها. وحين وقفنا بعيدين قليلًا من رؤية السّلاح ومعاينته، ألحّت عليّ حكايتُه ولمعان عينيه المحفورتيْن في ذاكرتي. قال الجنديّ المنشقّ في حكايته:

«تطوّعنا أنا ومحمّد معًا. كان دائمًا إلى جانبي. في حمص حين كنّا نداهم أحد الأحياء، قالوا لنا، توجد عصابات مسلّحة وإرهابيّة. دخلنا بيتًا وكسّرنا كلّ ما فيه، فصرخ الضّابطُ فينا، وهو يسبّ ويشتم. أراد أن يقوم أحدُنا باغتصاب فتاة. كانت العائلة تختبئ في إحدى الغرف. أمرنا الضّابط بالتّأهّب، بعد أن وقف وسطنا، وأخذ يستعرض وجوهنا بإصبعه، إلى أن وقف وخبط بكفّه على ظهر محمّد، وأمره بأن يدخل الغرفة. محمّد من قرية الضّابط نفسها، في منطقة الغاب. تراجع مذعورًا، فأخذ الضّابط يسبّه: «يا مرا! يا حريمة!». ركع محمّد على الأرض، وانحنى يقبّل حذاء الضّابط، ويقول له: «دخيلك يا سيدي والله ما بقدر، اعفيني من هالشّغلة». ركله الضّابط، ومدّ يده إلى زنّار بنطاله، وقال له: «رح اقطع لك ياه يا حريمة»! صار صديقي يبكي. لو تعرفين محمّد! محمّد لا يبكي. هو شابّ شجاع. لكنّني رأيتُ دموعه حينذاك. كان يبكي مثل الأطفال، ورأيتُ مخاطه يسيل فوق فمه. كان يتوسّل إلى الضّابط أن يعفيه من المهمّة. محمّد صديقي، ولدينا الكثير

من الأسرار المتبادلة، وأعرف أنّ لديه حبيبة. عندما مدّ الضابط يده بين فخذيْ محمّد، وقال له: «بعلّمك كيف تعملها يا حريمة؟ بدّك علّمك كيف؟» ركله محمّد، وهجم عليه. كان قويًا، واستطاع أن يبطح الضّابط. ضربه، ثمّ توقّف ورمى سلاحه. نهض الضّابط على الفور، وأطلق النّار على محمّد، فأرداه. أنا رأيت هذا بعيني. وهل تعرفين على أيّ جزء من جسد محمّد اختار الضّابط أن يطلق النّار؟». صمت قليلًا، قبل أن يشير ومن دون أيّ خجل إلى ما بين فخذيه: «هون».
ثمّ تابع حديثه:

«عندما طلب من صديقنا الثّاني أن يدخل ويغتصب الفتاة، دخل بصمت، ثمّ سمعنا صراخها، وصراخ أمّها وإخوتها لأنّهم حشروهم في غرفة ثانية. كان أبوهم منشقًّا، وقد قُتل قبل يومين. فعلوا ذلك في ريف حمص، وبعض أحياء حمص. يومذاك قرّرتُ أن أنشقّ. والله، لا يمرّ يوم من دون خيال محمّد. هو في قلبي، أحتفظ برسائله لحبيبته في بيت أهلي، وإذا عشتُ سأوصلها إليها، سأفعل ذلك، هذا قسم ودين في رقبتي، إذا بقيت على قيد الحياة».

عند ذاك، وهو يردّد: «إذا بقيتُ على قيد الحياة»، كانت شمس الظهيرة الحارقة تلفحنا تحت رعد القذائف.

في المساء عدتُ صامتةً، بوجه محروق. لم أعتدْ شمس البادية. وحدتُ عبوش في انتظارنا مع النّسوة والأطفال. آلاء كانت تجلس في حضني، وتمشّط شعري، وتراوغني لمعرفة المزيد عن نهاري، وعن القصص التي سمعتُها. كنت مشروعها لحكاية قادمة. أرادت تحويلي إلى حكاية، وجعلي مشروعها الحكائي قبل النّوم لضيوف سيعبرون بيتها. تريد أن تكون لديها مادّة لتقصّها عنّي للآخرين. تقول إنّها تحفظ كلّ الحكايات من حولها. لكنّ تلك المتعة الخفيّة بيني وبين ابنة

السّابعة لم تكتمل، فقد بدأ القصف. حملتُها بسرعة، وأمسكتُ بيدِ زُها وركضنا مذعوراتٍ إلى الملجإ. كان دويّ الانفجارات قويًّا. العجوزان بقيتا في الأعلى. لحقتْ بنا العائلة من الغرف المجاورة. وهناك، في الأسفل، قلت لآلاء جملة سحريّة جعلتها تنتفض: «تعالي أحكِ لك حكايتي». لمعتْ عيناها في الظّلام، والأخت الرّزينة زُها، ابنةُ الحادية عشرة، التصقتْ بي، الاثنتان تحدقان في عينيّ، وأصواتُ القصف لا تتوقّف، وبدأتُ أحكي لهما: «أنا لم أكن كما تريانني بالأصل، في حياتي السّابقة، كنتُ غزالًا تألّم بشدّة، وانفجر قلبُه من الألم». نظرتا بخيبة إليّ وصرختا: «ما تكذبي!». ضحكنا... ضحكنا طويلًا، وأنا أحاول إقناعهما بأنّني كنت غزالًا. قلتُ لهما أنْ لا خيار لنا سوى النّوم هنا على الحصير، وإنّ عليهما الاستماع إلى آخر الحكاية، وإلّا فإنّني سأنام لأنّني مرهقة. كان المزاج كئيبًا، والعائلة الكبيرة تتكوّم فوق بعضها البعض بخوف، لكنّني أكملتُ من حيث انهيتُ، بعد إذعانهما: «تألّم قلبُ الغزال، وهناك نزلتْ نقطةُ دم على العشب الأخضر... وولدتُ!».

غفوت، وأنا أكمل الحكاية، وبدأ نطقي يثقل. لمحتُهما مثل طيف وهما تقومان بترتيب غطاءٍ رقيق على ظهري قبل أن أنطفئ نهائيًا.

البوّابة الثانية

شباط ٢٠١٣

هذه ليست لوحةً فقط. تستطيع أن ترى الرّأسَ ناقصًا، والذّارعَ تتدلّى من جانبِ الشّفة السّفلى، ثمّ تلمح بضعَ قطراتٍ من الدّماء تنزلق ببطء أسفل اللّوحة، تمتصّها ذرّاتُ التّراب. مشهد يبتدعه السّوريّون كلّ يوم.

سوريّون يأكلون سوريّين، يمضغونهم ببطء، ثمّ يغذّون المسيرَ باتّجاه سهوبٍ أوسعَ للمجزرة. هذا ليس مجازًا من كاتبةٍ مريضةٍ بيباس أصابع الدّم والكتابة. كان ذلك واضحًا لي، ونحن نجتاز المطار الأوّل من إسطنبول باتّجاه أنطاكية. ورغم معرفتي بتفاصيل الرّحلة المعتادة، إلّا أنّ صورة اللّوحة التي احتلّت فضاء المطار وأنا أرى عشرات الشّباب الملتحين أربكتني. كانوا يرتدون نظّاراتٍ سودًا، ويطلقون لحاهم بطريقة غريبة، منهم من قام بتلوينها بالأحمر تيمّنًا بالنّبيّ محمّد،

وحلقوا شواربهم. كانوا مضطربين، ويبدو أنّهم مستعجلين. لم أعرف ما إذا كنت سألمحهم مرّةً أخرى، لكنّني حاولت مرارًا العبور بينهم لمعرفة هويّاتهم وجنسيّاتهم. أحدهم يمنيّ والآخر سعوديّ. جميعُهم يتحاشوْن النّظر إلى النّساء. أجلس بالقرب منهم لسماع ما يدور بينهم من أحاديث. كانوا صامتين، ومثلي ينتظرون الطّائرة المتّجهة إلى أنطاكية. المطار مكتظٌّ بالنّاس، والبشر يتحرّكون داخله مثل جماعات تنوي الخلاصَ بعجلة وقلق. في مطار إسطنبول وأنطاكية، كان السّوريّون يختصرون مأساةَ الزّمن القادم في تيهِ عيونهم الواضح.

حقيبتي صغيرة، أضعها على ظهري. كنت حريصة على تخفيف حمل الكثير من الأشياء أثناء عبوري الحدود. صعدنا الطّائرة. أمامي رجلان يمنيّان، وعلى الجهة المقابلة سوريّون وسوريّات. غالبيّة ركّاب الطّائرة من السّوريّين والعرب.

«الرّيحانيّة» التي سأعبرها من جديد ليست بلدةً فقط. هي مدينة صغيرة، كانت قبل الثورة هادئة، قِبْلةً للسّيّاح السّوريّين واللّبنانيّين، وازدهرت بفضل تهريب البضائع بين تركيا وسورية لوقت طويل، بحاضنة القرى الحدوديّة التي يقطنها البدو، وكانت لهم علاقاتٌ قويّةٌ في التّهريب مع قرًى مثل «أطمة» التي بُني قربها واحدٌ من أهمّ مخيّمات اللّجوء السّوريّ وأكثرها بؤسًا .الهدوء والتّبادل التّجاريّ وتهريب البضائع، كلّ ذلك لم يعد ممكنًا الآن؛ فقد تحوّلت المدينة الهادئة إلى مكان معرّض للقذائف بين الحين والآخر، وصار الزّحام فيها خانقًا، يعانيه أبناؤها الأصلاء نتيجة لنزوح الأعداد الضّخمة من اللّاجئين السّوريّين الّذين هربوا من القصف، وهؤلاء لا يحتسبون لاجئين لأنّهم يعيشون خارج المخيّمات الرّسميّة. هناك تجّار صغار يستفيدون من هذه المنطقة الوسط بين عالم الموت وعالم الحياة،

ويديرون أمورَ الموت، ويحوّلونها موادَّ للتّجارة، ويديرون أمورَ الحياة كذلك، إضافة إلى الفقراء الّذين يبحثون عن لقمة العيش في الشّوارع، أو بعض الأغنياء الّذين يطلبون الأمان. وهناك بينهم أيضًا موالون لبشّار الأسد.

السيّارة تجتاز بنا السّوق التي ستؤدّي إلى القريّة الحدوديّة. كنّا نتحرّك بمشقّة. السيّارة بطيئة من الزّحام. هناك يبدو كلّ شيء معروضًا للبيع، بذلات عسكريّة لـ «الجيش الحرّ»، أعلام الثورة، خرداوت، ألبسة وبقايا أدوات منزليّة. بضائع وموادّ غذائيّة معلّبة تنتشر على الطّرقات، ورجال وشباب وأطفال يدلّلون على البضائع، غالبيّتهم من السّوريّين. في الواقع، لم نجد على الطّرقات باعةً أتراكًا. كان الباعة سوريّين، والزّبائن الّذين يعودون بالرّبح الوفير كانوا من السّوريّين أيضًا.

يتأفّف الأتراك من الوجود السّوريّ ومن اللّاجئين، لكنّ الأمر مختلف في العمق، فهناك ربح بالنّسبة إليهم. وهنا، داخل هذه البقعة الصّغيرة الملاصقة للأرض السّوريّة توجد أطرافُ الصّراع. جماعة النّظام يوجدون ولهم أعمالهم وقنواتهم التي يريدون التّسرّب منها إلى الثّوّار والنّشطاء. هذا ليس بخافٍ على كثرٍ، وعلى المرء أن يكون حذرًا هنا. هذه أرض مفتوحة على الخراب والبناء بالدّرجة نفسها. الأتراك استفادوا من تدفّق رؤوس الأموال الهاربة من سورية إلى هنا، فأجّروا محالَّهم وبيوتَهم، ورفعوا الأسعار، ومبيعاتُهم تضاعفتْ أضعافَ ما كانت عليه. هنا في «الرّيحانيّة» ألمح محالّ سُمّيت بأسماء مدن وقرًى سوريّة، تصطفّ إلى جنب مع المحالّ التركيّة، وعلى واجهاتها كُتبت الكلمات باللّغة العربيّة. كأنّ قطعة أرض اقتُلعتْ من الجغرافيا وزُرعتْ هنا، وكأنّ هذا الجسد المنهوش يتوزّع هنا وهناك،

لكنّه يضيع ويختفي في مجارير المدن وسواقيها الموحلة. يضيع كما الأشياء كلّها تتناثر وتضيع.

طفل يقف إلى يمين السيّارة، لم يتجاوز عمره عشر سنوات، يمدّ يده المملوءة بالبضائع. الأطفال يتسابقون ليعرضوا المبيعات. لا بدّ من أنّهم تركوا مدارسهم وبيوتَهم وطفولتهم إلى الأبد. المحظوظ منهم يعيش مع عائلته، ولكن كما قال لي البائع، هم بمعظمهم يتامى عبروا الحدود ويعيشون هنا في الطّرقات.

في الجهة المقابلة للرّصيف شباب من «الجيش الحر»، لا نعرف من أي كتيبة، ولكنْ يبدو أنّهم وصلوا توًّا، وكانت بانتظارهم مجموعاتٌ أخرى. السّلاح ليس واضحًا وعلنيًّا، كما يبدو داخل الأراضي السّوريّة، لكنّ سحناتِ المقاتلين الشّاحبة ولحاهم الطّويلة وعيونَهم المسهّدة تشي بأنّهم يحتاجون إلى أيّام طويلة من الرّاحة، وبأنّهم جاؤوا إلى هنا لقضاء ما هو ضروريّ، يخرج من السيّارة التي يقفون إلى جانبها شابٌّ، يحملونه على أكفّهم، وهو مبتور الذّراع والقدم. يبدّلون السيّارة، ويصرخ أحدهم: «يلاااااا بسرعة».

يقول السّائق: « رح وصلكون لأوّل بوّابة الغنم وارجع».

في مساحة تتراوح بين ستّة وعشرة كيلومترات مربّعة، تتوزّع مجموعةُ قرًى قبل الحدود الفاصلة مع تركيا، وهي تتألّف من عشائر البدو التي كانت تعيش، قبل الثورة، على التّهريب بين تركيا ومدينة «إدلب»، إضافةً إلى تربية المواشي والزّراعة، وهي تتقن التّركيّة والعربيّة، ولهجتُها بدويّة. إلى الجنوب من هذه القرى جبال فاصلة بين الدّولتين. يعمل البدو عبر سلسلة من الأقرباء وأبناء الأعمام في تمرير البشر وتهريبهم، ويتوزّعون كنقاط تواصل عبر الحدود! فمنهم من يقف

في أعلى التّلّة، ومنهم من يقف في أسفلها، وثالث يرافق البشر حتى نقطة التّهريب. وهم يعرفون جميع المنافذ الحدوديّة المؤدّية إلى الدّاخل السّوريّ، وجميع فتحات الأسلاك الشّائكة. تربطهم علاقاتٌ وطيدةٌ برجال الجندرمة التّركيّة، ويتواصلون عبر أجهزة تلفوناتهم النّقالة، أو عبر الصّياح والإشارة المتّفق عليها في حال كانوا مرئيّين بالنّسبة إلى بعضهم. أجسادهم نحيلة، سُمر البشرة، يتحرّكون بخفّة وسرعة، ويختفون بين الأشجار، كأنّ لديهم طرقًا غريبة للتّحوّل إلى جزء من الأرض.

عندما وصلنا، كان في انتظارنا شابّ أسمر. توقّعتُ أن يكون هذا العبور شبيهًا بالعبور الأخير. مجرّد ركضٍ متعبٍ بين سياجَيْن وانتظار نسائم اللّيل ليتسنّى لنا العبور. لكنّ، النّقطة التي عبرنا منها، كما قال لي ميسرة، صارت مراقبةً ولم يعد يسمح بالعبور منها، بخاصّة بعد التّفجيرات الأخيرة على الحدود السّوريّة ـ التّركيّة.

دخلت السّيّارةُ بنا إلى زواريب ضيّقة وموحلة. البيوت عارية، وخلفها زرائبُ لتربية الأغنام. الأطفال، رغم البرد، يقفزون شبه عراة، ومسيلاتُ المياه الصّغيرة تعوّق التّقدّم. «بوّابة الغنم» قرية كالحة، وأمامنا جبال صغيرة خضراء، وسيّاراتٌ تقف على طرفي الحدود. من بعيدٍ لاحت مجموعات من البشر تنتظر. علينا الالتفاف من وراء الجبل والسّير باتّجاه نقطة أخرى. حملتُ حقيبتي على ظهري، وانطلقنا. كنّا ثلاثة برفقة الشّباب الّذين يقودوننا. تقدّمنا بضع خطوات، ثمّ ظهر جنود الجندرمة. ركضنا، وقال المهرّب: «لا تقلقوا». كان يتحدث بعربيّة بدويّة. ظهرت سيّارةٌ عسكريّة من اليمين وتقدّمتْ نحونا. وهنا صرخ المهرّب، وعاد أدراجه. ركضنا وراءه، وعدنا إلى بداية الزّقاق الّذي انطلقنا منه. قال: «سنشرب عندي شايًا في البيت وننتظر لنعبر».

اتّجهنا إلى بيته، تجاوز الأزقّة الموحلة نفسها. كانت رائحة النتن والرّوث تفوح من كلّ مكان. النّساء لا يظهرن. فقط رجال وأطفال، وبشر يمرّون بسرعة. سيّارات تحمل بشرًا يتجاوزون الضّفّتين. البيوت الإسمنتيّة التي بناها البدو تشبه خيمهم. الألوان نفسها. انطباع التّقشّف، والأمكنة العابرة.

قبل أن نصل إلى الحدود بدقائق، ظهرت المجموعة التي سترافقنا. كنّا حوالى عشرين شخصًا، وأنا المرأة الوحيدة بينهم. معنا ثلاثة مهرّبين، يقودوننا، لمحتُ شابّين رافقا رحلتي من مطار إسطنبول إلى أنطاكية: اليمنيّ والسّعوديّ. وقفا باستعداد. اقتربتُ منهما، وكنت على مسافةٍ حذرة، وأردت الإصغاء إلى ما يقولانه. لوهلةٍ هممتُ بالقول لهما: «ما الّذي تفعلانه في بلدي؟» لكنّني صمتّ. تعلّمتُ في السّنتين الماضيتين فنّ الصّمت.

الشّابّان متأهّبان ويحملان ما خفّ من المتاع، قد يكفي لموتهما الذّاهبين إليه. تقدّمنا، وكنت أحاول اللّحاق بهما. نظر أحد المهرّبين إلينا وقال ممتعضًا: «ما تقول معاك حرمة يا أخي، تعالوا من هون... تعالوا الطّريق هون أسهل!»، دخلنا في سهل صغير من القمح، ورحنا ندوس بأقدامنا الطّين والأوراق الخضرَ النّديّة التي تتوزّع بين أشجار الزّيتون. المهرّب الأكبر سنًّا يراقبني بقلق، وأنا أخفي وجهي ورأسي بحجاب قاتم مع نظّارة سوداء. أسرعتُ وتجاوزتُ مجموعتي، وصرت على مقربة منه، ثم حثثت السّير وتجاوزته. كنتُ مجهدةً، لأنّني لا أريد أن أترك له فرصة لكي يجلعني سببًا لبطء المجموعة. طلب منّي مهرّبنا التّوقّف. بقيتُ في مكاني، وانتظرتُ قدومهم، ثمّ مشيتُ بمحاذاتهم، ونظرتُ إلى المهرّب الكبير السّنّ. حدّقت فيه بعد أن نزعت نظّارتي، فمشى وتركني ولم يتأفّف بعد ذلك، لأنّني امرأة بين

المجموعة، ما يعني، كما توقّع المزيد من البطء والمتاعب.

لا بدّ للرّجال بغالبيتهم من أن يتذكّروا أنّني امرأة، ومكاني ليس هنا. المقاتلون المحيطون بي طوالٌ وضخام وعيونهم واضحة وقوية، لحاهم طويلة، ولا يلتفتون ولا ينبسون ببنت شفة. العلامات التي رآها كثرٌ اختصارًا للرّجولة والإقدام، أنا رأيتها تعبيرًا عن تساوي الموت والحياة. هم سائرون في الفناء، وعقيدتهم تجلعهم يعيشون في الموت. قادمون من أجل مرحلة انتقاليّة بين الحياة والحياة. الموت هو الكرة السّحريّة التي ستطير بهم إلى جنّات الخلد، لذلك لم أكن متأثرة بحضورهم كمعنًى للحياة، بقدر ما كنت أعيش حزني عليهم ورفضي لوجودهم!

نتوقّف قليلًا عندما نسمع صوت إطلاق نار. طلقات الرّصاص كانت في الهواء، والكلّ يعلم أنّها لإخافة النّاس، وتنظيم تهريبهم فقط.

أمامنا كانت التّلّة مرتفعة. جبل صغير حاد الانحدار. كان المهرّب قد أنهى جداله مع الجندرمة التّركيّة. لا بدّ من أنّ هناك مصلحة لأحد ما بتهريب البشر بين الحدودين، ولا بدّ من أنّ الجندرمة رأت المقاتلين ذوي المظاهر السّلفيّة الواضحة. أحيانًا يتعاملون بقسوة مع النّاس، لكنّ تلك القسوة لا تتعدّى الضّرب بخشونة، ولا تصل إلى حدّ إطلاق النّار المباشر، وهذا بحدّ ذاته كفيل بطمأنة الهاربين والمهرّبين.

صعدنا في اتّجاهات عدّة. ابتعد الشّباب عنّا وصرنا ثلاثة فقط مع المهرّب. كان الصّعود قاسيًا، وكنت أتلفّت من حولي، ولا أريد تشكيل أيّ إعاقة لتقدّم الرّجال. ثنيتُ ركبتيّ قليلًا، وحنيتُ ظهري

ومشيتُ، أخذت أدبّ على أطرافي الأربعة. مسافة قليلة تفصلني عن الأرض. هكذا نحن، مجرّد حيوانات. ليتنا نبقى على غريزة البقاء والتناسل القويّة عند هذه الكائنات.

فداء عيناي صديقُنا الصّحافيّ اللّبنانيّ الّذي يرافقنا، يطلب إليّ التّمهل حتّى لا أتعب. قلت بصوت مرتجف: «اسمع! إذا توقّفت للحظة، فسأتدحرج إلى الوراء في الهاوية»، ضحك. حينذاك اقترب ميسرة وحمل عنّي الحقيبة، وركضنا إلى أعلى القمّة. ركضت، ولم ألتفت إلى صيحاتهم، وكنت أسمع دقّات قلبي تأتي من القمّة. بدأ الهواء يتحوّل سياطًا حادّة في رئتيّ. الأرض موحلة تقريبًا، والجبل تربته حمراء وخصبة. في القمّة المفترضة، المشهد مختلف. نهاية الجبل عبارة عن حافّة عريضة وطرف لطريق بين الأشجار. هناك كانت تنتظرنا سيّارة. لكنّ مجموعة من الجندرمة التّركيّة تقدّمتْ نحونا بعد أن ظهرت من بين أشجار الزّيتون. فتّشوا حقائبنا، وتحدّثوا مع المهرّب. كانت الدّوريّات تتوزّع في أماكن عدّة وتظهر فجأة!

بعد تفتيش حقائبنا، عبرنا وسمحوا للمقاتلين الغرباء بالعبور. هنا، انفصلت المجموعات. المقاتلون اختفوا، وكانت هناك مجموعة تنتظرهم. قال لي الشّاب الّذي معنا إنّهم ذاهبون للقتال، وهم سعوديّون ويمنيّون، ويوجد بينهم فرنسيّ من أصل تونسيّ، وهم، في الغالب ذاهبون إلى حلب الآن.

أرحاتُ الحديث مع نفسي حول تدفّق هذه الأعداد الهائلة من الجهاديّين الغرباء عبر الحدود. أخبرنا الشّابُ الّذي أصرّ على إخفاء هويته، بأنّهم ربّما سيذهبون إلى «جبهة النّصرة». حينذاك ظهرت مجموعة جديدة من أصحاب اللّحى الطّويلة. لم يكن حضور «جبهة النّصرة» معلنًا من قبل. كان حضورهم غير مرئيّ، والأهالي لا

يسمحون لهم بالوجود ضمن القرى. يقول فداء: «ستلاحظين أنّهم الآن أكثر قوّة وحضورًا. المرحلة القادمة ستكون أصعب لأنّ نفوذ هذه المجموعات سيزيد ويظهر بشكله الأقوى والأعنف، وسنرى فيديواتٍ تُظهر هؤلاء يجلدون النّاس، ويقطعون رؤوسهم».

دوّى إطلاق نار من جديد بين قرى الحدود، واختفت مجموعات السّلفيّين بين الأشجار. كانت مجموعات السّوريّين تتهادى مثل خيوط متشقّقة وناتئة من لوحة. كلّ مجموعة تنظر إلى الجهة المقابلة، وأزيز الرّصاص يرتفع، وبدونا جميعًا كقطعان هاربةٍ من الصّيد.

مدينة «بنش» كانت فارغة. لم تكن ممتلئةً بالتّظاهرات كما المرّة السّابقة. قصفتها طائرات الـ «ميغ» التّابعة للأسد، وهجرها أهلها، ولم يبقَ فيها سوى قلّةٍ قليلة. تسيطر عليها «جبهةُ النّصرة»، التي حافظتْ على الأملاك العامّة فيها، لكنّها كانت تتدخّل في حياة النّاس، وكانت تعدّ لبس «البنطال» بدعةً حتّى للرّجال، واستُعيض عن اللّباس المتعارف عليه بلباس أفغانيّ، وانضمّ إليها كثرٌ من أهل «بنش». تغيّرت أشكال العسكرة التي كانت موجودة. الحواجز صارت أقلّ عددًا.

حين وصلنا إلى مطار «تفتناز» صرخ ميسرة: «يا ألله ما إلنا غيرك يا الله، ويمّا العمر ضاع... يمّا العمر ضاع... هون استشهد أمجد الحسين».

عرفتُ أمجد قائد كتيبة في «سراقب». شاب في الخامسة والعشرين. مهذّب، لا ينظر في عين محدّثه، غاضب لما آلت إليه الثورة. كان إسلاميًا محافظًا، ولكنّه يريد دولةً مدنيّة. استشهد في معركة مطار «تفتناز». كثرٌ من الشّباب الّذين التقيتُهم سابقًا ماتوا. كنّا نستعيدهم واحدًا واحدًا، ونحن نعبر القرى باتّجاه «سراقب» مجدّدًا.

والسّهوب الخضرَ والقرى الحجريّة.

نجتاز حقول الفول والنّهوب الخضرَ والقرى الحجريّة.
الطّريق موحلة وصعبة الاجتياز بسبب القصف والقذائف التي خزّنتها. يقول ميسرة: «سيطر النّظامُ على مدينة «إدلب» وصارت معزولة عن ريفها. الكتائب تتقاتل الآن، واللّصوص في الثورة أكثرُ من الثوّار. هناك عائلات ضدّ عائلات. مرتزقة ضدّ مرتزقة... يا ألله ما إلنا غيرك يا ألله!».

البيت خالٍ من ساحرتي الصّغيرة. كانت آلاء وإخوتها قد تركوا «سراقب» واستقرّوا في أنطاكية، وصار ميسرة يعود إلى البلدة بين وقت وآخر. البيت موحش من دون الصّغيرة التي اعتدتُ رفقتَها. الخوف من القذائف والموت العشوائيّ الّذي لا يرحم، أرغم ميسرة على أن يأخذ عائلته ويتركها في تركيا. أنا ونورا و«أبو إبرهيم»، وعيّوش والعجوازن من حديد. العائلة الكبيرة يأتي أفرداها ويروحون، وقد قدموا لنسهر معًا. منهم أشخاص استقرّوا فترةً في البيت الكبير، لأنّ بيوتهم هُدمت، ولأنّ القصف في منطقتهم متواصل، لكنّهم لم يكونوا سكّانًا دائمين. غالبيّة البيوت صارت مفتوحة للأقرباء والأصدقاء والمعارف، وأنا وعيّوش كنّا نزور بيوتًا للنّازحين. كانت عيّوش قد منحت عائلةً نازحةً غرفةً في بيتها.

صباح اليوم التّالي، ذهبنا لتفقّد العائلات النّازحة وأماكن القصف. ثمّة شرطيّ يقوم بتنظيم السّير. هناك نظام يحاول ترتيب نفسه في البلدة بصعوبة وتعثّر. الطّرقات تغيّرت، وزادت دمارًا. ورشاتُ البناء تحاول إصلاح ما دُمّر. على الجدران في «سراقب» لمحتُ بعض أبياتٍ لمحمود درويش كُتبتْ إلى جانبها للمرّة الأولى جُملٌ تمجّد «جبهة النّصرة» و«أحرار الشّام». تقول إحدى الجمل بخطّ عريض: «جبهة النّصرة وأحرار الشّام نبض القلوب».

الشّرطة تتقاضى رواتبها من بعض الكتائب. يكتب الشّرطيُّ المخالفة المروريّة، والكتائبُ العسكريّة تعاقب. هناك مخبز تابع لكتائب «أحرار الشّام». المحكمة الشّرعيّة تتألف من قضاة ومشايخ. القانون هنا هو الشّرع والدّين، وتسيطر على المحكمة الشّرعيّة «جبهةُ النّصرة». أمّا الكتيبة الأمنيّة فمؤلّفة من كتائب عدّة، منها «صقور الشّام» و«درع الجبل» و«شهداء سورية». تقول عيّوش إنّها لن تستطيع أن تُريني البلدة كلّها لأنّ القصف مستمرّ، وتجوّلنا في السيّارة خطر، ويجب أن نذهب لرؤية النّازحين. لكنّها مع ذلك، تقف أمام كلّ بيت مدّمر، وتحكي لي حكايته. بيوت بلا أبواب، بيوت بلا أسقف ولا جدران، مجموعة من الأحجار المتراكمة مثل هضاب حجريّة: «هنا مات أبو محمّد وأولاده». وتشير إلى بيت آخر: «القذيفة التانية أخدت بيت أقربائنا. مات ابنهم الشّابّ. وهداك البيت المهدّم، قتلوا أهله». نتوقّف أمام البيت، وألتقط الصّور، ثمّ أعود إلى السيّارة. عيّوش تملك سيّارة وتجاوزت الخمسين.

عندما وصلنا إلى قبو النّازحين، كانت طائرة تلوح في السماء، فركضنا بسرعة. القبو صالة فسيحة، على جوانبها تصطفّ شراشفُ تفصل بين مجموعات عدّة من أفراد العائلة نفسها، لكنّهم يتوزّعون في الزّوايا. الأمّ جميلة صهباء ممتلئة، وحولها أربعُ فتيات اثنتان منهنّ كانتا تدرسان في الجامعة. أكبرهنّ متزوّجة ومعها ثلاثة من أولادها، وهناك أقرباء آخرون يتوزّعون في طرف القبو. الأشياء مبعثرة، ثمّة قفص صغير فيه عصفوران، وثمّة حصير، وبضعةُ أكوابٍ من الشّاي. فجأةً بدأ السّقف يهتزّ، وسمعنا دويًا قويًا. قفزنا من الخوف. كانت الطّائرة قد ألقت قذيفتها في البيت المجاور، الذي لا تفصلنا عنه سوى أمتار عدّة، وهو البيت نفسه الّذي كنّا نتحدّث مع نسائه وهنّ يقمنَ

بلملمة الزّجاج المتناثر من قذيفة البارحة التي أودت بحياة ابنهم الشّاب. كنّ ينظّفن المكانَ بالماء و«يزحن» آثار القصف. عند القذيفة الثّانية، بقينا في القبو وانتظرنا. كانت دبّابة على مقربة من البيت، وضعها أحد قادة الكتائب، والقصف يدور حولها. هذا ما فعلوه دائمًا، قصفوا بيوت المدنيّين التي تتجمّع حولها الكتائبُ حتّى تفقدهم حاضنتهم الشّعبيّة. سألتها عن قصّة نزوحها، وأنا أرتجف تحت الدّهان المتقشّر الّذي يتساقط فوق رؤوسنا مثل ندف الثّلج من قوّة انفجار القذيفة. المرأة تابعت حديثها معي من دون إبطاء:

«منذ بداية الثورة قصفونا بالطّائرات. قريتنا نحن مقابل معمل القرميد الّذي صار مركزًا للشّبّيحة والجيش. قُتل كثرٌ من العائلات في القصف من آل نعسان. قذيفة سقطت على بستان الزّيتون وقتلت العمّال والمرأة والابن، أمّا الأبُ الّذي غاب عنهم ساعةً لجلب الماء، عاد ووجد مجزرة في بستان زيتونه. مرّةً جاء الشّبّيحة إلى بستان زيتون آخر، فاختفت العائلة التي تقطنه. رجال القرية وجدوا العائلةَ كلَّها مذبوحة: الأمّ وبناتها والأخ وولدًا صغيرًا وكنّة العائلة. لم أكن أريد الخروج من بيتي، ولكنّ الجيش دخل قرية المسطومة وطلب منّا الجيش الحرّ مغادرة القرية لأنّ الشّبّيحة قادمون. خفت على بناتي من الاغتصاب. وقام شخص بتهريبنا ودفعنا له سبعة آلاف وخمسمئة ليرة. بيتنا تهدّم بقذيفة، ولم نعد نملك شيئًا. معمل القرميد أمامنا، ومنه يقصفون، ولكن هناك معسكر الشّبيبة الّذي يتمركز فيه جيشُ الأسد ويقصف القرى. كانوا يقصفون أميناس، قريتنا، من كلّ الجهات. وعندما دخلوا المسطومة ذبحوا عائلات بأكملها. هناك أمّ بكت على ابنها لأنّهم ذبحوه أمامها، فذبحوها لأنّها بكت! يومَ هروبنا استهدفتْ مطارَ تفتناز ثلاثمئة قذيفة. هربنا في اللّيل. كان النّاس حفاةً، وبعضهم

نصف عارٍ، والقصف لم يتوقّف. في اللّيل، جاء الثّوّار إلينا وأحضروا الطّعام من أجل السّحور. كنّا في شهر رمضان وفي الطّريق ولّدت امرأة. وامرأة أخرى كانت عمياءَ ومصابةً نتيجة القصف، ونحن تشرّدنا، زوجي وإخوته الثّمانية كلٌّ ذهب في اتّجاه. سقط صاروخ فوق بيت أحد إخوتي، واعتقدنا أنه تحوّل إلى أشلاء، لكنّه خرج من تحت الأنقاض وهو يصرخ: «إللي جاب هالرّوح هو وحده اللي بياخدها». ضحكنا كثيرًا آنذاك. معمل القرميد صار ثكنةً عسكريّة كبيرة، وأحيانًا يتسرّب الشّبّيحة منه. في إحدى المرّات قبضوا على أحد أبنائنا فعثرنا عليه مفقوءَ العينين ومقطوعَ الأصابع لكنّه لم يكن ميتًا. وهناك رجل آخر أخذوه وكانوا يُجلسونه على منقل للفحم المشتعل. مؤخّرته شُويت كاللّحم. زوجته هربت...».

دوّى صوت آخر، وقذيفة أخرى. تتوقّف المرأة عن الحديث، ويتساقط المزيد من الدّهان المتقشّر. كان القبو رطبًا ومتشقّقًا. ومع ارتجاف البناء، تساقطتْ كتل بيضاءُ فوق رؤوسنا. العصفوران أخذا يتخبّطان في القفص، والصّبيّة أحاطتهما بذراعيها وقالت: «إنّهما يشعران بالخطر»، ثمّ فتحت باب القفص، وأمسكت العصفورين، وخبّأتهما في صدرها. وتابعت الحديث عوضًا من أمّها متجاهلةً القذيفةَ القريبة: «سوف تكتبين كلّ ما أقول لك». قلت: «نعم، سأفعل».

كانت جميلة. عيناها خضراوان، وجنتاها حمراوان. نحيلة. عمرها عشرون سنة. تضع حجابًا بسيطًا ملوّنًا على رأسها. أصابعها دقيقة وناعمة. قامت من مكانها. إخوتها يلتفّون حولها. ثمانية أطفال. أبعدتْهم عنها، ووضعتْ يدها فوق رأسي، وقالت: «هل تحلفين بالله أنك ستقولين للعالم ما سأقول؟». قلت: «أحلف». قالت: «احلفي بأغلى ما لديك سرًا في قلبك». حلفتُ في سرّي، وشعرتُ بأنّ صخرة

سوف تفتّت رأسي من قوّة كفّها عليه، لكنّها عادت وقالت إنّها رسّامة وتكتب الشّعر، ثمّ فتحتْ دفترًا، وتابعتْ: «اكتبي عن قرية أميناس... هناك وُلدت». وأخذتْ تقرأ من دفتر يوميّاتها، وبدأتُ أكتب:

«حدث هذا في الخامس من شهر كانون الثّاني سنة ٢٠١٣. أخبرونا بموت ستّ بنات وشاب وزوجته، بعد أن خُطفوا. وفي اليوم نفسه قُتلتْ عائلة أيضًا؛ ذهب أفرادها لقطاف الزيتون. وقُتلت امرأة وابناها. كما قُتلت عائلةُ أبو عامر في القرية التي نسكنها، وعائلةُ أبو عمرو والعمّال الّذين كانوا معها، أطلقوا النّار على رؤوسهم، بينما عائلة أبو عامر قاموا بخطفها أوّلًا، وعذّبوا أفرادها، ثمّ قتلوهم بالطّريقة نفسها، إطلاق النّار في الرّأس. زوجة عامر كانت حاملًا في شهرها التّاسع. أنجبتْ أثناء عمليّة القتل. ذهب الرّجال من عندنا لجلب عائلة أبو عامر المقتولة، وقالوا إنّهم وجدوها وجنينَها مقتولين. وكانت جثث الكثير من العائلات تنتشر بين أشجار الزّيتون، وقد قتلت بالطّريقة نفسها، طلقة في الرّأس».

وتضيف الفتاة ذات العينين اللّوزيتيّن، وهي تحدّق إليّ بحزم، وتراقب الكلمات على الدّفتر، وأنا أنتظرها لتكمل حديثها: «الشّبّيحة فعلوا هذا، ولكنّهم ركبوا سيّاراتٍ وكتبوا عليها الجيش الحرّ. نحن نعرف أنّهم شبّيحة. وقبل مغادرتهم، خرّبوا الأراضي واقتلعوا الأشجار، ودمّروا كلّ ما صادفوه في طريقهم. وقبل أن يذهبوا قاموا بتصوير الجثث والدّمار الّذي أحدثوه، وبثّوا الصّور على الإنترنت، ثمّ كتبوا عليها أنّ الجيش الحرّ هو من قام بهذه الأفعال».

«هل أكمل؟» تسألني بلهفة وخجل. أجيب: «بالتّأكيد... أرجوك». يلمع بريق في عينيها وتتابع:

«في الثّاني عشر من شهر كانون الثّاني، في السّاعة الثّانية والنّصف، كنّا في قرية أبين، عند عائلة من أقاربي، مضت علينا أيّام ونحن مشرّدون لا ننام، بعد خروجنا من أميناس، كانت الأخبار تقول إنّهم سيقصفون قريتنا ويقضون على الثّوّار. جاءنا السّاعة العاشرة ليلًا نبأ مفاده أنّ رتلًا من الدّبابات والعساكر سيمرّون في طريقهم إلى تفتناز، قاصدين المطار الّذي يحاصره الثّوّار، من القرية. فخرجنا السّاعة الحادية عشرة ليلًا. كنّا خائفين، ومعنا سيّارة صغيرة بثلاث عجلات، وضعنا بعضًا من أغراضنا فيها. تعطّلت فينا السيّارة، فدفعناها، ثمّ تابعنا الطّريق. كان الخوف يأكل قلوبنا. نمشي في اللّيل على غير هدًى. مررنا بقرية سرمين، ثمّ سرنا على الأوتوستراد مسافةً طويلة، وعندما توقّف المحرّك بشكل نهائيّ، وقفنا في منتصف الطّريق، ثمّ ذهبنا إلى القرية الأولى التي صادفناها. قصدنا المنزل الأوّل، لكنّ أصحابه لم يفتحوا لنا وطلبوا إلينا الرّحيل. ثمّ قصدنا البيت الثّاني، فلم يفتحوا. أصحاب البيت الثّالث رحّبوا بنا، وقالوا إنّنا نستطيع قضاء اللّيل عندهم، لكنّ أمّي رفضت وقالت إنّها لا تشعر بارتياح، وطلبتْ من أبي أن يصطحبنا إلى كفرعميم عند أصدقائه. كانت السّاعة قد تجاوزت الأولى بعد منتصف اللّيل، والكلاب تنبح حولنا، كنتُ خائفة. ظلامٌ وأصواتُ كلابٍ قويّة تجري خلفنا! عند السّاعة الثّانية ليلًا وصلنا إلى كفرعميم، وفيها تنقّلنا من بيت إلى بيت».

تضيف، مع صوت قذيفة تهوي، هي لا تتوقّف عن الكلام، وأنا لا أتوقّف عن الكتابة: «في الثّالث عشر من شهر شباط، كنّا نتنقّل ونتحرّك تائهين، ضائعين. كلّ يوم ننام في مكان، هربًا من القصف والقذائف. لم أكن أتوقّع أن يحدث هذا كلّه، لكنّ هذا التّنقّل جعلني

أتعرّف إلى القرى المحيطة بنا من كلّ الجهات».

تنظر إليّ، وهي لا تزال تحمل دفترها، والعصفوران داخل صدرها، ومنه يطلّان برأسيهما. «وبعد ذلك؟» أقول. فتضيف بصوت متهدّج، وأمّها تصبّ لنا كوبين من الشّاي، وتحوقل وتبسمل دائمًا: «في الخامس عشر من شهر شباط. وصلنا إلى سراقب في تمام السّاعة الثّالثة وعشر دقائق، وكنّا تركنا قرية أبين، حزمنا أمتعتنا من جديد، وانضمّت إلينا مجموعة من الأقارب، وكان يتوجّب علينا المرور من تفتناز، أو من بنش لنصل إلى سراقب بسلام آمنين».

نظرت الفتاةُ إلى عيّوش وقالت: «الله يوفقك ويحفظك متل ما أنقذتينا!»، وتتابع الحديث: «كان ذلك اليوم هو اليوم الّذي يجب أن أذهب فيه إلى الجامعة، وأقدّم امتحاني، لكنّ الطّرقات مقطوعة وغير آمنة. أريد فقط أن أنهي يومين آخرين، إذا كنت ستحذفينهما فلا داعي لأضيّع وقتك». «لن أحذفهما»، أجبت وأنا أنظر إلى عينيها الصّارمتين والمتفجّرتين بدموع مخفيّة. تفتح دفترها من جديد وتتابع القراءة: «هذا هو اليوم الثّاني لنا في سراقب. السّادس عشر من شباط. جاءت عيّوش وسجّلت على ورقة ما نحتاج إليه، أعطتها لشابّ، وبعد ذلك وصلتنا الأغطية. افترشنا الأرض، وكان المكان غريبًا، وجدرانُه مقشّرةَ الطّلاء. أكثر ما كان يؤلمني نظرةُ الذّلّ والانكسار في عيني أبي، وعباراتُ الشكر التي يردّدها لمن يقدّم إلينا الطّعام والخبز. لقد كنّا نعيش بيسر ووفرة، والآن نعيش على ما يقدّمه لنا الآخرون من تبرّعات طعام وحاجيّات. نحن الآن متسوّلون، وأشعرُ بالذّلّ. لدينا مدفأة حطب. المكان بارد ورطب، والحطب ينفد. وبطوننا تقرقر أحيانًا من الجوع. لا أحد يطلب الطّعام. نتواطأ على الصّمت. وقع صاروخ بالقرب من المقبرة قربنا. إخوتي الصّغار كانوا يلعبون. ركضنا وأتينا

بهم، ثمّ تجمّعنا كلّنا في زاوية. كان في نظراتهم رعب وجمود.

في التّاسع عشر من شباط، صار لديّ عصفوران وعشّ وفراخ، وتفقّس من بيضة فرخ صغير جديد. نضع القفص وسط المكان. إخوتي ذهبوا، اختفوا، والعصفور والعصفورة يساعدان الفراخ ويطعمانها بمناقيرهما الصّغيرين، كان عليّ أن أكون في الجامعة اليوم. قال لي أصدقائي في الجامعة إنّهم سيذهبون غدًا لتقديم مادّة في الجامعة في إدلب. أنا محاصرة هنا مع أهلي. تسقط قذيفة بالقرب منّا، فتطير العصفورة في القفص. تضرب بجناحيْها القفصَ وتبتعد عن الفراخ المذعورة. ثمّ تقترب من العصفور، ولا تهدأ العصافير حتى يتوقّف القصف. اتّصلتُ بصديقتي وطلبت إليها أن تُحضر لي المحاضرات التي فاتتني. أخذني أبي بالسيّارة ذات العجلات الثّلاث بعد إصلاحها، لنأتي بالمحاضرات، لكنّ السيّارة تعطلّت مرّة جديدة، ووصلنا متأخرّين، وغادرتْ صديقتي، بكيتُ كثيرًا. كنت مصرّةً على دراسة محاضراتي وتقديم بعض الموادّ في الجامعة. لكنّ ذلك مستحيل. عدنا إلى الملجإ نتحلّق حول العمود الّذي يتوسّطه. ونصمت في المساء».

توقّفتْ عن القراءة، بُحّ صوتها، وأمسكت يديّ، وقالت: «هذا يكفي. إذا متنا الآن، فسوف يعرف العالم قصّتنا، صحيح؟». أجبتُ ودون تردّد أو مواساة: «صحيح».

تركنا الفتاة وعائلتها، وصعدنا إلى بيت عيّوش المحترق في الطّبقة الثّانية. الجدران سودٌ. سقطت في البيت قذيفة وأحرقته. أخذت تلملم بعض الأشياء، وتشرح لي حقيقتها. لم أرَ سوى عيدان سود أو مربّعات، لكنّها تقول وبكلّ ثقة: «هذا طرف الكنابية، وهذا فنجان القهوة، هذا طرف الخزانة...».

عندما دوّى صوت القذيفة الثّالثة، قالت: «صار ضروري نرجع للبيت. بيكفي اليوم».

تجاوزنا القبو من جديد. وقلتُ في نفسي: «لو كنت أكتب نصًّا روائيًا لكانت الفتاة واحدة من بطلاتي، ووصفتها كالآتي: صهباء، لها جناحان خفيفان ينموان بسرعة حول صدرها، وتخرج من عينيها ثلاثةُ فروع من شجر الزّيتون، وكلّما حاول أحد من إخوتها الصّغار المتجمهرين حولها مثل كوم لحمٍ مهملٍ أن يحيط بعنقها، ويلفتَ انتباهها إليه بعيدًا من الزّائرة الفضوليّة التي نغَّصَتْ نهارهم أكثر من القذائف، كانت تلفّه بأصابعها، ثمّ تحشره مع العصافير تحت سترتها. كانت تنقل إخوتها بين أصابعها وفي نظرات عينيها كعصافير جريحة!».

لكنّ ما بين يديّ ليس رواية، بل حقيقة!

يقع المكتب الإعلاميّ في «سراقب» وسط السّوق. وقصف طيران الأسد يتكثّف هناك. قلت للشّباب أنّ عليهم تغيير مكان المكتب، لأنّه في موقع خطير، والمطلوب هو البقاء على قيد الحياة.

الشّباب المجتمعون في المكتب يعانون الإرهاق. وأحد جدرانه تعرّض للقصف منذ أربعة أشهر. صحافيّون يأتون وآخرون يذهبون، هنا أيضًا مصوّرون ناشطون، مقاتلون وموزّعو إغاثة. لم يكن وجود الصّحافيّين السّوريّين هنا واردًا. جاء بعض الصّحافيّين الأجانب، لكنّ العرب بدأوا يتدفّقون بعد التّحرير الكامل لريف «إدلب».

في آب سنة ٢٠١٢، عندما كنّا نتنقّل بين القرى، لم تكن محرّرةً بالكامل، لذلك كنّا نلتفّ حول الطّرقات والدّروب لتجنّب حواجز الجيش النّظاميّ. حتّى «سراقب» نفسها كانت غير محرّرة بالكامل. الآن نتحرّك بحرّيّة على الأرض، لكنّ السماء ما زالت معتقلة. الشّباب يقولون لو أنّهم كانوا يملكون مضادّات طائرات، لانتصروا. الشابّ

المشرف على جريدة «زيتون»، وهي من المطبوعات التي صدرت بعد التّحرير، يقول: «الثورة ليست قتالًا وحربًا، نحن نريد بناء الإنسان، ولكن لا أدوات لدينا، والقصفُ المستمرّ لا يسمح لنا بالتّحرّك. النّشاطات المدنيّة التّابعة للثورة بدأت لكنّ صعوبات كبيرة تواجهها، ليس أوّلها الدّعم الماليّ والقصف المتواصل، لكنّ أخطرها كان دخول الكتائب التكفيريّة وتحكّمها بحياة النّاس وتدخّلها بشؤونهم».

كان المشرف على الجريدة متعبًا، والشّباب حوله كذلك، وكلّ منهم يعمل بدأب. «ينزّلون» الصّور، يثبتون أعداد الشّهداء، يتّصلون بمنظّمات إنسانيّة لشرح أوضاع النّاس. يُحصون عدد القذائف وطبيعتها وأنواعها. لاحقًا، سيقوم بعضُهم بإعداد ملفّ عن القذائف الكيماويّة التي سقطتْ على «سراقب»، ويرسلونها إلى جهات حكوميّة عدّة في العالم، ولكنّهم سيتوقّفون عن الشّعور بالأمل، لأنّ كلّ ما فعلوه لم يأت بنتيجة، لقد تركهم العالم وحدهم.

جاء «أبو وحيد»، وعلينا الذّهاب إلى «معرّة النّعمان»، مع منهل ومحمّد. كانت أصوات القذائف بعيدة. يبدو أن حصّتنا اليوم من الموت بعيدة.

«أبو وحيد»، قائد كتيبة في «الجيش الحرّ» يقود السيّارة بنا. السّوق المزدحمة لم توحِ بما يحصل، لولا الأبنية المنهارة، والشّوارع التي حفرتها آثارُ القصف. تتساقط القذائف ويموت البعض. وبعد ساعة يعود النّاس إلى حياتهم الطّبيعيّة، وإلى الضّروريّات القليلة التي يحتاجونها من الطّعام والشّراب.

لا نساء في الشّوارع. لمحتُ امرأةً واحدة برفقة زوجها، وكانت تضع خمارًا. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها خمارًا في «سراقب»،

إذ في العادة تكتفي النّساء بغطاء الرّأس العاديّ. توقّفنا عند محلّ لبيع عبوات غاز، وسأل منهل ولدًا فيه عن سعر العبوة. فأجاب: «٢٥٥٠ ليرةً. منذ سنة كان سعرها ٢٧٠ ليرة سوريّة فقط».

«أبو وحيد» في منتصف الأربعينيّات، متزوّج، وهو متعهّد بناء سابق. يريد نقل المدفع الّذي صنعه، ويحتاج إلى سيّارة «بيك آب». الطّريق آمنة، سهول من أشجار السّرو الصّغيرة على الجانبين، والأطفال يتوزّعون على الطّرقات، يبيعون الخضار ويضعون براميل المازوت، و«بيدونات» فيها بنزين، وقد كُتب على البراميل عبارات: «مازوت أسود»، «مازوت أحمر». كلّ نوع له سعر، وهي رخيصة ورديئة، وتنفث سمومًا عند حرقها. نتوقّف في الطّريق عند مقرّ إحدى الكتائب، يتحدّث الشّباب مع أحد المقاتلين. يبدو أنّنا متّجهون لرؤية المدفع الّذي صنعوه. الشّمس حارقة، لكنّ هناك لسعة برودة. يقول أحدهم: «هذه شمس شباط... نحنا يا مدام بدنا عدالة انتقاليّة، ونحنا منقلّع شوكنا بإيدنا. ما بدنا حدا من الدول يتدخّل فينا. لو تركونا نواجه بشّار لوحدنا وما يتدخّلوا لكنّا بأحسن حال. تدخّلهم كان لمصلحته. ومتل ما شفتي الشّوك ما عم يخلص. أنا كنت مرتاح ومتعهد بناء ودرست حقوق. كنت بدي ادرس معهد مسرحي، بس ما مشي الحال، بس أنا بتابع المسرح والدراما التلفزيونيّة، يعني عاشق للفنّ». يضحك. ونصل إلى مجموعة من الأولاد. على «أوتوستراد» حلب ـ دمشق، عشرة صبيان يصطفّون مثل ثلّة من العسكر، يصفّون «بيدونات» المازوت والبنزين أمامهم. الأطفال بغالبيّتهم لا يذهبون إلى المدارس بسبب القصف المستمرّ. وصلنا إلى قرية «خان السّبل» التي حرّرها المقاتلون من حاجز كبير لنظام الأسد. كانت تحتوي على مقلع حجريّ كبير. أمامنا حاجز لـ «الجيش الحرّ»، لا يوجد سوى سيارة

«بيك آب»، وثلاثة مقاتلين يحملون رشّاشاتهم ويجلسون في الشّاحنة. كان أهالي «خان السّبل» قد عادوا إليها بعد خروج قوّات الأسد منها.

عندما وصلنا إلى قرية «جرادة» قلتُ للشّباب: «هذه قرية حجريّة!»، المدافن الرّومانيّة التي تعود إلى آلاف السّنين لا تزال شاخصة، مع الكثير من الآثار الرّومانيّة التي تتوزّع في جبل الزّاوية. تيجان رومانيّة وأعمدة ضخمة. غالبيّة الكتائب الجهاديّة لا تعترف بأهمّيّتها، وكان نهبُ الآثار جزءًا من عقيدتها. الحضارة بالنّسبة لها، تبدأ بعد الإسلام. قرية «جرادة» تابعة لريف «معرّة النّعمان». وسط الأحجار، تظهر شقائق النّعمان! كانت ممتدّة وراء الصّخور، ومن أمامنا لاحت قرية «رويحة». بيوتها حجريّة وتتوزّع فيها المدافن الرّومانيّة مثل قصور صغيرة، معظمها نُهب، كما يقول الشّباب.

بعد حاجز عسكريّ تظهر امرأةٌ وثلاثةُ أطفال، الأهالي هنا يعيشون على تربية الأغنام ومحصول الزّيتون. كانت التّربة حمراء وتتخلّلها صخور ضخمة، ثمّ بدا الوجه الآخر لـ «أريحا» حيث يقصف النّظام من معمل «القرميد».

في «سرجة» تختفي التّربةُ الحمراء ونصير أمام صحراء حجريّة. هناك تظهر الحواجز التّابعة لكتائب مختلفة، وتبرز فيها مظاهر القوّة والسّيطرة، كما في قرية «دير سنبل»، وهي لـ «جمال معروف»، قائد «جبهة ثوار سوريا»، حيث تظهر دبّابة وحواجز عسكريّة، وقبل ذلك حواجز المسلّحين الّذين مررنا بهم، وكانوا تابعين لـ «جبهة النّصرة» و«أحرار الشّام».

«أبو وحيد» من «الجيش الحرّ»، وهو لا يزال يؤمن بأنّ المجاهدين الغرباء سيعودون إلى أوطانهم، ما إن يسقط النّظام. لم

أوافقه الرّأي. قال: «سنرى!» قلت له: «وطنهم هو عقيدتهم الدّينيّة».

كان مرورنا سهلًا لأنّ «أبو وحيد» معروف منهم، ومن الصّعب التّحرّك بأمان دون رفقة أحد من الكتائب المعروفة. أمامنا بدت شاحنة كبيرة تحمل خيمًا للّاجئين، وعلى أطراف الطّريق بيوتٌ مهدّمةٌ بالكامل، بينها أشجار لوز وزيتون. وصلنا إلى «ربيعة»، حيث تتوزّع مدافنُ رومانيّةٌ تحت الأرض، تحوّلت كهوفًا يسكنها النّازحون. توقّفنا أمامها، وطلبتُ ممّن معي تسجيل أسماء النّساء، ومعرفة أحوال العائلات التي تعيش في الكهوف. بساتين الزّيتون تحيط بالمدافن الرّومانيّة، منها ما هو مقطوع، ومنها ما هو محروق. كثرٌ من النّازحين يلجأون إلى قطع الأشجار بغية تحويلها إلى وقود. هناك كروم زيتون أحرقتها القذائف، ولكنْ بقي بعض الأشجار حول الكهوف التي سكنتها ثلاثون عائلة. كان هناك حوالى ستّة أو سبعة كهوف، كلُّ كهف يبدأ بفتحة عميقة سوداء، ودرجات ترابيّة مكسّرة تنتهي بحفرة تحت الأرض. في الدّاخل، جلسنا في كهفِ عائلة مكوّنة من ثمانية أطفال وأمّهم، وهي الزّوجة الثّانية لرجل له خمسة أطفال من زوجة أخرى في الكهف المقابل. ومع المرأة تعيش عائلة ثانية. الأطفال حفاة وشبهُ عراة. ابنة المرأة التي تبلغ السّادسة عشرة، كانت تجلس أمام باب الكهف، وهي مقطوعة الرّجلين: الرّجل الأولى مقطوعة من الفخذ، والثّانية من الرّكبة. سقطتْ عليها قذيفة. تضع حجابًا، وعيناها صافيتان. قالت لي إنّها تعلّم الأطفال الرّسم ولكنّهم يحتاجون إلى الألوان. وهي ستحتاج إلى عمليات عدّة لأنّ جراحها تلتهب، ومن الممكن أن يتسمّم جسمها كلّه. هذه الفتاة بدت غير مبالية بردّ فعلنا، وهي تراقبنا نهبط من الكهف. مالت برأسها وعادت لترسم خطوطًا على وحل الأرض.

لا ضوءَ في الكهف. ليلًا نهارًا، يقومون بتعبئة زجاجة دواء فارغة، بالزّيت، ويضعون فيها خيطًا منَ الفتيل، ويشعلونها. كانت تُصدر رائحةً كريهةً منَ الاحتراق غيرَ الكامل. الأطفال يصطفّون حولي وينظرون بفضول. تحدّثتُ معهم عمّا يفعل كلّ واحد منهم في هذه العطلة المفتوحة. أعمارهم تتروّاح بين الثّالثة والخامسة عشرةَ. أخبرتني المرأة أنّ المساعدات التي تأتي لأطفالها يأخذها زوجُها لزوجته الثّانية. كان رضيعها في حضنها وبطنها منتفخًا. سيكون هذا مولودها التّاسع، وأطفالها الثّمانية يعيشون في كهف أرضُه من الطّين، وسقفُه يدلف ماءً في الشّتاء، وهي بصعوبة تأكل في اليوم وجبة واحدة مع أطفالها الّذين يتحلّقون حول الشّموع التي أضأناها. كانوا شقر البشرة، عيونهم زرقاء وشهلاء، لكنّ جلودهم كانت يابسة ومتشقّقة، وأصابع أقدامهم تنزف دمًا وقيحًا، والمخاط كالغِراء يلتصق بوجوههم، وبطونهم في البرد القارس تبدو مثل نتوءات حجريّة. العائلة كانت من قرية «كفروما»، والمرأة تُدعى أمّ مصطفى. ابنتُها الوسطى أضحت صمّاء من القذيفة التي سقطت قربها، وهي التي تعتني بأختها ذات الرّجلين المبتورتين. كانت تمسك بأصابع يد أختها خائفة. والغريب أنّ الفتاتين، رغم قتامة المشهد، كانتا فاتنتين ووجهاهما يضيئان حُسْنًا أخّاذًا! كلّ هذا الجمال في قبح الشّر! قلت لـ «أبو وحيد» إنّ أبا مصطفى يسرق مساعدات زوجته، فضحك، وأنا لم أستطع الضّحك.

في الكهوف الأخرى الوضع ليس مختلفًا. مجموعات بشريّة هائمة في ظلام الأرض، مثل حيوانات تحفر قبورها في اللّحظة الأخيرة. على سطح الأرض، يبدو الأمر طبيعيًا. أمام الكهوف شبّاك صغير صنعه الأطفال ليكون مرمًى لكرتهم الصّفراء التي تتحرّك بين أقدامهم في الوحل. هذا فقط ما يدلّ على وجود بشر يعيشون تحت

الأرض مع أسمالهم وجوعهم، والوحل الّذي يفترشونه أمست لهم رائحته. لم أقوَ على الوقوف. هذه طبقةُ جحيمٍ نادرة! ليست لأرواح هائمة. إنّها فنّ صناعة الشّياطين!

ركبنا السيّارة وبقينا صامتين. طالعتنا أيضًا مدافنُ تتوزّع بينها الثّغور السّود. هنا تعيش عشرات العائلات في الكهوف. أمامنا مباشرةً كانت البيوت تتساوى بالأرض. خراب كامل، كأنّ المكان يدخل آلة الزّمن، وينتقل بلمح البصر إلى العصر الحجريّ! كانت السماء زرقاء وازدادت توّهجًا، عندما دخلنا «حاس» أثناء قصفها. كتائب «جبهة النّصرة» كانت هنا، ثمّ انسحبت. وبعد قرية «حاس» بانت «الحامديّة» كأنّها مجموعة من أشجار السّرو الشّاهقة.

قال «أبو وحيد» إنّ «كثرًا من قوّاد الكتائب ونشطاء الحراك السّلميّ استُشهدوا واعتقلوا، راح خيرةَ الشّباب»، وعدّ خصال كلّ واحد منهم. كنت مأخوذة بالتّفاصيل الصّغيرة لأسماء الشّباب. ولأعمارهم وتجاربهم، بينما تبدو أشجار السّرو من بعيد تحبس غيومًا بيضًا، تتوالى قصص موتهم. أهزّ رأسي، وعيناي على الطّريق وأذني على صوت السماء التي تمطر قذائف.

في قرية «تقلا» اختلفت الطّبيعة. اسم القرية مأخوذ من أصل آراميّ منسوب إلى القدّيسة «تقلا». هضاب ووديان عامرة بشجر الزّيتون. إنّها قرى زراعيّة فقيرة. توقّفنا عند كتيبة شهداء الحرّيّة، وهي كتيبة «أبو وحيد». لم يكن في الإمكان الانتظار أكثر. فضولي يدفعني إلى رؤية المدفع الّذي قاموا بتصنيعه. يقول «أبو وحيد»: «هذه المدافع ماذا تساوي أمام ترسانة عسكريّة مدعومة من إيران. نحن سنقاتل، لا نملك خيارًا، نموت أو نقاتل. في كتيبة شهداء الحرّيّة الشّباب كلّهم من أبناء القرى الّذين تجمّعوا لحماية النّاس. هم بشر عاديّون. في

مجموعات أخرى، سترين الوضع مختلفًا؛ هذا تابع للتّمويل، وذاك تابعٌ للجهة التي تدعم بالسّلاح. نحن مشروعنا وطنيّ وصراعنا مع الأسد وطنيّ. المجموعات الأخرى لا نعرف مَنْ هي وكيف زُرعت في أرضنا!».

المدفع الّذي صنعه «أبو وحيد» هو من بقايا سبطانة دبّابة. فوّهة المدفع السّوداء مرفوعة إلى الأعلى وسط أشجار الزّيتون. وكنّا ندور حوله. بواسطة أدوات بدائيّة صنعوا مدفعًا صغيرًا. أدسّ يدي في فوّهته السّوداء. من هنا يخرج الموتُ، من هنا الموتُ يحارب الموت! في بداية الثورة كانت رؤية دبّابة تصيبني بالهلع، أمّا الآن أدسّ أصابعي في فوّهة مدفع. عجلات المدفع كبيرة، حصلوا عليها من بقايا المعارك. كان يجب أن يُطمر بالتّراب ليعمل، وهو لم يكلّفهم شيئًا، كلّ ما حصلوا عليه لصنعه تبرّعات وبقايا حرب. هم لا يملكون المال.

«هذا المدفع مدى قذيفته ١٤ كم، ونحن نستعين بـ «غوغل» لضبط المسافة. بعض الموادّ نقوم بتصنيعها هنا. صنعنا ورشات خاصّة للسّلاح، وهي بصعوبة تكفي أمورًا كهذه. وضعتُ كلّ ما أملك في الثورة. كانت لديّ مشاريع مع الدّولة بخمسين مليون ليرة، تخلّيتُ عنها كلّها. هم قصفونا، قتلونا وقتلوا أطفالنا وشرّدوا أهلنا وسنقتلهم. نحن ندافع عن أنفسنا فقط. لا نقوم بالهجوم عليهم. أسمع أحاديثهم في الطّيّارة. نحن نلتقط ما يتحدّثون به. هم يريدون قتلنا جميعًا!». يقول أبو وحيد.

«لا أريد لآلة الموت أن تتحوّل إلى أهمّ ما يعيشُ النّاسُ من أجله. هذا ليس عدلاً!». أجيبه. ويصمت «أبو وحيد» والشّباب. لكنّني أقول في نفسي: «العدالة قد لا تكون أخلاقيّة!».

أكملنا حديثنا في بيت «أبو وحيد». شاركتنا زوجته وأطفاله وأمّه الطّعام. لا ماء، والكهرباء مقطوعة، لكنّهم قدّموا لنا طعامًا وفيرًا. في أيّ مكان كنّا نحلّ ضيوفًا على أهله، يصبح الهاجس الأكبر لهم تقديم واجب الضّيافة كأحسن ما يكون. كنت واثقة بأنّهم قد لا يملكون غيره، لكنّهم لا يتوانون عن تقديمه. قال «أبو وحيد» ونحن نتربّع حول طبق الطّعام ونغمّس اللّقمات: «عندما يسقط النّظام سنرمي أسلحتنا. نريد أن نعيش بعد ذلك كبشر. لا أحد يحبّ الموت، ونريد أن نربّي أطفالنا ونعلّمهم. النّاس هنا تشتري ذخيرتها وسلاحها بمالها، وهناك تجّار سلاح ولصوص. أنا لا أنام في بيتي أبدًا. أنا مقاتل، وعلى الجبهة يجب أن أكون. القصف يطاول بيتي نفسه، يقصفوننا من كلّ الجهات. هل تصدّقين أنّ حكومة أو دولة يمكن أن تقصف شعبها؟ لن أستوعب هذا عمري كلّه!».

بدأ غضب «أبو وحيد» يزداد مع خروج الكلمات من فمه، وتوقّف عن الطّعام: «انظري إلى السّقف المشروخ. القذيفة سقطت قرب بيتي، لكنّها أخطأت قتل عائلتي بأمتار فقط. لا يوجد في بيتي ملجأ، ونحن سلّمنا أمرنا لله، أين سنذهب؟ الانفجارات تزلزل البيت. نحن نشتري ماء لنشرب! هل تصدّقين كلّ شهر أحتاج إلى أربعة آلاف ليرة لأشتري ماء لأطفالي؟ في مزرعتي تركتُ بئري مجّانًا للنّاس... سنتقاسم الحياة والموت معًا. استخدموا راجمات صواريخ وقصفونا بالطّائرات ليأخذوا خان شيخون، ولولا ذلك لما هُزمنا هناك. هم جبناء لا يقدرون على قتالنا على الأرض، فيقصفوننا ويدمّرون قرانا. هناك أمر مهمّ يجب أن تعرفيه، وهو أنّ لكلّ منطقة نظامها الخاصّ ولكلّ قرية وضعها. ما يحدث الآن هو أنّ كلّ قرية لا تشبه الأخرى، كأنّ كلّ شيء ينقلب، وكأنّ كلّ تجمّع بشري صار دولة بحدّ ذاته». قلت له:

«هذا هو خراب ما بعد الاستبداد». قال: «أشياء غريبة دخلتْ علينا، تخيّلي موضوع الغنيمة في الإسلام. أفْتوا فيه، ووجدوا مبرّرًا للسّرقة بين الكتائب. مثلًا أهالي كفروما صاروا يبتدعون معاركَ من أجل مبدأ الغنيمة وليس الثورة. المدفع يساوي ملايين والحصول عليه مكسب، لذلك قد تنشب معركة للحصول على غنيمة فقط! وقريتنا كان عدد سكّانها خمسة آلاف، وصار الآن خمسة وعشرين ألفًا من النّازحين. لا نستطيع الحديث عن سورية واحدة الآن بالمنطق نفسه، كلّ شيء تغيّر».

القصف هذا الصّباح بعيد، ولدينا من الوقت ما يكفي لأجلس مع العجوزين نتذكّر آلاء وإخوتها. الخالة العجوز تجلس بجانب أختها، أمّ العائلة الكبيرة، كأنّهما أبديّتان. تتفحّصانني وأتفحّصهما. بيننا نوع من التّواطؤ الضّمنيّ الّذي كان مضمرًا مع آلاء. يبدو أنّ هذه العائلة تحمل لوثة حبّ الحكايا. لم ترغبا في أن أتركهما، وأذهبَ إلى «معرّة النّعمان»، لكنّني وعدتُهما بسهرة سمر عندما أعود، شرطَ أن تحدّثني الخالة العجوز عن شبابها. كان يجب المرور على المكتب الإعلاميّ لنأخذ معنا بعض المنشورات التي يطبعها نشطاءُ المجتمع المدنيّ في المناطق المحرّرة. كان هناك مشروع دولة قد يتشكّل في المناطق المحرّرة، رغم القصف. كانت الثورة حتّى تلك اللّحظة تكمل طريقها بصعوبة. علينا توزيع الجرائد في القرى التي نجتازها، مع محمّد والشّباب. السّوق هدفٌ دائمٌ للقصف، والدّخول إليها مجازفة كبيرة، لكنّ النّاس يذهبون إليها يوميًا. مخيفة هي تلك العلاقةُ مع الموت، وكيف يتحوّل إلى جزء من طبيعة العيش. نراقبه بحياديّة. لا يشعر

الميتُ بما يحدث، تخطفه القذيفة. تفتّته أو تقطّعه. من الأفضل أن يكون الموت سريعًا ومباشرًا، حتى لا نرى الأعضاء مقّطعة. في كلّ مرّة أخترع ميتةً سعيدة: كأن تسقطَ قذيفة فوقي ولا تترك لي مجالًا للشّعور بعد ذلك بأيّ شيء، أو أن أتحوّلَ إلى نتف صغيرة وأصيرَ جزءًا من العدم.

الشّباب أتوا بالمطبوعات، ومنها جريدة للأطفال، سنأخذها معنا في الرّحلة القادمة، جريدة «الشّام» وأعداد من جريدة «زيتون»، سنوزّعها على بعض القرى.

قبل الدّخول إلى «المعرّة» وهي جبهةُ قتال، علينا أن نجتاز عشرة كيلومترات مقابلة لخط الجبهة. إنّها مكان لتبادل إطلاق النّار بين النّظام والكتائب، وطائراتُ الأسد تقصفها باستمرار، ويتوزّع فيها القنّاصة على بعد ألف متر. السماء صافية ومشمسة، وهذا يعني خروجَ الطّائرة لقصف القرى. حَفِظَ أهالي القرى المواعيدَ المفضّلَة للقصف. حفظ الأطفال أنواعَ الصّواريخ والدّبّابات والقذائف، وتعلّموا كيف يتمّ القنص. قال محمّد: «قنّاصة عدّة يصوّبون الآن على الطّريق، ونحن سنمرّ بينهم». من يومين مات رجل قنصًا، ولكنْ لا مفرّ لنا من التّقدّم. الأشجار مزهرة، والأرض تتلوّن بورود حمرٍ وصفرٍ. أمامنا حاجزُ لواء «بيارق الشّمال»، سأل الشّبابُ حرّاسَه إنْ كنّا نستطيع المتابعة، فقال أحدهم: «إذا إلكم عمر بتعيشوا»، وجلس على حجر. وضع رشّاشه في حضنه، وحدّق بنا بيأس!

خفضنا رؤوسنا، وقاد منهل السيّارة بسرعة مذهلة. سمعتُ إطلاق رصاص، فلم أتحرّك من مكاني، إلى أن ضحكوا وقالوا: «عشنا!». رفعتُ رأسي، ولوهلةٍ خلْتُ أنّني غفوتُ داخل كابوس. ربّما تتشابه صور الدّمار وأحبّذ تكرارها في وصفي، لكنّ ما رأيته في «المعرّة» كان

مرعبًا! كانت أمامنا شاحنة صغيرة بيضاء، في صندوقها تجلس أمّ وبناتها الأربع، أكبرُهنّ في العاشرة. الأربع محجّبات. الأمّ متّشحة بالسّواد، والشّاحنة تعرّضتْ لقذيفة. كانت الأبنية تنحني نحو الأرض. لم تدمَّر بالطّريقة المعتادة. الحديد والإسمنت يتحوّلان إلى مادّة سائلة. بناء من أربع طبقات، سطحُه ينحني بخفّة على الرّصيف، مثل ستارة مسرح! وتحته تختفي الكتلةُ البشريّة. يصير اللّحم هو الأصمّ، والإسمنت والحديد يتحرّكان بحيويّة. الأبنية يقابل بعضُها بعضًا، تنام برفق، وتحاذي أكوام الزبالة الهائلة التي تتوزّع في المدينة. «معرّة النّعمان» مخرّبة بالكامل، يقول الشّباب، لأنّها خطُّ جبهة، والقصف عليها لا يتوقّف.

في اللّحظة نفسها دوّى صوتُ قذيفة. القصف أمامنا، فانعطفنا إلى أحد الأزقّة. الطّرق محفّرة أيضًا ومفجّرة. واجهاتُ المحالّ المعدنيّة تطير في الهواء ومع القصف ترتجّ، فتصدر صوتًا مرعبًا وضجيجًا لا يتوقّف لبعض الوقت. أمامنا امرأة وابنتها، وهذا بدا لي غريبًا، لأنّني لا أرى نساء خارج بيوتهنّ إلّا في ما ندر. كان «الجامع الكبير» أمامنا، وهو من المعالم الأثريّة العريقة. كان مهدّمًا. السّوق مدمّرة أيضًا. أولاد يتحرّكون، وامرأة تدخل في زقاق. مئذنة الجامع تعرّضت للقصف، وتراكمتْ أسفلَها الحجارةُ وقطعُ الزّجاج، لكنّ المئذنة قُصفتْ مرّةً ثانية. يركّزون على قصف المآذن. مبنى الجامع الكبير يعود إلى عهد ما قبل المسيحيّة. كان معبدًا وثنيًّا ثمّ تحوّل كنيسةً وكاتدرائيّة. لا تزال زخارفه وتيجان أعمدته تحمل سمات المسيحيّة والدّيانات ما قبل التّوحيديّة. غرفة الكتب الدّينيّة مدمّرة أيضًا، وقد تطايرتْ نسخٌ من القرآن والكتب.

في صحن الجامع، ونحن نتّجه إلى المصلّى الّذي دمّرتْه قذيفة،

سمعنا صوتَ الطّائرة، وركضنا. يقول أحد شباب «المعرّة» إنّ «قذيفة سقطت هنا. اكتشفنا سوقًا قديمة. نزلنا الحفرة ورأينا الفتحة. يقولون إنّها تعود إلى ما قبل المسيحيّة. كانت هناك أبواب وآثار لمخازن».

في رؤية الخراب تتشابك أسلاك كهربائيّة بقضبان معدنيّة وخشبيّة. جدران من الأسمنت تتكوّم بعضها فوق بعض، فتؤلّف كتلةً متجانسةً كأنّها من عجينة واحدة. كنت ألتقط الصّور، وأضع عنوانًا لكلّ صورة. مبالغتي في تحديد إطار مرمى كلّ قذيفة جعلت الشّبابَ يطلبون إليّ التريّث، لأنّ هناك لوحات تشكيليّة للدّمار عند خطّ الجبهة. قبل ذلك، كان علينا رؤية متحف «المعرّة» الّذي كان يُعدّ من أهمّ متاحف الفسيفساء في الشّرق الأوسط.

أمام الجامع، قبل الدّخول إلى السّوق، وقف رجل عجوز. توجّه إليّ وقال: «شفتي... شفتي...» وأشار إلى المئذنة: «هي إصلاحات بشّار... ما عملنا شي... طالبنا بشويّة حقوق... شويّ بس الله وكيلك... شفتي...» وبكى. أمسكه أحد الشّباب ومشى معه. كان أبًا فقد ثلاثة من أولاده في قصف السّوق. وهو يبقى هنا، واقفًا يبكي!

على جدار في السّوق جملةٌ كُتبتْ بالخطّ العريض «صامدون هنا رغم هذا الحصار».

قبل الدّخول إلى المتحف، رأيت رأس تمثال الشّاعر «أبو العلاء المعرّي» مقطوعًا. كانت كتائب عسكريّة تكفيريّة هي التي دمّرته. طلبت إلى الشّباب الوقوف لتصويره، اختفى الرّأس، وبقي نصف التّمثال السّفليّ. لاحقًا سيقولون إنّ قذيفة سقطت على التّمثال، لكنّ الثّقوب لا تدلّ على ذلك. أحد الشّباب يقول: «سرقوا رأسه وباعوه»، وآخرون سيقولون إنّ إحدى الشّظايا قطعت الرّأس. شابٌ يخبرنا بأنّ

أحد رجال «جبهة النّصرة» قام بقطع رأس التّمثال لأنّه كافر، فيردّ شابّ آخر بانزعاج: «على الأقلّ هؤلاء يقطعون رؤوس التّماثيل وليس رؤوس البشر كما يفعل بشّار!». الصّحافيّ فداء عيتاني الّذي كان يرافقنا يقول: «إنّ المرحلة القادمة ستكون عنيفة جدًّا. المجموعات الجهاديّة ستلجأ إلى ترهيب النّاس بقطع الرّؤوس، والتّمثيل بالجثث لأنّ هذا جزء من البروباغندا الخاصّة بها».

خلال تجوالي في ريف «إدلب»، رأيتُ أنّ هناك لَبسًا عميقًا في ما يصل إلى العالم الخارجيّ. في الواقع هناك مجموعات عسكريّة جهاديّة بدأت تسيطر على بعض المناطق، وكان أداؤها مختلفًا عن أداء النّاس العاديّين، لكنّ المشكلة تكمن في الكتائب التّكفيريّة القادمة من الخارج! في كلّ تحرّكاتي، وعلى رغم تحذير الجميع والخطر المحدق، كان النّاس يتدافعون لحمايتي من أيّ أذى، ولإبعادي عن الكتائب التّكفيريّة؛ لكنّ هناك شكلًا من أشكال احتلال المناطق المحرّرة ـ وهو أمر لا يتمّ بشكل عشوائيّ أو فوضويّ، بل بشكل منظّم ومدروس، إذ تمّ تحويلُ الشّمال المحرّر إلى قطاعات عسكريّة تتقاسم غنائمَها الكتائبُ الجهاديّة. ولكنّ هذا لا يعني أنّ كتائب «الجيش الحرّ» وقفتْ تتفرّج عليهم؛ فكثيرون من هؤلاء بقوا متمسّكين بخطّ الثورة، لكنّهم بدأوا يضعفون.

متحف «معرّة النّعمان»، خان مراد باشا سابقًا، هو من عمارة المرحلة العثمانيّة، وكان استراحة لقوافل الحجّ القادمة من إسطنبول إلى دمشق. سنة ١٩٧٨ تحوّل متحفًا. فيه أربعة أجنحة، لكلّ جناحٍ قسمٌ خاصّ بالآثار، وفيه تكيّة للقراءة، ومجموعةُ كتب نادرة، و٢٤٠٠ متر مربّع من جداريّات الفسيفساء كانت مخبّأة في المستودعات، ولا يُعرف عنها شيء الآن، و١٦٠٠ متر مربّع من الموزاييك المعروض الّذي يُعتبر

فنًّا سوريًّا خالصًا بدأ منذ العصر الآكادي - بقي بعضُه على الجدران.

باب المتحف تسدّه براميلُ مازوت، وإلى جانبها كُتب بخطّ عريض وواضح: «لواء شهداء المعرّة». كان اللّواء قد جعل المتحفَ مقرّه. في الدّاخل تتوزّع براميلُ المازوت والسّوائل السّوداء المنتشرة تحت «بيدونات» الزّيت إلى جانب لوحات الفسيفساء. تحت القناطر أرنبٌ هادئ، لا ينقصه سوى أمعاء الشّابّ الّذي سقط تحت المئذنة ليكتمل مشهدُ الجنون. الأرنب لا يتحرّك. جلس بهدوء. يُطعمُ ولا أحد يقترب منه. قائد مجموعة صلاح الدّين، وهو مقاتل رافقنا في جولتنا، كان لطيفًا، لكنّ وجهه كان خشنًا وملامحه قاسية وفيها ذهول. في إحدى الغرف الجانبيّة، قال إنّهم جمعوا ما تبقّى من صحون فخّار وزجاج مكسور وأوانٍ، وهم يقومون بحمايتها الآن.

يبدو أنّ الكلام لم يعجب ناشطيْن من شباب المعرّة فصمتا. الأعمدة والتّيجان مكسورة ومهدّمة وملقاة على الأرض بعشوائيّة، والأحجار الكلسيّة تعود إلى القرن الثّاني الميلاديّ. حتّى اللّوحات التي بقيتْ معلّقةً على الجدران تخترقها الطّلقاتُ وبقايا الشّظايا. الكتب أحرقها جيشُ الأسد عندما دخل «المعرّة» وخرّب المتحف، والمقابر الرّومانيّة ذات النّحت الأخّاذ باقية على حالها، وليس بالإمكان سرقتُها لضخامة حجمها. التكية مدمّرة، وإحراق الكتب تمّ قبل القصف، وما تبقّى من الكتب يعشّش فيه الغبار. من عناوينها الكثيرة: «الكشّاف عن حقائق غوامض» للزمخشري، و«الكوكب الدّريّ في سيرة الحصريّ» لعبد الرحمٰن الأحمد، و«الحوليّات الأثريّة العربيّة» بأجزاء عدّة، و«القاموس المحيط»، و«تفسير الفخر» للرّازي - الطّبعة ١٣٨، المطبعة العامرة الشّرقيّة.

كتب كثيرة بقيت على حالها نصفَ ممزّقة. يقول القائد: «نحن

مشغولون بالحرب ولا نستطيع الحفاظ عليها». دوّت قذيفة. كانت قريبة جدًا.

في باحة المتحف اختفت التّماثيل، سُرقتْ. غرفة الأواني الزّجاجيّة سُرقت بالكامل. أما أبواب المدافن البازلتيّة فما زالت في مكانها. وفي صدر الغرفة، لوحةُ فسيفساء كاملة تعود إلى سنة ألفين قبل الميلاد، اكتُشفتْ في قرية «مزكيا»، وتمثّل شجرةَ العنب المباركة.

تحت شجرة ليمون في باحة المتحف جلستُ. كان رأسي بحاجة إلى استيعاب دمار التاريخِ هذا. برزت أمامي عبارة: «لا إله إلّا الله. لواء شهداء المعرّة».

قذيفة أخرى تسقط. يقول القائد: «يضربون بشكل عشوائيّ».

يأخذنا إلى «القشْة»، التي كانت مربطَ خيل في الخان سابقًا. سُرقتْ كلّ الآثار فيها. وهي مهدّمة، والتّيجان الرّومانيّة تناثرت في باحتها. وهناك شظيّة ما زالت في الحائط. يسير القائد إلى سيّارة مصفّحة في قلب المتحف، حيث تفوح روائح احتراق وبنزين وزيت نفط، ويقول: «حصلنا عليها غنيمةً من رتل عسكريّ بعد أن ضربنا وادي الضّيف». القائد العسكريّ يوجّه خطابه بكلّ جديّة: «اسمعي يا أختي، كنّا على الجبهة، نحن جيش حرّ، ولمّا رجعنا قالوا لنا إنّ جبهة النّصرة قصّت رأسَ تمثال أبو العلاء المعرّي، لأنّ وجود التّماثيل حرام. أعرف أنّك ستسألين عن القصّة». بقيتُ صامتة.

خارج المتحف، كنّا نتّجه إلى سجن «المعرّة». سمعنا من تحت الكتل الإسمنتيّة، المعجونة بالرّصاص والحديد وبقايا الآثار والأشلاء، أصوات نساء وأطفال. ما زالت بعض الغرف آمنةً، ويعيشون فيها

تحت الخراب. لو أنّني قرأت هذا المشهد في كتابٍ لما صدّقتُه.
رجال يقومون بلمّ الزّجاج المتناثر من النّوافذ. القذيفة سقطت البارحة،
وقذائفُ اليوم تسقط على الجبهة المقابلة. يقول القائد: «ستتوجّه إليها
الآن».

طفل يقوم بجمع ثياب عالقة ومتدلّية من خزانة نصف معلّقة بين
جدران الطّبقة الثّانية. كانت الملابس ملوّنة، ولمعجزةٍ ما تبدو نظيفةً لا
غبار عليها، تتدلّى من الخزانة كحبل غسيل طويل. كان الطّفل يحاول
الوصول إلى كمّ أحد القمصان عندما صرختْ أمّه من الدّاخل،
وهبطت الخزانة، وانهار معها الجدار! ركض الطّفل. صرختُ
وأغمضتُ عينيّ. الصّراخ، الّذي يشبه العواء، هو طريقتي لضمان عدم
انفجار دماغي. عندما فتحتُ عينيّ، توقّعتُ رؤية جسد الطّفل مهروسًا
تحت الجدار. لكنّ الطّفل كان ينظر إليّ بذهول وسخرية! لولا صوت
القذيفة لرأيته يطير بجناحين فوق الدّمار؛ كان هذا هو التّفسير المنطقيّ
الوحيد لنجاته، لكنّ صوت القذيفة منع تلك الرّؤية.

قائد مجموعة صلاح الدّين حوّل طريقنا إلى السّجن ومقرّ البلديّة.
رأيتُ الأرقام الخاصّة بالنّفوس وقيود السّجل المدنيّ محترقة. المكاتب
مهملة، السّقوف سقطتْ بفعل القصف، والقائد يحاول شرح ما
حدث: كيف حرّروا البلديّةَ من قوّات النّظام وموظّفيه الّذين هربوا،
ومن ثمّ اقتحموا السّجن، وأسروا تسعة عشر جنديًّا، اثنان منهم انضمّا
إلى الكتيبة، وأحد عشر أسيرًا أصدرت المحكمةُ الشّرعيّةُ بحقّهم حكمًا
بالإعدام، واثنان برّأتهما، عادا إلى أهلهما، وأربعة ظلّ مصيرُهم
مجهولًا: «كان هناك اثنان من الرّقة وشاب من السّاحل وواحد من
مدينة الباب وآخر من دير الزّور... لكنّنا قتلنا ١٢ عسكريًّا»، يقول
قائد مجموعة صلاح الدّين، وهو يحاول أن يفسّر لي أنّهم التزموا

القانون. أجبته: «يحدث هذا عادةً في الحروب». قال: «هذه ليست حربًا»، أضفت فورًا: «بل حرب بينكم وبين بشّار الأسد». فسألني: «أليست حربك؟». قلت: «بلى حربي، ولكنْ بطريقتي. لديّ قلمي. أنا كاتبة وصحافيّة». قال مبتسمًا: «هل تريدين إمساك السّلاح؟». قلت: «لا، لقد حاول الشّباب تعليمي ذلك. كنت قد قرّرتُ أن أحمل مسدّسًا لحماية نفسي، لكنّني عدلتُ عن الفكرة لاحقًا، لن أفعل ذلك أبدًا. لقد أخذ منّي التّفكير في الأمر وقتًا طويلًا لأتّخذ هذا القرار. البقاء في هذه الأمكنة مجازفة كبيرة من دون سلاح. الشّباب لا يتركون لي مجالًا للخوف، وهم يرافقونني ويقومون بحمايتي بشكلٍ مُبالغٍ فيه».

دخلنا سردابًا طويلًا، مظلمًا وقذرًا. كان قائد المجموعة رجلًا بسيطًا، يعمل في البناء قبل الثورة، ولم يفكّر يومًا في حمل السّلاح، يقول إنّه اضطرّ للأمر. الكلّ يقولون ذلك، لكنّهم يحملون السّلاح! وهو، رغم الفوضى الحاصلة، يحاول تطبيق القانون. كان يراقبني بحياديّة. بدا مشغولًا ومهمومًا. هذا رجل أستطيع القول عنه إنّه شجاع. يتابع وهو يقودنا إلى الزّقاق الأسود الّذي تصطفّ الزّنزانات على جانبيه: «كان السّجن فارغًا عندما حرّرناه، لقد أخذوا السّجناء معهم!».

الزّنزانات الصّغيرة على الجانبين تعلوها كتابات من مثل: «غدّار يا زمن»، «أبو رودي الوردي. أنت يا عمري قدري واختياري»...

في زنزانة قذرة جدًّا كُتب بيتُ شعر على أحد جدرانها: «أيظلمني الزّمانُ وأنت فيه/ وتأكلني الذّئاب وأنت ليث». على الأرض، تتوزّع حاجيّاتُ السّجناء: سراويل، قمصان، سراويل داخليّة... وكانت رائحة حريق تعبق في داخلها. السّخام يغطّي السّقف. يبدو أنّ حريقًا كبيرًا اندلع في السّجن. يقول قائد المجموعة: «قصفوا المكان بعد أن

حرّرناه فاحترق السّجن ومبنى البلديّة». توقّفتُ عند زنزانة تبدو أقلّ اتّساخًا. الملابس ممزّقة، إلّا أنّني لوهلة خِلْتُ أنّها كانت نظيفة. والأشياء التي كانت تخصّ من كان في الزّنزانة، بدت إلى حدّ ما مرتّبة، رغم العبث بها: حذاء، حصير ممزّق وبضع ملاعق، وإلى جانب بنطال أسود، بضعُ أوراق، نصفُها محترق، والنّصفُ الآخر متّسخ بالسّخام. حملتُها وحاولتُ مسحها، لكنّها تناثرتْ وتحوّلتْ بين يديّ رمادًا. اسم الجلالة «الله» محفور على كلّ الجدران. وعلى كلّ الزّوايا، كانت بقع الدّم اليابس قد تحوّلت إلى ما يشبه غطاءً من شمع، داستها أقدام كثيرة ومنها ما كان قد امّحى. تجنّبتُ العبور فوقها، لأنّني اعتبرت أنّني أسير فوق جثّة إنسان كانت منه. الرّائحة خانقة مثل رائحة تحلّل عشرات الجثث، ولم نستطع تجنّب السّير على الزّجاج المكسور. بصعوبةٍ نرى، وذلك بفضل خيوط نور واهية في نهاية سرداب السّجن. نخرج إلى بقعة نور. الشّمس حادّة. أصبت بالعمى لمدّة دقائق. تعثّرتُ ووقعتُ على الأرض. وارتطم أنفي ببقعة دم يابس. شعرت بأنّني ابتلعتُ جثّة! نهضتُ فورًا، ولم أدع فرصة لأحد ليراني على هذه الحال. كنت وراء الجميع، ولحقت بالشّمس. قال قائد المجموعة: «سيذهب الشّباب معكم إلى خطّ الجبهة، بالحارة الأخرى. كونوا حريصين».

علاء وشابٌ آخر ممّن رافقونا كانا من جمعيّة «بسمة أمل»، أنشآ جمعيّةً تعاونيّةً لمساعدة النّاس، ومركزًا إغاثيًا وطبيًا. هما من شباب الثّورة الّذين انتقلوا إلى العمل المدنيّ. عندما بدأت المقاومة المسلّحة، كان بعضهم ميّالًا في آرائه إلى «جبهة النّصرة». لم أجادلهم، ولم أخفِ عدائي الصّريح لتلك «الجبهة».

نتقدّم في أنحاء خطّ الجبهة. هناك «درابزون» كبير يتأرجح في

الهواء، عندما شاهدتُه ظننتُ أنّني أرى مشهدًا في فيلم خيال علميّ. يكمل دورة كاملة في الهواء من الطّبقة الرّابعة التي تتبعثر أحشاء غرفها في الفضاء، ثمّ يخبط بما تبقّى من دمار البناء، فيُحدث ضجيجًا مرعبًا، يصيب بالصّمم. بناء إسمنتي مفتوح من المنتصف ومقسوم مثل ثمرة ناضجة. تظهر غرفة النّوم في الطّبقة الثّانية، وفي الثّالثة الطّناجر والصّحون مصفوفة على الرّفوف، وإلى جانبها حمّام، ولا يزال هناك لباس نسائيّ داخليّ معلّق، لونه أحمر، كأنّه لعروس صغيرة، الغبارُ أفقده لونَه. وفي الطّبقة الأولى سريرٌ كبير في غرفة نوم، وإلى جانبه سرير خشبيّ صغير، وألعابُ أطفال. منامة معلّقة، ولونُ الغطاء المذهّب المطرّز صار أسود. حياة البشر وخصوصيّاتهم الدّقيقة مفتوحة على الفراغ. قسمتْ قذيفةٌ البناءَ نصفين! القسم الثاني من البناء كان مختفيًا. قال علاء: «قذائف عدّة طاولته. الحارة الشّرقيّة بالمعرّة مهجورة بالكامل، ولا أثر لكائن حيّ فيها. بعد معركة المعرّة الشّهيرة، لم يتوقّف القصف. بعد أن حرّرناها، أخرجناهم من الأرض، وقصفونا من السماء».

عدد سكّان «معرّة النّعمان» مئة وعشرون ألف نسمة. لفترة، لم يبقَ فيها كائن حيّ. نزح أهلها منها وتشرّدوا. بعد فترة عادوا إليها. فضّلوا الموت في بيوتهم على الجوع والتّشرّد.

بدأ القصف، وكان لا بدّ لنا من الاختفاء في زقاق جانبيّ. ابتعدنا من مكان القصف، ومرّت أمامنا امرأة تجرّ كيسًا من الحطب ووراءها ثلاثةُ أطفال يفعلون مثلها، وثلاثُ نساء متّشحات بالسّواد. الكهرباء مقطوعة، والماء أيضًا، أصبح النّاس يعتمدون على الآبار. وصلنا إلى جامع «حمزة بن عبد المطلب» المدمّر بالكامل. قبّته سقطتْ وتساوت بالأرض. كلّ شيء يبدو سورياليًّا وغريبًا على هذه الهضبة

التي يمتدّ من ورائها سهل. «هنا خطّ جبهة ويجب أن نكون حذرين»، يقول علاء، ونحن نتقدّم بين الكتل الإسمنتيّة المدمّرة، كأنّ أمامنا جبلًا من الحجر للصّعود إلى قبّة الجامع الكبير. بقيت القبّة بنقوشها وزخارفها كما هي مثل صحن موضوع بأناقة. ورفض الشّباب السّماح لنا بمتابعة الصّعود للوصول إلى القبّة، لأنّ القصف بدأ. صاروخ سقط هنا ولم ينفجر فاستخدموه في الكتيبة. «يحدث هذا في بعض الأحيان. يرمون بالصّواريخ التي لا تنفجر، فنعاود رميَهم بها. نحن على بعد سبعمئة متر من خط الجبهة»، يتابع علاء.

خطّ الجبهة عبارة عن مجموعة أشجار من السّرو، ونحن نختبئ في ركام المسجد وقبّته. لن نتقدّم أكثر، يقرّر الشّباب، فننزل بسرعة. فجأةً يمرّ طفل! ماذا يفعل هنا؟ أصرخ. كان في حوالى السّادسة ويضع ثلاثة إطارات لسيّارة في عربة. الإطارات مهترئة وتسند برميلًا صغيرًا. يبيع المازوت. نتجاوزه. لا أحد يعلّق. ونصل إلى ساحة «المعرّة». إلى اليمين مقرّ كتيبة «شهداء المعرّة».

صوت القذائف لا يزال مسموعًا، وصرنا بعيدين من سقوطها. أتحرّك مذهولةً وسط كتل الدّمار الهائل، وعندما وصلتْ سيّارتنا إلى مبنى الجمعيّة صرخ محمّد غاضبًا: «ضربوا سراقب، بسرعة إلى البيت... أو لازم نرجع». لم يكن أحد يماثل محمّدًا بعلاقته بـ «سراقب» وبما يحدث فيها. بقي من أكثر الشّباب الّذين عرفتهم إخلاصًا للمكان الّذي وُلد فيه. التّفكير بالابتعاد عن «سراقب» كان مستحيلًا. في إحدى المرّات، عندما ألححتُ عليه بضرورة الخروج لإجراء عمليّة لعينه التي فقد الرّؤية بها نتيجة لضربةٍ على الرّأس، رفض بشدّة، وقال إنّه يعرف أنّ الأمور لم تعد كما كانت، والثورة انحرفت، ولكنّه لن يترك النّاس يواجهون مصيرهم وحدهم. وهو لا يستطيع،

ويتمنّى لو أنّه يستطيع البقاء للعلاج خارجًا. وهكذا بقي محمّد يرى بعين واحدة. لم تكد تتوقّف السيّارة حتى ركض إلى داخل بناء جمعيّة «بسمة أمل»، حيث مجموعة بشريّة كبيرة تهتمّ بتنظيم الأمور. كان الجميع من أهل المدينة شبابًا ونساءً ورجالًا وأطفالًا. هناك طبيب يوزّع الأدوية، وامرأة تساعده، وحوله يجتمع الشّباب، ثمّ يهرعون لملاقاتنا. كرماء جدًّا، أرادوا تقديم الطّعام والشّراب إلينا. المكان عبارة عن غرفة كبيرة مقبّبة. دخل شاب يحمل مجموعة من أكياس الخبز. يقول الطّبيب المشرف: «نعاني أزمة خبز، يريد النّاس أن يأكلوا، لا يوجد خبز، ولا يوجد مازوت، والكهرباء غالبًا مقطوعة، وكذلك الماء. تخيّلي كيف يتدبّر أمره مَنْ بقي حيًّا منّا! منذ خمسة عشر يومًا حين عاد النّازحون الّذين تركوا المعرّة. لدينا الآن ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نازح، من أصل مئة وعشرين ألفًا نزحوا، وعدد كبير من الجرحى، ومنهم أطفال. نحن نقوم بالتّخدير، ولدينا مشفى ميدانيّ فيه ثلاث غرف للعمليّات». غرف العمليّات هذه عبارة عن مكان فقير فيه ما يكفي لإتمام عمليّات انتزاع الطّلقات وخياطة الجروح.

شباب «معرّة النّعمان» ينامون هنا. يشكّلون مجموعات لإنقاذ الجرحى ولتوثيق عدد القتلى وما يحصل من قصف. كثيرة هي البيوت شبهُ المدمّرة، وتكاد تكون غالبيّةَ البيوت. أمّا المدمّرة بالكامل فيقولون إنّ عددها تجاوز الألف.

بعض الشّباب عادوا من النّقطة الإسعافيّة التي أقاموها في جبهة «الحامديّة» لإسعاف الجرحى على خطّ الجبهة. أبو الرّوض، وهو صديقهم الّذي سقطتْ فوقه قذيفة، كان منشدًا ومسعفًا ويعمل في «جمعيّة بسمة»، وعمره اثنان وعشرون، وهو وحيد أبويْه. يقول أحد

الشّباب، وهو يصبّ لي كأس الشّاي الثّانية: «طيران الأسد قصفنا في اليوم الواحد بثمانٍ وعشرين قذيفة. ظلّوا هكذا لفترة، ولكنْ خفّ القصف بعد أن تمّ إسقاط طائرتين».

يضحكون، ويتجمّعون حولنا. كانوا يتهامسون ويراقبونني بدقّة. لكنّهم بدوا مطمئنّين ومرتاحين، و«يترغلون» بالكلام. أسأل الشّباب عن وضع النّساء وأطلب رؤيتهنّ. حدّثتهم عن مشروع مراكز للنّساء. كانوا متحمّسين لمساعدة زوجات الشّهداء. بقينا أكثر من ساعة، ونفدَ صبرُ محمّد الّذي يتحرّك جيئة وذهابًا. قال أحد الشّباب وكان قد دخل مؤخّرًا: «قصفونا بالسّكود... لا أستغرب هذا. نحن حقّقنا انتصارًا على الأرض، وهم الجبناء يضربوننا بالطّيران». شابّ آخر في العشرين يقول: «المعرّة خطّ تماس مع جبهة النّظام، ونحن هنا لن نترك أرضنا حتّى لو متنا. لو كان معنا مضادّات طائرات لسقط الأسد منذ زمن».

كانت هذه الجملة التي يكرّرها مقاتلون ونشطاء وأهالٍ ونساء وأطفال. هكذا قالوا جميعهم بلا استثناء. كانوا يعرفون أنّهم يقدرون على تحرير الأرض، لكنّ الطّائرات تحوّل المناطقَ المحرّرةَ إلى خراب.

أزيز رصاص، قذائف، ونحن نتابع الحديث، وبضعة أطفال يرافقوننا إلى غرفة داخليّة. في الغرفة، قسم لأجهزة كمبيوتر، وفي الجهة المقابلة طاولة تتكدّس فوقها أكياسُ الخبز. الحركة مستمرّة، ونحن نتحلّق بالعشرات في مجلسٍ دائريّ. جاء شابّ من الخارج، وقف، ووجّه خطابه إليّ: «جبهة النّصرة أفضل مَن يقاتل». بعض الشّباب لا يوافقونه، لكنّهم يدَعونه يكمل الحديث: «كانوا بداية غرباء، لكن انضمّ كثُرٌ من السّوريّين إليهم، ومعهم سلاح». يقول شابّ آخر: «وماذا عن الشّبشانيين الّذين انضمّوا إليهم مؤخّرًا؟ ما الّذي أتى

بهم؟». يقول آخر: «هؤلاء إخوتنا في الإسلام يقاتلون ضدّ الكفرة».
أسمعهم وأعود إلى الحديث عن أوضاع النّساء والأطفال والتّعليم، وما الّذي سنفعله، إذا استمرّ الوضع سنواتٍ على هذه الحال؟ يعود الشّاب ويقاطعنا: «أنا مع أحرار الشّام، لأنّهم لا يسرقون مثل الكتائب الأخرى». يقاطعه الشّاب الآخر: «طبعًا، لأنّهم سرقوا ما يكفي... والله أعلم!». محمّد وقف على الباب وعلا صوته: «لازم نروح لسراقب». ونظر إليّ برجاء. فغادرنا فورًا.

أثناء مغادرتنا «معرّة النّعمان»، كانت أصوات القصف تزداد.

«السماء، السماء... أيّتهاالخائنة، أيّتها السماء!» صرختُ بصوتٍ عالٍ.

سنتجاوز الكيلومترات الخطرة وأضواءُ السيّارة مطفأة. هذا خطر، ولكنّه أحسنُ من الموت قنصًا في اللّيل، أو أن تأكلنا الضّباع. كنت أفكر في بيت العائلة ونورا وعيّوش والعجوزيْن، والدّفء الّذي ينتظرني بينهن. لا بدّ من أنهنّ قلقات عليّ. يقول محمّد: «حسب القابض، الأخبار ليست مطمئنة، ويجب أن نتّجه إلى مكان القصف مباشرةً لأنّ هناك أشخاصًا تحت الأنقاض».

قاد محمّد السيّارة بسرعة جنونيّة. كنّا صامتين؛ فنحن نعرف قلقه. كان يتحدث مع نفسه طوال الوقت، ونحن تواطأنا على الصّمت. صادفنا عند وصولنا إلى «سراقب» أشجارَ الزّيتون التي ارتمت بفعل القذائف؛ اقتلعتْ من تربتها واستقرّت قرب سور أحد البيوت. إلى جانبها جزءٌ من جرّار زراعيّ قصمته القذيفةُ نصفين، يسدّ الشارع. انطلقنا إلى شارع آخر. المشهد مهول. ترجّلنا من السيّارة، وركضنا بسرعة إلى مكان القذيفة التّالية. صرخ أحد الشباب: «إنّهم يفتحون

القبور... سندفنهم قبل مغيب الشّمس».

البناء الّذي سقط كان مؤلّفًا من ثلاث طبقات. قذائف عدّة سقطتْ عليه. نجت طفلة، وماتت أمُّها وأخوها، وكان البحث جاريًا عن الابنة الرابعة. عشرات الشّباب يدخلون البناء المهدّم الّذي استحال جبلًا من ركام، وأتوا بجرّافةٍ لسحب السّطح المنهار. كان الأب يجلس على الرّصيف. يعلو وجهَه الغبارُ، ويبدو كتمثال لولا سيجارته الّتي تتحرّك. طبقة غبار كثيفة تعلو شعره وثيابه. كان في الخارج عندما سقطت القذيفة، ثمّ نزل بين الأنقاض. انتشل جثث زوجته وابنته وابنه، وبقيت ابنة الأربع سنوات مجهولةَ المكان. البارحة بقي الشّباب حتّى السّاعة الواحدة ليلًا يبحثون عن جثّتيْ رجل عجوز وزوجته تحت أنقاض بينهما المهدّم. ذهبنا لرؤيتهم ليلًا. كانوا يعملون بالطّريقة نفسها مع أضواء الغاز والشّموع، ولم يعثروا على الجثّتين حتّى طلوع الفجر. قالوا إنّهم، خلال ساعتين، سمعوا الأنين من مكان بعيد وعميق، وأملوا بانتشال أحدهما حيًّا، لكنّهم فقدوا الأمل بعد مرور الوقت.

اليوم، يتكرّر الأمر نفسه، لكنّ الجثّة لطفلة في الرّابعة. مددتُ رأسي بين الشّباب ولم أنتبه إلى أنّني المرأة الوحيدة بين عشرات الرّجال. كنت من يومين قد تلقّيتُ تحذيرًا من الجارات بهذا الخصوص. قلن لي ألّا أحشر نفسي بين الرّجال أثناء القصف، أو البحث عن القتلى، لأنّ هذا سيثير الشّكوكَ حولي. نسيت التّحذير عندما سقطتْ قذيفة فوق البيت المجاور لمقرّ كتيبةٍ عسكريّةٍ، وبقيتُ هناك أحاول معرفة ما يحصل، وعندما انتبهتُ إلى أنّني أمسك أصابع عضّةً وطريّةً تحت ركام الحجر، وخصلَ شعرٍ، صرختُ، وانتبه الرّجال إليّ، وطلبوا من شابّ أن يأخذني من المكان.

تقدّم منّي شابٌّ لم يتجاوز العشرين، يضع على جبهته عصبةً سوداء كُتب فوقها: لا إله إلّا الله. وصاح برفيقه: «خذوا هذه المرأة من هنا، مكانُها ليس بين الرّجال. أستغفرُ اللهَ العظيم». كان الأمر سينتهي لو لم أنتبه إلى أنّه ليس سوريًا. حدّقتُ في عينيْه، ولهجتُه كانت غريبة. وقفتُ في مكاني، وحدّقتُ فيه مجدّدًا. كان واحدًا من مقاتلي «داعش» الغرباء. لم أتراجع حين كان يتقدّم. في اللّحظة نفسها توقّفتْ سيّارةُ الشّباب أمامنا. ترجّل منها أحدُهم، وأشار إليّ لأدخلها بسرعة: «لم يعثروا عليها، سيواصلون البحث»، قلتُ لهم وأنا أدخل السّيارة. ظهر محمّد من بين الأنقاض يحمل لعبةً بلاستيكيّة. كان صوته مبحوحًا، يحرّك شفتيه ولا أسمعه، وهو يقبض على اللّعبة. سمعنا صوتًا غريبًا. ضغط عليها مرّةً أخرى، فأصدرتْ صوتَ بطّة. قال: «قلبي محروق. وأنا أبحثُ عنها وجدتُ هذه البطّة بين الأحجار، إنّها لها». ثمّ مضى وحده.

القصف لا يتوقّف على «سراقب» لأنّها تشكّل نقطة عسكريّة استراتيجيّة بالنّسبة للنّظام، ومن المهمّ إبقاؤها في حالة عدم استقرار. لكنّ أهل «سراقب» سيدفنون شهداء الصّباح، لأنّ الكهرباء مقطوعة والجثث تتفسّخ. مقبرة الشّهداء لم تكن سوى بضعة شواهد. في المرّات السّابقة، وفي اللّاحقة، ستتحوّل حديقة، تُزرع على طرف كلّ شاهدٍ شجرةُ وردٍ صغيرة.

كلّ الّذين دُفنوا في المقبرة كانوا من أهل «سراقب»، وأمجد الحسين كان مدفونًا فيها. أمجد هو المقاتل الّذي التقيتُه في المرّة الأولى، وحاولتُ إبقاء صورة وجهه في ذاكراتي حيّةً. كان حضوره يلخّص كلّ ما قام به السّوريّون في ثورتهم من أجل الكرامة والحرّيّة، لكنّني، ولسببٍ غامض، لمحتُ عندما رأيتُه سحنةَ الموت. كان

طهرانيًا فريدًا، وشجاعًا. تحاورنا لساعات طويلة في بداية الثورة. كان إقدامه يقلقني. قبره الآن أمامي. مسّدتُ على التّراب وقلتُ: «مسا الخير أمجد». استطعت سماع صوته في رأسي واضحًا، وأصوات شباب كثيرين ماتوا مثله!

إلى اليسار كان شابّان يحفران القبور الجديدة. إلى جانب الحفرتين المتلاصقتين، شتلةُ زرع جديدة ملفوفةٌ بقطعة قماش مبلّلة بالماء، والسماء لم تكن رحيمة حينذاك. سمعنا أصوات القصف؛ كان بعيدًا من المقبرة. ومع ذلك، فقد تابع الشّابّان عملهما. مقبرة القرية بعيدة، وبعد الثورة صارت هناك مقبرة للشّهداء. اختلفت أشكالُ مقابر السّوريّين بعد الثورة؛ صاروا يدفنون قتلاهم في باحات بيوتهم، وحوّلوا حدائقهم العامّة مقابر. يدفنونهم بين الأشجار، ويتركون شواهدَ بسيطة. وقد يحفرون خندقًا طويلًا، يدفنون فيه عشرات الشّهداء بشكل جماعيّ. وأحيانًا قد يحوّلون المساحةَ الصّغيرة المتاحة لهم خلف بيوتهم مقبرةً لأطفالهم. وعندما تُقصف بيوتُهم في المدن، يبحثون عن أقرب مكان خالٍ لدفن الموتى.

صارت المقابر تنبت بين النّاس، مثلَ حوانيتَ وشوارعَ تتفرّع بين البيوت. تحوّل التّراب، مجزرةً بعد مجزرة، حفرًا مثقوبةً بأجساد السّوريّين.

«المقبرة. هنا. منظمة ومرتّبة»، أقولُ بصوت عالٍ، فيجيب شابّ من قلب الحفرة وهو يحفر في التّراب: «كلّهم شباب!». صمتُّ. كنّا نتجوّل بين القبور، وفداء عبّاني يلتقط الصّور. سأكتشف لاحقًا في صور فداء الشّمس التي كانت وراءنا. إنّها شمس كبيرة وراء شواهد قبور، وسأكتشف ظلالنا، أنا ومحمّد والشّباب، وكيف نلفّ وندور بين الشّواهد: رقّتنا متدلّية كفواكه منخورة، والبلدة تختفي وتتحوّل خطوطًا

سودًا، ثمّ أجسادنا المتهالكة تتحرّك بتثاقل وانكسار. هي هكذا أيضًا جاهزة للموت والقذائف. الجسد لا يكذب عندما ينفصل عن الرّقيب. لقد كنّا موتى أيضًا في علاقتنا بالضّوء والهواء والتّراب! والموت سهل جدًّا هنا. قريب وحميميّ، حتّى إنّه أقربُ من التّنفس. يعيش بين التّفاصيل، يختبئ، ثمّ ينقضّ فجأةً. أخبرتني إحدى نساء «سراقب» التي كنت أعمل معها على مشروع اقتصاد منزليّ، وقبل استشهاد زوجها، بأنّ علاقتهما تغيّرتْ كثيرًا، وقد أنجبا طفلين. همستْ لي: «الموت الكثير... يأتي بالحبّ الكثير».

كان ما يلفت انتباهي، وأنا أزور النّساءَ في بيوتهنّ، وفي قرًى عدّة منتشرة في ريف «إدلب»، أنّ بيوتهنّ نظيفة جدًّا، رغم انقطاع الماء الدّائم، وروائح موادّ التّنظيف رغم الفقر تفوح من غرفهنّ. في أفقر البيوت، كنت أشمّ رائحة الصّابون الرّديء والرّخيص. أمّا عند فقراء النّازحين، الّذين يعيشون في بيوت نصف مهدّمة، فكانت النّساء يعتنين بها بطريقة مختلفة؛ إذ كنّ يمسحنَ الغبار بقماش مهترئ بشكل دائم، ويمسحن وجوهَ الأطفال بمنشفة يبلّلنها بالماء. أمّا اللّواتي يعشنَ في العراء فيختلف الأمر عندهنّ.

الشّابّ الّذي يحفر القبر قال من داخله وهو يفرغه من التّراب: «هذه المقبرة متنفّسنا، سنوسعها ونهدم الحائط. هكذا ينام شبابُنا بأمان تحت التّراب!». أنظر إليه بدهشة، بينما يتجوّل محمّد والشّباب في المقبرة كأنّها بيتهم. يضيف الشّابّ: «هذا ترابٌ كلُّه من لحم أولادنا»، لم يكمل جملته حتى دوّت أصوات القذائف. ركضنا. هذه ليست طائرة، إنّه مدفع! عندما وصلنا إلى أوّل الطّريق الفرعيّة، انفجرت قذيفة فوق بيت مجاور، وامتلأت السماءُ غبارًا، وبدأ اللّيل يُلقي بَرْكَ جَمَلِه علينا.

في تلك اللّحظات، كانت جثثٌ تُنتشل من تحت الأنقاض، وجثثٌ في طريقها كي تُوارى، وبشرٌ يتحوّلون الآن جثثًا. كيف يمكن التّفكير في دوّامة المجزرة هذه؟

تدافع النّاسُ من كلّ الجهات نحو مصدر القذيفة. اتّضح أنّ المستهدف في القصف كان مدرسةً صارت مقرًّا لكتائب «أحرار الشّام». خلال ذلك، ونحن نجتمع، سمعتُ حديث مقاتليْن. وإذ رحتُ أحاول فهم ما يحدث في معركة «وادي الضّيف»، وأثناء البحث بين الأنقاض، يقول أحدهما، وهو الأصغر سنًّا: «معركة وادي الضّيف كان بمكنها أن تنتهي منذ زمن طويل لكنّ الكتائب الّتي تتلقّى الدّعم الماليّ تطيل عمرَ المعركة للاستفادة منها». يعترض المقاتلُ الأكبرُ سنًّا، فيبدأ الآخر بشرح ما حدث في مطار «أبو الضّهور»، بين ماهر النّعيمي وكتيبة «شهداء سورية». ثمّ يبصق المقاتل الصّغير وهو يقول:

«تفوووو... أمن أجل هذا خرجنا للثورة، حتى يستغلّوا الفقراء؟ ويموت النّاس من أجل القليل من الأموال. ومن يدفع الثّمن؟ هؤلاء الفقراء!»، ثمّ يعتلي الرّكامَ غاضبًا.

ساد الصّمت ثانيةً، باستثناء صراخ بعض الجيران. دخلت السّيّارة الأزقّة مبتعدةً عن مركز المدينة المستهدف بالقصف، واتّجهنا إلى أبعد جهة ممكنة، ثمّ توقّفتْ ودخلنا بيتَ أحد أصدقاء الشّباب. كانوا جالسين على ضوء الشّموع، وما إنْ ألقينا التّحيّة حتّى بدأت الاستعدادتُ لتحضير العشاء. كنتُ آمل أن أتمكّن من زيارة بعض النّساء، بخاصّةٍ إحدى زوجات الشّهداء، وكانت تريد افتتاح مشغلٍ للصّوف. لكنّ فكرة الزّيارة بدت مستحيلةً؛ فالنّهار كان طويلًا، وأهل البيت الّذي حللْنا فيه فجأةً قالوا إنّنا لن نغادر من دون تناول العشاء. اتّصلت نورا. استغربتُ كيف عرفتْ مكاني. كانت قلقة عليّ. قلت

لها: «سعري بسعر غيري!» قالت: «لا والله، أنت أغلى من غيرك، ونحن حمايتنا». كانت هذه الغصّة الأخيرةَ التي ابتلعتُها قبل بضع لقماتٍ نزلتْ كالسّكّين في حلقي.

أفكّر بلاجدوى تدوينِ هذه الأحداث التي تتشابه وتتكرّر، لولا حديث نورا الصّباحيّ.

كنّا نرتشف قهوتنا في الملجإ تحسّبًا للقصف. نورا من دمشق، وهي زوجةُ أخ ميسرة، وعائلتي الصّغيرة في «سراقب». لا أعرف مكمنَ شعاع الشّمس الدّافئ في قلب هذه العائلة، والّذي جعلني أفكّر كلّ مرّة في الرّجوع. كنتُ أودّ مغادرةَ فرنسا والاستقرارَ في الشّمال، والبحث عن بيت في «سراقب» أو «كفرنبل»، لكنّ الأمور كانت تسوء يومًا بعد يوم. وصرتُ أشعر بثقل حركتي على الشّباب. خوفُهم من إصابتي بأذًى، هم وكلّ العائلات التي عرفتها، وحرصُهم على حمايتي، ثمّ ذلك الاحتفاءُ الممزوجُ بالغصّة، صار لكلّ ذلك طعمُ القهر، يومًا بعد يوم.

كنّا نرتشف القهوة الصّباحيّة في أسفل درج الملجإ لنتمتّع براحة بال موقّتة، ثمّ نروي تفاصيل الأحاديث، التي تتناول نوع الطّعام الّذي أفضّلُ تناوله. «أبو إبراهيم»، الأخ الأكبرُ لميسرة، مهندسٌ درس في بلغاريا، وهو يدير أرضه ومشاريعه الزّراعيّة الآن. شارك في التّظاهرات السّلميّة، وسُجن في بداية الثورة، ثمّ أطلقوا سراحه، وهو لا يكلّ ولا يملّ من مساعدة الثّوّار والعائلات. نورا أيضًا تفعل ذلك. كانت سيّدةً دمشقيّة، وقعتْ في حبّه عندما كان يزور أخته. نورا «المتّقنة»، كما يقول الدّمشقيّون، تفعل الأشياء بكامل الأناقة المطلوبة. أثناء القصف، نُحضر كوب الماء مع الصّينيّة وقطع الحلوى وفناجين القهوة المذهّبة. ونحضر الهدايا عندما أغادرهم. حاكت لي شالًا من الصّوف، وصنعتْ

جزدانًا صغيرًا من الخرز لابنتي. كانت، أثناء خروجي يوميًا مع الشباب، تقف أمام باب البيت، وترفع رأسها إلى السماء، قائلة: «يا الله احمها واحم قلبها وعقلها، يا ربّ أعدهم سالمين»، وتلوّح لي بعد ذلك. كنت أنتظر دعاءها. لكنّ نورا تخاف من القصف، ولم تعتده، ولا تزال، عندما تسمع صوتَ قذيفة، تقف وترتجف وتصاب بحالة ذعر. حالتها تلك جعلتني ألتزم الهدوءَ في كلّ مرة. ثمّ صار ذلك الهدوء جزءًا منّي. لم تخرج نورا هذا الصّباح معي إلى الباب الخارجيّ؛ فالقصف كان مستمرًّا.

نتّجه إلى «كفرنبل» لرؤية رزان التي قرّرت العودة والعمل في المناطق المحرّرة.

دخلنا «كفرنبل» ليلًا. عندما وصلنا إلى المكتب الإعلاميّ، كان الشّباب ورزان في انتظارنا. المكتب الإعلاميّ، الّذي وصلتْ لوحاتُه ولافتاتُه إلى بقاع الدّنيا كافّةً، كان عبارةً عن بيت شبه مهجور، يجتمع فيه الشّباب والنّشطاء والمقاتلون في غرفة واحدة، حول مدفأةِ مازوتٍ قديمة، يجلسون على وسائد الإسفنج والحصير البلاستيكيّ. الغرفتان الأخريان فارغتان، واللّوحات الشّهيرة التي رسمها أحمد جلل، رسّامُ «كفرنبل»، كانت ملقاةً على كرسيّ مكسور عند باب الغرفة. المركز يفتح أبوابه لجميع من يريدون الاتّصال بالعالم الخارجيّ. الهواتف مقطوعة، ولا وجود لـ «إنترنت» سوى الأجهزة التي يقومون بشرائها مع الحزم الكافية لنقلِ ما يحصل إلى العالم الخارجيّ. كنّا في غرفة المكتب نتحلّق حول المدفأة، أنا ومنهل، و«أبو وحيد»، وفداء، ومحمّد، ورزان، ورائد، وحمود وخالد العيسى، إضافةً إلى ثلاثة نشطاء بقوا ساعةً ثمّ غادروا. كانوا يعملون على الكمبيوترات التي يضعونها على ركبهم غير مبالين بما يحدث حولهم.

أحاول التّركيز لأصدّق أنّني لست في فيلم سينمائيّ عن صناعة الثّورات أو لست في نصّ سرديّ؛ ذلك لأنّ المشهد كان يبدو للوهلة الأولى رومانسيًّا ومثاليًّا بالنّسبة إلى ثورة شعبيّة قرأنا عنها في كتب التّاريخ. قنوطٌ يقبض قلبي؛ فالعالم في الخارج لا يريد أن يرى حقيقةَ ما يحصل بشكل واضح. كان يريد رؤيتنا كمجموعات بشريّة متوحّشة تنفي عنها صفة العقل، وتنسبها كلّها إلى التّطرّف الدّينيّ الإسلاميّ. وهذا الأمر كان يعني، بالنّسبة إلى الحكومات وإلى كثير من شعوب العالم، أن يبقى خطرُ هذا التّوحّش بين الجماعات المتصارعة في ما بينها. كنت أعيش بين عالمين: عندما أدخل سورية، وحين أخرج منها وألقي المحاضرات في مدن عدّة من العالم. أحاول شرح حقيقة ما يحصل في سورية، وأحاول فهم طريقة تفكيرهم فينا؛ ثمّ أعود وأعيش مع الثّوّار والنّاس، فيصيبني قنوط وغضب من الظّلم الكبير الواقع علينا كشعب وقضيّة، ثمّ أجد نفسي في حفرة من الفراغ العميق واللّاجدوى، لا ينقذني منها سوى العودة إلى هنا!

تربّعنا حول المدفأة التي يغلي فوقها إبريقُ الشّاي. كلّ الشّباب متحمّسون للدّخول في نقاش معنا. يرى رائد أنّ هناك فوضى حلّت بعد خروج قوّات الجيش؛ فوضى الكتائب والسّلاح جعلتْ من «جبهة النّصرة» أكثر تنظيمًا، وبرزتْ بعدّتها ومالها وسلاحها. من أين يأتون بالتّمويل والسّلاح؟ لا نعرف! الوضع في «سراقب» مختلف، يقول رائد وهو ينظر إلى منهل. لقد تمّ دعم حركة «أحرار الشّام» بالمال والسّلاح، وصار عناصرها يتدخّلون في الحياة الاجتماعيّة للنّاس.

«جبهة النّصرة» كانت بعيدة من هذا التّدخّل. سأرى العكس في زياراتي اللّاحقة. سألته عن مشروع الخلافة الإسلاميّة، أقرّ بأنّ هناك أصواتًا تريد بناء خلافة إسلاميّة، سبب ذلك هو العنف الشّديد من قبل

النّظام. النّاس يشعرون بأمان مع «جبهة النّصرة» والتّديّن، لأنّ لا خيار لهم سوى الموت الّذي سينعمون بعده بالحياة الأخرى. تحوّل النّاس فكريًا من الصّوفيّة إلى السّلفيّة. السّلفيّون لديهم أطفال يقومون بتدريبهم لتحويلهم إلى مقاتلين. «هذا خطير أيضًا!»، قلتُ. وافق الشباب على ذلك، ثمّ أضاف أحمد رسّام «كفرنبل»: «نحن بدأنا الثورة وهي تنتقل إليهم».

كنّا نرتشف الشّاي، وأحاول سماع صوت القذائف. قال شاب آخر: «القصف هنا قليل هذه الأيّام»، وأردف رائد موجّهًا حديثه إليّ: «هذا جهل بالدّين والإسلام. الجهل أساس التّطرّف».

منهل لا يوافق على أنّ هذه هي الأسباب فقط. يقول إنّ هناك أمورًا تدخل في تركيب المجتمع السّوريّ تؤثّر، مثل الانتماءات العائليّة والعشائريّة كما حصل في «بنش»، حيث كان الخلاف بين عائلتين هو السّبب في سيطرة «جبهة النّصرة» على «بنش»، وعندما دمّرت «تفتناز» وقف أهالي «بنش» و«حيش» يتفرّجون. العطب أعمق بذلك بكثير. قلت: «إنّ ثقافة العمل بالشّأن العامّ الوطنيّ وثقافة المواطنة غائبة. لذلك، تنشأ خلافات مناطقيّة وصراعات تناحريّة بين الكتل والمجموعات. هذا ما تسبّبه الأنظمة الشّموليّة، وعلى هذا المعدّل نحن أمام تفتّت مجتمع وتفسّخه».

رائد، ليس متفائلًا، ولكنّه ليس متشائمًا أيضًا، يجيب: «لا مفرّ لنا من المضي قدمًا في ما بدأناه». يضيف منهل: «لقد تمّ إهمال الجانب المدنيّ في الثورة».

فيما نتحدّث، كان الشّباب مع رزان يعدّون العشاء، لا حدود لكرم أهالي «ريف إدلب» وضيافتهم.

تبدو على رائد علامات الضّيق، لكنّه هادئ على العموم وكلمته مسموعة بين الشّباب. ينظر إليّ وهو يحرّك رأسه بأسًى: «نعم أخطأنا، ولكن كيف لنا ألّا نخطئ؟ كان لدينا حجم عمل كبير لمساعدة النّاس والنّازحين، وكانت بيوتنا تتهدّم فوق رؤوسنا». يعلو صوت رائد، وبدأنا العشاء الّذي وضعه الشّباب على الأرض. تحلّقنا حوله، وغمسنا لقمات الخبز مع رشفات الشاي السّاخن، والحوار الّذي لا ينتهي. يتابع رائد: «صارت الإغاثة فوق طاقتنا، هناك أزمة ثقة بين النّاس، وتخوين للجميع ولكلّ من يعمل بالإغاثة. الجوع يفعل فعله. نحن بحاجة للمكاشفة كبداية لفعل البوح في الثورة. نريد إذاعة لنتحدّث عبرها لأبناء «كفرنبل» ونخلق حالة وطنيّة. نطالب المجلس الوطنيّ والائتلاف بذلك أيضًا! بخاصة أنّ جبهة النّصرة بدأت تدخل في مجال الإغاثة من خلال الخبز والمازوت، كما فعلت في حلب ودير الزّور. ستكون هناك نتائج كارثيّة».

المكان الضّيق الّذي جمعنا أشعرني بالاختناق، وأنا أراقبهم يلتفّون حول بضعة صحون يضحكون، يناقشون ما يجب فعله، وكل هذا الدّمار والقتل فوق رؤوسهم. حين جاء «أبو المجد»، اختلف الوضع. وصار الجميع أكثر مرحًا.

«أبو المجد» ليس ناشطًا سياسيًّا، ولا إعلاميًّا. إنّه مقدّم منشقّ عن الجيش الأسديّ، وقائد كتيبة «فرسان لواء الحقّ». يحمل كمبيوتره معه. ابتسامته لا تفارق وجهه. أحاول تحديد ملامحه كقائد عسكريّ، لكنّه لا يوحي بذلك. سأعرف لاحقًا خلال الأيّام والشهور المقبلة، ماذا يعني أن يكون القائد العسكريّ بهذه الرّوح السّاخرة العالية. يضحك ويحدّق بنا: «السّلام يا شباب، كنت عند جماعة الإغاثة، وأنا هنا لمعرفة ما يحصل في العالم عبر النّت». يعاجله رائد: «لم تأت

إلى التظاهرة؟» يضحك أبو المجد: «أنا عسكريّ ماذا سأفعل بتظاهرة سلميّة! أليس هذا ما تكتبونه على الفايسبوك، من هم ضيوفكم؟» يضحك لنا. يعرّفنا رائد بأسمائنا الأولى وبعملنا. يقترب شاب ويهمس له بأذنه، فيحدّق بي، ويقول: «كلّنا ولاد بلد وحدة، الله محيّي أولاد الأصل، وأهلًا وسهلًا بك يا أختي».

كان أعرج، عاد حديثًا من رحلة علاج في تركيا. أصيب في المعركة الأخيرة. لا يتبع لأيّ جهة تمويل، ولا لكتائب دينيّة متطرّفة، ولا لأموال الخليج التي كانت تتدفق من رؤوس أموال يملكها رجال أعمال أثرياء. وهو في منتصف الخمسينات من عمره. كتيبته مفلسة، يقول: «لدينا في اللّواء ألف وتسعمئة مقاتل، لكنّ هناك مئتين وعشرين فقط منهم يعملون ويقاتلون، الباقون في البيوت. لا يوجد لدينا سلاح، ولا يوجد دعم خارجيّ أو داخليّ، وتأتي بعض المساعدات البسيطة من أهل «كفرنبل»، ولكنّها تبقي الحال على ما هي عليه. يعني لا يموت الذيب ولا يفنى الغنم! انظري إلى رجلي، كنت أعالج هناك وقد قدّموا لي العناية الصّحيّة المطلوبة». كان فرحًا وهو يعرف بأنّه ما زال حيًّا، ينظر إليّ بتمعّن: «هل تريدين الذّهاب لرؤية المعركة؟ لدينا معركة على خطّ الجبهة» أجبت بحماسة: «طبعًا»، لكنّ الشّباب رفضوا. يضحك أبو المجد: «تعتقدون أنّني لن أحميها بروحي وروح جنودي؟» أجاب شاب: «بل ستحميها، لكنّك ستتفتّت معها بقذيفة على خطّ الجبهة، والله وحده سيحميكما معًا في السماء». نضحك، فيقول: «هنا أيضًا، قد ننفجر بقذيفة».

طلبتُ من «أبو المجد» رواية قصته، لأدوّنها كشهادة، فأغلق جهاز الكمبيوتر، وبهدوء سألني: «ستكتبين عنّي؟». أجبت: «نعم عنك». ابتسم بأسى، وهزّ رأسه. الشّباب بدأوا ينشغلون بمشاريعهم.

قال «أبو المجد»، بعد أن فرد رجليه، وأسند ظهره إلى الحائط: «كنت برتبة مقدّم في الجيش النّظامي، وخدمتي في هندسة الطيران بمطار دير الزّور. أنا مهندس، انشققت من الشّهر الأوّل، وفي بداية الشّهر السّادس من سنة ٢٠١١، بدأنا التّخطيط للسّيطرة على مطار دير الزّور. عرفت جماعة الأسد بالقصّة، فسجنتني، لكنّها لم تستطع إثبات أنّني أحد المتورّطين بالسّيطرة على المطار. بقيت في سجن المزّة سنة. بعض الضّبّاط الّذين كانوا معي حُكم عليهم سبع سنوات. وخرجت إلى مقرّ عملي مباشرة. عدت إلى الخدمة. اتّصلت بعقيد في دمشق انشقّ لاحقًا بطائرته وذهب إلى عمّان. كنت مع مجموعة من الضّبّاط، أسّسنا غرفة عمليّات وبدأنا تحرير دير الزّور. كنّا نركب ثلاث سفن ونعبر نهر الفرات لنقل الذّخيرة، ونخترق حواجز الجيش. جرى هذا في الشّهر السّابع. لقد عذّبوني في السجن كثيرًا، لكنّني لم أعترف. علّقوني وشبحوني أربعة أيّام. عذّبوني بالكهرباء». يضحك. وجهه الضّعيف أقرب إلى وجوه الكتّاب والفنّانين. يتابع: «لو اعترفت لبقيت في السّجن. كنت أعرف أن كلّ اهتمام المخابرات بي كان من أجل عودة الطّائرة المنشقّة في الأردن إلى سورية. خدعتهم، بعد أن ظنّوا أنّني سأقوم بالحديث مع الطيار المنشقّ، وإقناعه بالعودة. جئت إلى كفرنبل وبدأنا العمل لتحرير الحواجز. هل تظنّين أنّ الّذين حرّروا هذه القرى هم هؤلاء الغرباء المتطرّفون؟ نحن حرّرناها، ثمّ جاؤوا إلينا. حرّرناها بدماء أولادنا، ودمائنا، وعندما طلبوا نجدة في حيش ذهبنا إليهم بعد أن حرّرنا كفرنبل، لكنّهم قصفوا حيش بطائراتهم الأسديّة».

الشّباب يتابعون شغلهم على الكمبيوترات. المكاتب الإعلاميّة كانت مركزًا لجميع أنواع النّشاطات، يدخل مقاتل، يقول لـ «أبو المجد»، أنّه يجب وداع الشّباب الذّاهبين إلى خطّ الجبهة، فيقول له

«أبو المجد»: «إحكِ للسّيّدة عن المنشقّين في الكتيبة». فينظر إليه الشّاب مستغربًا. يقول له: «الأخت علويّة». أندهشُ، وأقول بغضب: «لِمَ قلت ذلك؟» يجيب بحماسة: «كي يعرف الشّباب أنّنا شعب واحد»، وأنا أمتعض أكثر! يدير أحد الشّباب رأسه، ويقول هازئًا: «لسنا شعبًا واحدًا، ووجود السّيّدة لا يعني شيئًا!» فيقول الشّاب الّذي رفض الجلوس وطلب من «أبو المجد» المغادرة: «كان معي منشقّون من كلّ الطّوائف، دروزًا ومسيحيّين وعلويّين... وما زال بعضهم معي، لكن لدينا مشاكل... يعني هناك خوف عند البعض منهم». يقاطعه «أبو المجد»: «جبهة النّصرة تريد خلافة إسلاميّة، وهذا مستحيل في سورية، صعب جدًّا... هي ثورة السّوريّين جميعًا» يوجه حديثه إليّ، وكان قد نهض، والشّباب قاموا لتوديعه: «نحن وحدنا، والعالم تخلّى عنا، وحزب الله يقاتل مع الأسد ضدّنا، لا نستطيع ضمان ما سيحصل». فتح المقاتل الباب، فهبّت نسمة باردة. «إلى أين أنت ذاهب أسأله؟». يجيب المقاتل الّذي اختفى نصفه وراء الباب، ثمّ عاد والتفت إليّ: «نحن ذاهبون لتحرير حاجز فيه أحد عشر عسكريًّا ودبابة». يخرج «أبو المجد» معه. يودّعني من دون مصافحة. يضع يده على صدره، ويقول: «نلتقي قريبًا إذا عشنا بإذن الله»، وأنا أقف مذهولة. يقول له الشّباب: «بالسّلامة... الله يحميكم».

يتابع رائد بعد خروجهما: «أبو المجد من خيرة الضّبّاط، لكن ليس كلّ الضّبّاط مثله. لقد جاء الضّبّاط بفساد مؤسّستهم العسكريّة إلى هنا. والكتائب هنا ليست كلّها عسكريّة، هناك مدنيّون، العسكر أكثر انضباطًا، ولكن ليسوا بالضّرورة شرفاء، والمدنيون أيضًا. لدينا أربعة ألوية وثلاثون كتيبة وعشرة ضبّاط كبار، منهم من حاول إعادة سيرة جيش الأسد هنا، لم نسمح له. على الأقلّ حتّى الآن. الكتيبة الأمنيّة

أيضًا جزء منها كان تابعًا لجهاز الأمن في الدّولة، قبل أن ينشقّ، ولدينا مجلس عسكريّ للثورة، نحاول تنظيم أنفسنا، لكنّ النّاس غير راضية لأنّها لم تعد تثق بأحد، وصرنا موضع تساؤل».

ينهي رائد حديثه. أحمد، رسّام «كفرنبل» يستأذن، يقول إنّه ذاهب لرؤية خطيبته، وتعلو الصّيحات، أنا ورزان انتظرنا لنتحدث عن مشروع مدارس الأطفال. كنت حينذاك آمل بأن نكمل الثورة بأدواتنا رغم كلّ الصّعوبات.

في تلك اللّيلة، كنّا عائدين من «عين لاروز»، فالتقنيا مجموعة من المقاتلين، معهم معن وابن عمّه مصطفى. القرية تعرّضت للقصف، ونحن في ضيافتهم. كانت قرية «بيلون» تقصف بجوارهم. لذلك، كنّا أكثر هدوءًا، ومن المفترض أن نتفق على المشاريع الخاصّة بالنّساء. في تلك الأوقات من شباط سنة ٢٠١٣، كنت أضع الخطط الأولى لحالة الرّيف في «إدلب»، لأنّه كان صعب الاختراق، ليس بسبب أوضاع النّساء فيه، ولكن بسبب وضع الرّيف السّوريّ بعامّة، وكان قد تعرّض لتدهوّر خطير في العقود الأخيرة، ليس على المستوى الاقتصاديّ فحسب، ولكن على المستوى الاجتماعيّ والثّقافيّ أيضًا. والنّساء أوّل من دفع الثّمن في الحرب هذه. ومع دخول الكتائب العسكريّة المتطرّفة الغريبة عن بيئة المجتمع السّوريّ، ومحاولتها فرض ثقافة حياتيّة مختلفة، بدت الأمور أخطر. كنت مع مصطفى المحامي والنّاشط الّذي لم يترك قريته، وبقي ليقوم بنشاطات إغاثيّة وتنمويّة وإعلاميّة، فكّرت معه كيف يمكننا إيجاد بؤر مجتمع مدنيّ قائمة بحدّ ذاتها على التّنمية الاقتصاديّة والثّقافيّة، بحيث يتحول كلّ مركز إلى مؤسّسة تدير نفسها. قال مصطفى: «لن نستطيع ما لم يتوقّف قصف النّظام على المناطق التي تحرّرت. لقد خرج الأسد من الأرض، وهو يعود من السماء».

كان المقاتلون في غرفة صغيرة، داخل بيت مؤلّف من غرفتين منفصلتين. معن قائد الكتيبة الّذي حضر ومعه عشرة من المقاتلين، اثنان منهم من السّويداء، كانوا يحاولون المباهاة بأن معهم مقاتلين دروزًا أو علويّين. قال المقاتل الدّرزي، أنّه لا يريد أن يقتل أحدًا، لكنّه ضابط وانشقّ. ولم يعد بإمكانه سوى أن يكون إلى جانب الحقّ، والأمر ليس كذلك في كلّ الكتائب. كتائب قليلة تقبل بوجود مقاتلين من أقلّيات دينيّة بينها. سخر أحد المقاتلين، قائلًا: «وهل تقدّموا للقتال معنا، وطردناهم؟ تركونا نحن أهل السّنّة لوحدنا!». كان غاضبًا، ورغم أن شاربيه لم ينبتا بعد، كان يضع رشّاشه في حضنه.

قدّمت زوجةُ مصطفى لنا ضيافة الطّعام ولم تجلس معنا، كنت أضطرّ لأن أذهب لبعض الوقت لأجلس في غرفة النّساء، ثمّ أعود إلى غرفة الرّجال. العادات هنا لا تسمح بجلوس الرّجال والنّساء معًا. الزّوجة كانت تدرس الحقوق، لكنّها توقفت مع بدء المعارك. في الزّيارة القادمة ستكون حاملًا في شهرها الرّابع. ساعدتها في إعداد الطّعام، واتّفقت معها على زيارات متكرّرة لنساء القرية. كانت الأشجار قد أزهرت، وخرجتُ إلى الهضبة التي تتربّع عليها الغرفتان الصغيرتان. السماء صافية، وأصوات الانفجارات بعيدة، ولا دخان في الأفق. المقاتلون في الدّاخل يتحدّثون عن الانقسامات بين الكتائب، وإلى الجانب الآخر من الهضبة، امرأة تهزّ سريرًا صغيرًا، لونه أزرق، وتغطّيه بغطاء سميك، وراءها جبل حجريّ، فيه بضع أشجار زيتون. في السّفح بيوت حجريّة تتوزّع بين بساتين الزّيتون، لم تتعرّض للقصف. صوت المقاتلين يعلو في ما بينهم. معن يصغي إليهم، ومصطفى يأتي لي بكأس من الشّاي، ويقول: «ما أحلى بلادنا! لا نلقي سنبنيها من جديد»، ثمّ ينصرف. لا أنبس ببنت شفة. أصاب

بالخرس أحيانًا. يحدث في حالاتي العاديّة أن أبقى لأيّام لا أكلّم أحدًا. الآن لم أعد أستطيع تحريك لساني. الحديث عن «جبهة النّصرة» أخذ منهم وقتًا طويلًا وعن «المنارة البيضاء»، وهي المركز الإعلاميّ لـ «جبهة النّصرة» الّذي تنشر عبره عملياتها الانتحاريّة والقتاليّة. كنت أصغي إليهم: «لا تظنّوا أنّ هذه الشّبكة الماليّة الهائلة، وتجميع هؤلاء المجاهدين يتمّ بطريقة عفويّة، من المستحيل أن يحدث ذلك! وإفقارنا، وعدم إمدادنا بالسّلاح لا يتمّ بطريقة عشوائيّة». يتابع معن حديثه، ثمّ يضيف جملته الأخيرة: «لكنّنا لن نيأس».

أسمعهم، من خلال جدران الغرفة ورائي، ومن خلال النّافذة التي تتدفّق أصواتهم عبرها. عندما يهمسون، وتنخفض أصواتهم أعرف أنّ الحديث يدور حولي، لأنّ معنًا يصرخ بعدها: «ست سمر ناقصك شي؟» فأقول: «شكرًا».

عدت إلى غرفتهم، والحديث يدور عن تفاصيل نقل الوفود والتّمديدات الكهربائيّة للقرى التي تعرضت للقصف وانقطعت عنها الكهرباء والماء أيضًا. المدارس التي توقّفت فيها الدّراسة بعد القصف تحوّلت إلى مقارّ عسكريّة، وأحد المقاتلين كان يعترض على ذلك. «أبو وحيد» يطلب منهم إيجاد بديل من ذلك. بدأ المقاتلون يتدفّقون إلى بيت مصطفى، فينصرف آخرون لأنّ المكان لم يعد يتّسع. كان حديثهم قد وصل إلى المجلس الوطنيّ والائتلاف والمعارضة السّياسيّة الرّسميّة، وكيف يتمّ شراء الأصوات فيها لمصلحة جهات التّمويل.

جلست في الزّاوية أستمع إليهم. كانوا شبابًا من مختلف الأعمار. تركوا كلّ شؤون حياتهم وتفرّغوا للقتال والأعمال المدنيّة في الثورة. يحاولون إنقاذ المناطق المحرّرة من الخراب القادم. أعمارهم تتراوح بين السّابعة عشرة والخمسين. منهم من حصّل تعليمًا جامعيًا،

ومنهم من اكتفى بالقراءة والكتابة. يصل أحد المقاتلين من «جرجناز» ويدخل في الحوار معهم. يبدو أنّ حالتهم في «جرجناز» ليست أفضل من «جبل الزّاوية»، رغم أنّ هناك الكثير من الفروقات التي بدأت تغيّر المنطقة وسوف تظهر مستقبلًا في حال استمرّ الوضع على ما هو عليه. أقول لهم: «الدّعم الماليّ غير المحسوب يخلق الفساد أيضًا». يوافقونني، لكنّهم يقولون أنّ الدّعم يأتي دائمًا مشروطًا بولاءات. عمومًا، هناك انفلات كبير. أقول لهم: «هذا من طبيعة الثّورات». «لكنّ الخطير»، يضيف معن: «لم تعد الثّقة موجودة بين المجموعات العسكريّة والمدنيّة، وعلى المستويات كافّة».

خرجت ثانية لتدخين سيجارتي. كان الحديث يزداد توتّرًا، ومرّ أمامي في أسفل الهضبة ثلاثة مسلّحين. وفي السماء كانت طائرتان تحومان غير بعيدتين، لكنّ كلّ شيء يبدو طبيعيًا. قال أحد المسلّحين: «سمعتهم بجهاز اللّاسلكيّ يقولون، أنّ هذه الطّائرات ذاهبة إلى حلب». ظهر إلى جانبي رجل عجوز، وقال: «البارحة قصفوا بيتنا بطائرة الميغ، أنت ابنة من يا عمّي؟»، أجيبه: «أنا غريبة يا عمّي!». أعيدها ثانية: «أنا غريبة».

نزل الهضبة باتّجاه المسلحين وسألهم ما إذا كانت هذه الطّائرت ستقصف، «لا هي ذاهبة إلى حلب»، يجيب أحدهم. دوّى صوت انفجار قذيفة عنيف في قرية «بيلون». عرفنا مساء أنّ ثلاثة عشر شخصًا قُتلوا فيها. العجوز ينظر إلى المقاتلين الثّلاثة بسخرية: «قلتم لن تقصف... ها... لن تقصف... ها... ها؟!». وخبط برجله الأرض، وهو يتلفّظ ببعض الكلمات: «راح البيت... راحت أمّ الأولاد... راحوا الأولاد... راح كل شيْ... يا الله»... رفع يديه إلى السماء وصرخ: «يااااااااالله» ومضى منحدرًا السّفح.

دائمًا أشعر بالخفّة في لحظات القصف. خفّة الفراغ الّذي يجلعني أقف ثابتة في مكاني كتمثال، وأنا أراقب ظهر العجوز.

قرب الحدود، كثرٌ من العجائز الّذين يشبهون الرّجل العجوز في «عين لاروز»، كانوا يصطفّون أمامي بانتظار فرصة سانحة للعبور. وأنا أحاول تذكّر أشكال البالونات التي كانت تسقط قبل القذائف. لم أحفظ أنواع الصّواريخ ولا القذائف.

سهل أخضر، تليه هضبة وأشجار كثيفة من الزّيتون. الخروج عبر الحدود هذه المرّة من بوّابة الغنم. كنت خائفة، لأنّ المسافة القصيرة التي تلزمني للخروج هي اللّحظات الأشد كثافة للشّعور بالمنفى. محمّد وعبد الله ينتظران معي بالسيّارة. دوريّة من الجنود الأتراك تقف بالمرصاد. والجنود يروحون ويجيئون ويرمون بنظراتهم أفواج السّوريّين بلا مبالاة. بعض السّوريين جلسوا تحت الأشجار ينظرون إلى النّصف الثاني بعد السّياج، ومنهم من وقف أمام الجنود الأتراك، آخرون يروحون ويجيئون مع الدّورية ويتحرّكون معها. سيّارات من كلّ الأشكال والأنواع، تصطفّ على جانبي الطّريق عند بوّابة الغنم. عائلات كاملة حملت حاجيّاتها القليلة ووقفت تنتظر. على الجهتين، بساتين الزّيتون التي تخرج منها طلقة رصاص، بين حين وآخر. عبد الله المقاتل الّذي أصيب بعرج دائم في رجله نتيجة إصابة في المعركة، والّذي تعرّفت إليه في أحد المشافي على الحدود للمرّة الأولى، كان يضحك طوال الوقت، وهو يفكّر مهمومًا في خطيبته التي لا يريد لها الترمّل باكرًا. يقول: «أنا أعيش مع الموت، رجلي أصيبت، لكنّني مقاتل، ولا أريد التوقّف عن محاربة بشّار الأسد، لكن لا أريد أن أظلم الفتاة معي!»

الأطفال يتوزّعون بين السّيارات ويعرضون: قدّاحات غاز، خبزًا،

نظارات شمسيّة. . . أطفال من مختلف الأعمار، من سنّ الخامسة وحتّى الخامسة عشرة، يبيعون عصيرًا باردًا، مشروبات غازيّة، قهوة، شايًا وكلّ ما يخطر على بال. يأتي النّاس من الصّباح وينتظرون إلى المساء حتّى يستطيعوا المرور، ويتمّ تهريبهم، منهم من لا يملك النّقود ليدفع للمهرّبين. فينتظر قدوم اللّيل ويتسلّل، وهذا أمر لا يعجب المهرّبين، حتّى لا تنقص أرباحهم. لذلك، تحصل وشايات من قبلهم بالأهالي الفقراء الهاربين. في إحدى المرّات، أعادوا رجلًا عجوزًا وابنه، فما كان من العجوز، إلّا أن بقي أمام الخطّ الفاصل بين البلدين لليالٍ عدّة، ومرض من شدّة البرد. كان هاربًا من القصف بعد أن تهدّم بيته، فتمّ نقله إلى مشفى تركيّ. وهكذا استطاع الدّخول!

اليوم الأخير في سورية. شبّاط المشمس. اليومان الماضيان كانا متعبين، ليس بسبب الجولات في «جبل الزّاوية» على بيوت النّساء، وهروبنا المستمرّ من القصف، بل بسبب اللّيلة التي سبقت هذا الصّباح.

المهرّب، على الجهة الأخرى، يتّصل بمحمّد ويخبره بأنّه ينتظرني في أعلى الهضبة المكشوفة على الجنود الأتراك. «لِمَ لا نختبئ في البساتين، ستكون الطّريق طويلة؟»، أسأل. يطمئنني إلى أنّهم لا يطلقون النّار إلّا في الهواء. قلت: «أعرف، لكنّ الغريب أنّهم يسمحون لكلّ هؤلاء المقاتلين بالعبور إلى سورية».

هناك مجموعة من الأطفال الّذين يمسكون بطرف عباءتي، ويحثّونني على الشّراء، ثمّ يتقدّم طفل منهم إلى المرأة التي تقف ورائي ويحدثها بالطّريقة نفسها. ينظر مثل لصّ صغير معاتبًا لتركه وحده. أدير رأسي عنه، لأنّ مجرّد فكرة الشّراء منه، ستعني تدفّق العشرات من الأطفال الّذين كانوا كالعشب في كلّ مكان على طرقات القرى

المهجورة، والتي لا يتوقّف فيها القصف. يبيعون المازوت والبنزين. على أطراف البيوت المقصوفة يبحثون عن شيء في الدّمار، وقرب الكتائب العسكريّة ينتظرون الالتحاق بالقتال. في بساتين الزّيتون يفترشون الأرض. كلّ الأمكنة تعجّ بالأطفال. كأنّهم فجأة تُركوا وحدهم ولم يكونوا يومًا أبناءً لأحد. هكذا هم... أبناء المصادفة. ربّما تأتي مصادفة مختلفة، وتقتلعهم من الأرض وتلقي بهم في عالم أرحب من هذا!

تركنا عبد الله في السيّارة، وتقدّمتُ مع محمّد. تجاوزنا الصّفوف. وصرنا نقف أمام الجنود الأتراك في الجهة الأخرى، حيث يتسلّل النّاس من الجنسيّات كافّة. مؤخّرًا، قالوا لنا أنّهم زادوا المراقبة على الهاربين من سورية بسبب عمليّات التّفجير على الحدود.

أحمل حقيبتي الصّغيرة على ظهري. أكتفي بملابس قليلة. المهرّب نزل الهضبة، وأطلّ من بين أشجار الزّيتون. يشير برأسه إليّ من بعيد لأتجاوز الحدود. شعرت بخوف شديد. ما إن أقترب من المنفى حتى أرتجف. لم يعد بإمكان محمّد التّقدّم. السماء لا تزال زرقاء، الشّمس حادّة، لكنّ لسعات من البرد تنعشني. نورا زادت من عبء حمل الحقيبة على ظهري. هدايا لابنتي ولي، ونساء العائلة جمعن ما استطعن من هدايا. رميت ثيابي على الطّريق، واحتفظت بهداياهنّ. ثمّ وضعت الحقيبة على ظهري.

ابتعدت عن محمّد. أخاف أن يموت في غيابي كباقي الشّباب الذين كنت أودّعهم في كلّ مرّة. بقي واقفًا ينتظر. المهرّب التقطني مباشرة وأشار إليّ بالانطلاق. كان نحيلًا كعود قصب. له سنّ ذهبيّ. بدويّ. يتكلّم بسرعة. سبقني، ما اضطرّني للرّكض وراءه. صرخ جنديّ تركيّ. تجمّدت، ولم أعد أقوى على الحركة. وقف وأخفض

رأسه، وأشار إليّ لأتبعه. درنا حول الهضبة، وبدأت أرى الهاربين المتسلّلين. كانوا فقراء بالغالب، من الشّباب والرّجال. بينهم امرأة مغطاة بالسّواد الكامل. ركض المهرّب وأشار بيده لألحق به. ركضت، وصعدت التلّة. وقعت. قلت له: «احمل عنّي الحقيبة رجاء»، نظر إليّ بامتعاض، ولم يتحرّك من مكانه. قلت: «سأعطيك ما تريد من نقود». نظر إلى الحدود، حينذاك نظرت معه. كان محمّد وعبد الله ينظران إلينا، وبدوا مثل شجرتي حور بعيدتين. لو عرفا بما فعله، لأشبعاه ضربًا. أعرف ذلك. تقدّم منّي وحمل الحقيبة متذمّرًا وهو يلعن حظّه. لكنّني لم أكن أقوى على الحركة. كانت جموع الهاربين بدأت تعلو الهضبة، ووجدت نفسي وحدي، وبسرعة ركضت. ألم كاحلي كان لا يحتمل. أصيب العظم برضّة. تقدّمتُ وأنا أعرج. عند أعلى التلّة رفعت يدي ملوّحةً، ثمّ انحدرت.

كانت تلك تركيا، ووراءنا صارت سورية. «سأعود قريبًا»، قلت بصوت عالٍ.

البوّابة الثالثة

تمّوز ـ آب ٢٠١٣

أعود من جديد.

تدفّق اللّاجئون السّوريّون إلى صالة المطار. كانوا من الطّبقة المتوسّطة غالبًا. الفقراء يبقون في المخيّمات على الحدود. عيون الأطفال تشبه حفرة تجمّع السّوريّين أين ما تحرّكوا، كأنّهم نتف ممزّقة من أشلاء تتساقط على المطارات من السماء! يمكن أن تتكثّف الفكرة عبر مكان، ثمّ تتحوّل إليه، كأن نفترض أن عبور السّوريّين من خارج جحيم الداخل، تختصره النّقاط الحدوديّة في الجهات الأربع، وهي بوّابات جحيم منفلتة من طبقة إلى أخرى. هنا في المطار، وحيث الشّمال مفتوح على أنواع النّجاة والموت بالدّرجة نفسها، كنت بمواجهة بوّابة جحيم صغيرة، أنفذ من جديد إلى جحيم التّيه والشّتات والحرب. هنا، أستطيع سبر حجم التّغييرات في الشّهور الماضية.

إلى اليمين في صالة الانتظار، جلس مقاتل أردنيّ قربيّ. كان ضخمًا، لا يحيد ببصره عن جوّاله. لحيته لا تتجاوز بضع شعيرات، طويلة ومضحكة، بدت كأنّها ديدان رفيعة تخرج منها. كنت أتفحّصه بوقاحة، عندما توافد أربعة رجال وجلسوا إلى جانبه. سمرة المسلّحين داكنة، وعيونهم مستديرة ومكحّلة. اكتشفت عندما جلس أحدهم بقربي في الطائرة أنّه يمنيّ. كان الأربعة يرتدون سترات عسكريّة، ويجولون فيها غير آبهين بالدّهشة التي علت وجوه بعض المسافرين. وهم يحدّقون فيهم، ويضعون حقائب ضخمة على ظهورهم. كنت للمرّة الأولى أنتبه إلى أن وجوه هؤلاء المقاتلين صارت تشبه إلى حدٍّ ما وجوه الشّبيحة وأجسادهم. عضلات منفوخة وعيون مفتوحة بلا مبالاة، كأنّ كلّ العيون تعبر المكان ولا تراه، تمامًا مثلما فعل الشّبّيحة عندما رأيتهم في الشّهور الأولى للثورة، كأنّهم يقتلون المكان بالعدم. العدمان يتقابلان الآن، عدميّة استبداديّة أسديّة ظالمة حاقدة، وعدميّة انتحاريّة دينيّة ترى في الموت بعثًا للحياة، لكنّ العدميّة الأولى هي أمّ العدميّة الثّانية.

المفاجأة التي خفّفت عنّي ثقل العدد الكبير من المقاتلين في مطار أنطاكية، كانت ظهور ميسرة وآلاء وزُها أمام بوّابة المطار. صار لي معهم حكاية، لا تشبه حكايات الجنّ، لكنّها تبدو حكاية داخل بلّورة مسحورة. يختفون مع البلاد، ثمّ يظهرون عندما أعود إلى البلاد. كبرت الفتاتان خلال سنة. آلاء لا تزال تمطرني بالقبلات كلّما التقينا من جديد وترفض مغادرة حضني، ثمّ تروي لي كيف هربت مع والدها المقاتل، قبل أن يستقرّوا في الرّيحانيّة، واجتازوا حقل الذّرة. كان ذلك في الصّباح، وكان أحد المهرّبين يحمل الأخ الأصغر، وهم يخوضون في الحقل الموحل. الفتاتان نحيلتان، أمّهما صامتة. بالكاد

يُسمع صوتها، وهي أيضًا، نحيلة وهادئة، ولا يفارق الحزن عينيها، منذ أن اضطُرّت لترك بيتها في «سراقب».

حملوا القليل من الثّياب، باتّجاه الحدود، وركضوا في حقل الذّرة. روت آلاء، ونحن في طريق الذّهاب إلى البيت بعد وصولي إلى مطار أنطاكية، حكاية عبورهم الحدود إلى تركيا، كيف شعرت بالخوف وصرخت وهربت إلى حضن والدها. كانت قد تجاوزت الثّامنة، شعرها مجعّد ومشعّث وتطلي أظافرها بألوان عدّة. الجندرمة اكتشفت وجودهم، فاضطرّوا للاختباء في السّاقية، وخرجوا منها ملوّثين بالوحل والقذارة، صاروا مثل تماثيل طينيّة. تخبرني آلاء وتضحك، وهي تغمر وجهي بكفّيها الصغيرتين. كنّا أصدقاء موت واحد. منذ سنة ونحن نكبر معًا، وعندما كنّا نختبئ من القذائف تحت درج بيتهم، ونحشر مع باقي النّساء والأطفال في القبو، عرفت أنّنا سنصبح صديقتين. كانت هداياها ملفوفة في حقيبتي، وغمزت لها بعيني أي أنّ هناك شيئًا جميلًا ينتظرها! ضحكت، وتابعت حكاية هروبهم: «ثمّ ركضنا، تعذّبنا كثيرًا، ونحن نركض، وحل، وصوت رصاص والمهرّب يصيح فينا لنعجّل!».

بقيت آلاء وعائلتها في ساقية الوحل، بحقل الذّرة الّذي يفصل الحدود حتّى اللّيل، ثمّ مشوا بصمت وهدوء من دون أضواء كي لا يلفتوا الأنظار إليهم. المقاتلون يدخلون في وضح النّهار. هناك منافذ عدّة ليهرب أفراد عائلة آلاء منها، لكنّهم فشلوا، واضطرّوا لانتظار مرور مهرّبي الحشيش أمامهم. كانت هناك اثنتان من النّساء تقومان بتهريب الحشيش في ثيابهما. وبقيت العائلة بين الحقول وقبل السّياج الشّائك حتّى منتصف اللّيل، لأنّ الجندرمة قبضت على النّساء وصارت تراقب المنطقة كلّها، كانت آلاء تروي، وكنت أفكّر في اللّحظات التي

صمتوا فيها جميعًا، ربّما وبعد خشخشة أوراق القصب، تسنّت لهم النّحنحة، لكنّ آلاء أخبرتني بأنّها كانت ستختنق وهي تحبس أنفاسها، وتضع كفّها على فمها كي لا تصرخ ثانية. تزيد رُها، أختها الكبيرة: «بعد ساعات من الانتظار جاء رجال من أطمة، كانوا يحملوننا بصعوبة عبر السّاقية. مشوا في الماء والطّين، وكنت أنظر إلى أقدامهم التي تتحرّك ببطء في الطّين، وأشعر بالخوف. كانوا خمسة رجال مهرّبين يساعدون أبي على حملنا. السّاقية عميقة وخطرة ونحن نكتم صرخاتنا. هم كانوا يمشون على الأطراف حتّى لا نغرق في عمق السّاقية، وكان اللّيل داجيًا، نحمل حقائب صغيرة على ظهورنا، وأمّي تبدو بعيدة عنّا، تمشي ببطء وتعب. وقعنا في السّاقية، وتبلّلنا بالطّين والماء». خافت رُها على والدها لأنّه كان غاضبًا من أختها التي صرخت وفضحتهم، لكنّ آلاء ومحمّدًا لم يشعرا بالخوف، وتالا كذلك. هكذا همسوا لي وهم يتقافزون في حضني.

«الطّريق كانت جيدة». تضيف رُها ضاحكة: «نعم كانت رائعة، لقد مرّت عليها دبّابة من قبلُ مرّات عدّة ومهّدته. كنّا سعداء... الدّبابة مهدّت لنا الطّريق، واستطعنا الوصول إلى الطّرف الثّاني خارج سوريا». تهمس آلاء: «والله أنا لسّه خايفة».

آلاء صار لونها أصفر وعيناها أكثر حزنًا. غابت من عينيها تلك اللّمعة الثّاقبة. رها تبدو أكبر من عمرها بسنوات.

بعد لقاء العائلة، عليّ التّوجّه إلى الحدود، والشّباب الّذين جاؤوا من «سراقب» لملاقاتي. كانوا بالانتظار، عبد الله هنا، وأخوه المصاب في عينه برصاصة، أنتظر رؤيتهم مثل عائلة، في كلّ مرّة أودّعهم كما لو أنّها المرّة الأخيرة التي سألتقي بهم، ثمّ أعود كأنّني سأعيش بينهم إلى الأبد.

عبد الله وميسرة وعلي وشاب جديد، كنّا سنجتاز الحدود معًا، ولكن هذه المرة وعلى غير العادة، قرَّر الشّباب أنّه بإمكاننا تجاوز الحدود عبر معبر «أطمة» كما تفعل غالبيّة السّوريّين الّذين فقدوا هويّاتهم وبياناتهم بالقصف. كان هناك من ينتظرنا أيضًا. تبدو الحدود قبل «أطمة» مثل قطع من مسرح، كلّ واحدة مفصولة عن الأخرى، كي نستطيع العبور من حاجز مخيَّم «أطمة» ونصير داخل الأراضي السّوريّة، كان علينا المرور بنقطة أنشأها الأتراك لمنع تسلّل اللّاجئين وهروبهم. الحَرُّ خانق، ويتطلّب وصولنا إلى الغرفتين الصّغيرتين التي يتكوَّم فيها الموظّفون أن نمشي سيرًا على الأقدام، الشّمس الحارقة والغبار، والجلباب الطّويل الّذي أرتديه والحجاب الّذي يخفي معظم وجهي مع النّظارة السّميكة، كلّ ذلك جعلني لا أتعرّف إلى نفسي. طقوس التّنكّر هذه ضروريّة للمرور بسلام.

قرّر الشّباب أن أعبر باسم إحدى أخواتهم. كانت فكرة عدم صعود الهضاب والرّكض تحت طلقات رصاص الجندرمة والأسلاك الشّائكة تجعل الشّمس الحارقة أقلّ وطأة. وصلنا إلى حاجز عبور السّوريّين، والّذي سيقودنا إلى «أطمة»، كنّا في منتصف تمّوز، وبدأت تظهر أفواج النّساء وأطفالهنّ. السماء لا يعكّر صفوها شيء، حتى الغيوم البيض! هناك امرأة لا تتجاوز العشرين، تحمل طفلًا رضيعًا، وتمسك آخر بيدها، بطنها أمامها. الطّفل الّذي تمسكه بيدها، كان يضع نظّارة شمسيّة كبيرة. رأسه أصلع، محروق بالكامل، وجلده محروق، تخترقه نتوءات لحميّة حمراء، تبدو كأمعاء مقطّعة. وجهه يبدو مثل قناع بلاستيكيّ مجعّد وممزّق. رقبته تتّصل بعظام كتفه بخيوط لحميّة نائتة. ربّما لم يتجاوز الثّامنة، لكنّه بدا مثل مومياء.

يهبّ علينا هواء ساخن، والطّفل يتحرّك وراء أمّه وهي تمسكه

بيده. تتقدّمها نساء عدّة، ومن ورائهنّ بدا شابٌ مبتور الأطراف، القدم اليمنى واليد اليمنى. كان يقفز مثل أرنب. من ورائه ظهر شابّان، يقفزان بالطّريقة نفسها، كانا يتسابقان للوصول إلى منصّة الفيء الصّغيرة المتاحة التي نُحشر فيها مِنَ الهواء الخانق. لا يمكن التّفكير في لحظات كهذه، مع قيظ الظّهيرة، السماء الزّرقاء الغامقة، وأفواج البشر المتّجهين إلى جهات الأرض الأربع، الهاربين من القصف، المقطوعي الأطراف، والمهرّبين وسماسرة الدّخول والخروج، تجّار الحروب الصّغار، ودفعات المقاتلين الجهاديّين العرب والأجانب.

لا يمكن حتّى تحديد الخطوة التي يجب اتّباعها لاحقًا، لأنّنا نسير برفقة حشد كبير. الرّأس يختفي، يتحوّل الإنسان آلةً. مجرّد فكرة الخروج من عشرة أمتار إلى الأمتار التي تليها تجعل الحياة سعيدة. حتى السّهول المترامية على طرفيْ الطّريق تصير ثقيلة بأشجارها المصفرّة. هذا مكان يليق بموت الحيتان. أحدّق في كلّ ما يمرّ أمامي من صور، بدهشة، كأنّني أولد للتّوّ. ولا أكتشف إلّا حقيقة واحدة: الموت، قبرًا كبيرًا مفتوحًا، فمًا لا يشبع أبدًا.

بعد انتهائنا من تسجيل أسمائنا، جلست في السيّارة على المقعد الأماميّ. الشّباب حشروا بعضهم في المقعد الخلفيّ. كانوا يصرّون على معاملتي كشخص مدلّل، أو ربّما يتمسكّون بفكرتي نفسها، كنّا لا نزال نعتقد أنّنا لا نملك إلّا بعضنا، وعلينا أن يحميَ بعضُنا بعضًا، من أجل الفكرة البائسة التي خرجنا لتحقيقها، فكرة الحرّيّة والكرامة. أعرف أنّني بالنّسبة لهم فكرة، وهم كذلك على الطّرف الآخر، كانوا يجسّدون فكرتي عن سورية عادلة، حرّة وديموقراطيّة. يبدو هذا الكلام كقبض الرّيح، أمام التّحوّلات العميقة التي طرأت على الثورة. لكن، في تلك اللّحظة، وهم يُحشرون تحت قيظ الشّمس في مقعد صغير،

ويحاولون جعلي أشعر بالرّاحة، ابتلعت شظايا حنجرتي، وردّدت في نفسي جملتي الأثيرة: «الحزن غير مسموح بالمطلق»، ولوّحت بيدي مودّعة الشابّين المبتوري الأطراف.

عبد الله وميسرة ومحمّد وعلي وأحمد وأشخاص كثر، كانت لهم علاقة غريبة مع السّخرية. يسخرون من كلّ شيء حتّى من أنفسهم، وقد تعلّمت هذا منهم. سخرية قاسية لاذعة واستهزاء بالموت. علاقة تبدو فيها الفوضى والشّجاعة، لكنّها سبيلهم الوحيد لاستمرار المقاومة. إنّهم يركلون الموت.

كان الشّباب يعترضون في حواراتهم ونحن في الطّريق، على أصحاب العمائم السّود وعلى سلوك الكتائب الجهاديّة المتطرّفة. يسخرون من أصحاب المنظّمات الإنسانيّة المتأنّقين وورشات التّدريب المنتشرة بكثافة قرب الحدود. الخبراء والمتدرّبون والصّحافيّون يقومون بتسجيل ما يحدث، «لكن، ماذا عن الشّعب الّذي يموت قتلًا وجوعًا وقصفًا؟» يقول علي، أخو عبد الله، وهو مقاتل أصيب بعينه في إحدى المعارك، وكان برفقتنا في طريق العودة.

دخلنا «أطمة». غالبيّة سكّانها، حسب رواية الشّباب كانت من «حماه». ندخل مع أفواج من البشر المشرّدين الّذين يحملون أغراضهم ويغفون تحت الشّمس من جديد. كانت هناك قنوات صغيرة بين الخيم، قنوات صرف صحّيّ ترابيّة تفوح منها الرّوائح القذرة، يحوم فوقها الذّباب والحشرات. وأقيمت على عجل محالّ على جانبي الطّريق، مثل سوق مصغرة، محالّ لبيع الطّعام، تصليح أحذية، تعبئة غاز، مصابيح كاز. المحالّ مجرّد خيم حولها بعض الأحجار. المخيّم بلا كهرباء ليلًا. هناك مولّد كهربائيّ ضخم للمخيّم لكنّه لا يكفي، وخزّان ماء كبير. لا توجد أيّة خدمات. الخيم تتوزّع تحت الشّمس، نظيفة من

الدّاخل، وبعض اللّاجئين زرعوا حولها النباتات. أشجار الزّيتون التي نصبت الخيام بينها كانت تشكّل حماية.

تجوّلنا في المخيّم. فقر أسود. أشلاء بشر ومزق ثياب. كان هناك كثرٌ من الأطفال الّذي يلعبون حفاة تحت قيظ الشّمس. والنّسوة جميعهنّ محجبّات، بعضهنّ يضعن الخمار. التقيت واحدة منهنّ لدقائق، لم يسمح لي زوجها بالحديث معها، سألتها عن حقيقة تزويج الفتيات الصّغيرات برجال كبار في السّنّ، قالت أنّ هذا يحدث دائمًا. طلبت منها التّحدّث إلى إحدى الفتيات التي تمّ تزويجها، ثمّ تطليقها بعد شهر، ثم تزويجها بعد ذلك، وبقيت ثلاثة أشهر مع رجل أردنيّ يكبرها بأربعين سنة. كنت مصرّة على اللّقاء بالفتاة التي أعطتني اسمها إحدى النّاشطات، لكنّ زوج المرأة طردني من أمام خيمته.

تابعنا المسير، وكان علينا انتظار الشّباب الّذين سيرافقوننا إلى «سراقب»، لكنّهم تأخّروا، لأنّ البلدة تُقصف بشكل عنيف، ولم يخرجوا حتى هدأ القصف الّذي أودى بحياة أربعة من أهل البلدة. جاءت المروحيّة وألقت أربعة براميل من جهات مختلفة. كنت أستمع إليهم ونحن نجلس تحت شجرة زيتون ضخمة. صورة الشّاب العشرينيّ المبتور السّاق واليد، والّذي يقفز كأرنب، ما زالت تسيطر على عقلي. كنت قد راقبته وهو ينظر إلى الفتيات، نظرة مكسورة. رجولته المهدورة، كسرتني أيضًا. انتشلني صوت عبد الله الشّجاع بصراخه، وهو يضحك بعد أن أخبروه بالقصف الحاصل الآن: «والله شيء غريب، كل البيوت حولنا قُصفت، ولم نُقصف». ضحكنا، وأشعلنا السّجائر. أضاف: «طيّارة المبغ تحتاج إلى سيجارة، حتّى ننتظر الموت معها. البراميل ماذا تحتاج... ههههههه... كنّا ندفن أصدقاءنا كأنهم أشخاص لا نعرفهم. تختلط علينا ملامح وجوههم. البعض منهم ينجو

من قصف الميغ، وبعد يومين يموت بقذيفة، يجب اختيار الميتة الأفضل».

تختفي ضحكته وتتشنّج عضلات وجهه، ويردف: «مرّة قصفتنا الميغ في منطقة الصّناعة، قُتل ثلاثون شخصًا. كنت معهم ولم أُقتل. في كلّ مرّة كنت أنجو. سنرى آخر الانتظار هذا». وأطلق ضحكة عالية. وراءنا حيث نجلس، مقرّ عسكريّ لتنظيم «داعش». هذه المرّة كان وجود هذا التّنظيم واضحًا. لقد بدأ يظهر في الشّمال منذ أشهر. عندما انطلقنا إلى «سراقب»، كان الحاجز الوحيد الّذي أوقفنا هو حاجز «داعش»، كان عناصره قاتمي البشرة، من موريتانيا والعراق. خمسة مقاتلين يرتدون ثيابًا وعمامات سودًا. تفحّصونا، وعندما قال لهم الشّباب إلى أيّ فصيل مقاتل يتبعون، سمحوا لهم بالمرور، لكن على مضض. كيف يمكن هؤلاء الغرباء أن يحتلّوا أرضنا؟ كنت أشعر بغضب عارم ودائم وهم يوقفوننا على الطّريق ونضطرّ للتّعريف بأنفسنا وهم في بلادنا!

مررنا بمخيّم «قاح»، بين «أطمة» و«عقربات». الحدود كلّها مخيّمات للّاجئين. وتكثر الدّوابّ التي يستخدمونها في عمليّات التّهريب، وعلى معبر «باب الهوى» كانت تقيم كتائب «أحرار الشّام» و«الأركان». ويظهر بعدها مخيّم «باب الهوى»، الأطفال المنتشرون تحت قيظ الشّمس هم أكثر ما يلفت الانتباه، بخاصّة في سوق «باب الهوى». كأنّ الأطفال من يقوم بكلّ شيء في السّوق. كتائب «الفاروق» هي المسيطرة.

في «معرّة مصرين»، وعلى امتداد نصف كيلومتر، تنتشر المحالّ، ومساحات هائلة من القمامة المتراكمة. سيّارات عسكريّة، سيّارات «جيب»، سيّارات «لاند روفر» ضخمة. السّيّارات بلا أرقام. كانت

الثورة قد خلقت سوقًا للاستثمار والرّبح لدى كثيرين، وقد عملوا فيها، وربّما كان من مصلحتهم إبقاء هذه الحرب على حالها.

براميل و«بيدونات» الكاز والمازوت تتوزّع على الطّرقات، مثلما يحدث في مخيّم «أطمة». الفرق أنّها هنا كبيرة وضخمة، والّذين يقومون بالبيع هم الأطفال. أوقفنا حاجز «داعش» مرّة أخرى، وطلب الشّباب التزام الحذر، فنحن في شهر رمضان، ويجب ألّا تكون هناك رائحة للسّيجارة، لأنّهم إن أمسكوا بنا مفطرين، فلا نعرف ما سيفعلون بنا، ربّما نتعرَّض للجلد، أو القتل. كان الشّباب يقولون لمقاتلي «داعش» أنّني أخت أحدهم، وأنّني معه من أجل تمريضه، وكنت لا أنظر إليهم، لكنّ غضبًا ينحبس في صدري في كلّ مرّة يوقفوننا، يجعلني أغرق في نوبة سعال، بعد كلّ حاجز لهم.

ونحن على عتبات الوصول إلى «سراقب»، توقّفت سيّارة إسعاف إلى جانبنا، كان فيها جرحى القصف وحالتهم خطرة، قال لنا الشّباب في السّيّارة أنّ «سراقب» تتعرّض للقصف، وعلينا ألّا ندخلها الآن، ثمّ زمجرت سيّارتهم مسرعة.

إلى اليمين، يمتدّ حقل عبّاد شمس، يمتدّ على مدّ النّظر، وكلّ قرص أصفر ينوء بحمله. الشّمس تنحدر أيضًا وسحابة غبار أمامنا وأصوات سيّارة الإسعاف وصراخ الجرحى. وبرز فجأة صوت جرّار آليّ، من وسط حقل القمح على الطّرف الآخر من الطّريق. الرّجل الّذي يحرث أرضه فوق الجرّار، كان غير مبال بدويّ الانفجارات، وقام بتجميع عيدان القمح، وحرقها على طرف الطّريق. قال أحد الشّباب: «سنذهب إلى مكان القصف، هل تذهبين أم تعودين إلى البيت؟». «أذهب معكم»، قلت. واتّجهنا إلى «سراقب» حيث كان الغبار والنّيران بانتظارنا.

صباح اليوم التالي، خرجت إلى الباحة مباشرة. لم أصغِ إلى ما قالته نورا. إصرارهم على البقاء في الغرف المغلقة، بعيدًا من باحة الدّار المحبّبة إليّ، وجدته مبالغًا فيه، إذ يمكننا ونحن جالسون في الباحة أن نركض مباشرة إلى الدّاخل. تصيح نورا من الغرفة: «إذا بقيت في الباحة بتصييك شظايا القذائف».

طُرِق الباب، ودخلت امرأة نازحة، تقوم نورا وعائلتها بمساعدتها، ثمّ توجّهت إلى الباحة مباشرة. نورا تشعر باضطراب، عندما يدخل أيّ غريب ويراني، ويسأل عنّي، تريد الحفاظ على وجودي بعيدًا من الثّرثرة، حرصًا على سلامتي. ركضت وخرجت مع فنجان قهوتها إلى الباحة، وقفت بيني وبين النّازحة. جهاز اللّاسلكي في يد «أبو إبراهيم» داخل غرفة العجوزين، يقول إنّ الضّربة كانت منذ قليل على قرية «سرمين». كان واضحًا أن الطّائرات لا تقصف المناطق بشكل عشوائيّ، وأنّ هناك خطّة لتدمير الرّيف الشّماليّ بشكل منظّم، ليس بالطّائرات فقط، ولكن بواسطة الكتائب المتطرّفة. قبل ثلاثة أشهر كنت هنا، ولم يكن لها وجود كبير مثل الآن، يبدو أن مجتمعًا بأكمله يتغيّر هنا ويعاد تشكيله من جديد.

أحاول الخروج، لأنّ مواعيدي مع النّساء بخصوص المشاريع الصّغيرة يجب أن تنقضي قبل ذهابي إلى «كفرنبل»، ميسرة يرفض خروجي مع عبّوش وحدنا من دون الشّباب المسلّحين. قال: «المرتزقة أكثر عددًا من الثّوّار، وأنت غنيمة لهم للخطف». ثمّ ارتجّت الأرض والسّماء، وانبعثت سحابة من الغبار في آخر الحيّ. لقد سقطت قذيفة. تسمّرت في مكاني، نورا صرخت بي لأدخل بسرعة، ولحقتها كنائمة مغناطيسيًا. مرّت ثانية واحدة فقط، لم نسمع فيها أيّ صوت للطّائرة، وجهاز اللّاسلكي لم يخبرنا. هذا يعني أن القصف مدفعيّ من الأرض.

أمام الباب، كانت الشّمس ترتفع، والأطفال تركوا ألعابهم بعد أن هدأ القصف، وما زالوا يراقبون السماء، في الحديقة الصّغيرة للمنزل، حيث زرعت نورا غابة صغيرة، كان نبات السّرخس قد امتلأ بالغبار. زجاج النّافذة تناثر فوقه. مسحت الغبار عنه، ثمّ بقليل من الماء، نظّفت النبتة الظليلة، واختفت رائحة الغبار والدّخان. لا بدّ من أنّنا صرنا حجارة حتّى نتابع العيش وسط جنون القتل هذا. جاء «أبو إبراهيم»، قلت: «لم نسمع صوت القذيفة كالعادة؟». قال: «الله الحامي... الله الحامي»، جهاز اللّاسلكي يسمونه، القبضة، هو عبارة عن جهاز له مركز بثّ حوالى ٨٠ كيلومترًا. الأهالي يستخدمونه لتحديد مواقع الطّائرات بالاستعانة بالمقاتلين والكتائب وللاتّصال في ما بينهم. لكنّه لم يكن متوافرًا إلّا لقلّة من النّاس، يقول «أبو إبراهيم» أنّ بإمكاني الخروج لأنّه لا أثر لطائرات في السماء، «أمّا القذائف فعلمها عند ربك». ويشير إلى السماء.

نساء المنزل يستعدنَ نشاطهنّ اليوميّ لتأمين وجبة اليوم، وخلال دقائق تختفي آثار الحديث عن القصف، ويعود الحديث عن أنواع الخضار واللّحوم المتوافرة في الأسواق. وما إذا كان الخبز سيُوزّع، اليوم أم غدًا؟ ومتى يمكن تأمين المازوت من أجل مولّد الكهرباء. وآليّات التّقنين في غسل الثّياب، بسبب ندرة الماء. وكم ستصمد العائلة على هذه النّحو، حيث ستنتهي مواردها مع توقّف المواسم الزّراعيّة؟ والعجوزان اللّتان تحتاجان إلى رعاية دائمة تتكفّل بها عيّوش العظيمة.

محمّد بانتظاري، يقف على مدخل الباب لنذهب إلى منتهى ونلتقي النّساء. كنت متحمّسة لرؤيتهنّ، ومعرفة إلى أين وصلت مشاريعهنّ، وكيف سنقوم بتطويرها. غالبيّة مشاريعنا تعتمد على الاقتصاد المنزليّ نتيجة سطوة التّقاليد والعادات ولأن الحرب مستمرّة،

والفوضى والخطف أيضًا. تلتزم النّسوة بيوتهنّ، بخاصّة أنهنّ أرامل بمعظمهنّ.

في الطّريق إلى بيت منتهى، كانت مجموعات من العائلات تسير باتجاه الأرض الزّراعيّة المحيطة بـ «سراقب»، هربًا من القصف، رغم أن صواريخ عدّة سقطت فيها، لكنّ احتمال الموت هناك أقلّ.

بيت منتهى وسط البلدة، سقطت قربه قذيفتان، وفتّتت إحداهما سطح غرفة النّوم. كان البيت مكتظًّا بالنّساء. حوالى خمس عشرة امرأة، نصفهنّ زوجات شهداء، وطبيبة أسنان، وصيدلانيّة. منتهى لا تكلّ ولا تملّ من الحركة والعمل، أبوها صاحب جمعيّة خيريّة قبل الثورة. لم تتزوّج. صارت تهتمّ بشؤون النّاس وتقدم لهم أنواع المساعدات كافّة، وهي التي كانت تساعدني مع النّساء. وضعنا خطّة مشروع لكلّ امرأة. في الغالب، الأعمال تتعلّق بالصّوف والخياطة والبيع، ومعمل صغير للطّعام والحلويات، سمّيناه «بيت المونة» كانت تعمل فيه سبع نساء مع بناتهنّ ويقمن بإعالة أنفسهنّ. النّساء صغيرات في العمر، لم تتجاوز أيّ منهنّ الثّامنة والعشرين، وكلّ واحدة لديها أربعة أو خمسة أولاد. أزواجهنّ قتلوا في المعارك. إحداهنّ كان لديها سبعة أولاد، وزوجها قتل في القصف، وهو يسعف الجرحى، كان علينا أن نزورها بعد قليل، لكنّ القصف بدأ.

اتّصل محمّد عبر الهاتف الأرضيّ، وقال أنّ بيت منتهى هو منطقة خطر كبير لأنّه وسط البلدة وهو المكان الأكثر استهدافًا، ويجب تأجيل العمل اليوم. لكنّ القصف لن يتوقّف، وهذا يعني أنّنا لن نستطيع العمل. «سوف أنهي ما لديّ وأتصل بك»، أخبرته. محمّد شريك عمل دؤوب، لكنّه في قرارة نفسه، كان غاضبًا أيضًا، وهو ما يجعله في حالة قلق دائم.

إحدى النّساء أخبرتني بأنّ أطفالها لا يتعلّمون، وقد جاؤوا لهم بمجاهد سعوديّ ليقوم بتحفظيهم القرآن، وهي لم تفهم ما يحصل.

جلست مع النّساء واحدة واحدة. في الغالب عرفت منهنّ أنّ مصدر عيشهنّ الأساسيّ كان من «جمعيّة الإحسان» التّابعة لكتائب «أحرار الشّام» التي كانت تقدّم رواتب لزوجات الشّهداء، وكانت تملك مشفًى وفرنًا. بدأت حركة «أحرار الشّام» تفتح مؤسّساتها الاقتصاديّة، غالبيّة أفرادها من أبناء البلدة، ويُقال أنّهم فرضوا الخمار على النّساء، وأرادوا إقامة خلافة إسلاميّة، والإتيان بعلماء الدّين لتعيينهم مستشارين ووزراء لولادة الأمّة الإسلاميّة القادمة. النّساء أجمعن على أنّه لولا هذه الجمعيّة لما استطعن العيش، لذلك كنّ يقمن بكل ما يُطلب منهنّ للحفاظ على الرّاتب، إحداهنّ كان زوجها مقاتلًا في حركة «أحرار الشّام»، وكان يتقاضى مئتي دولار شهريًا.

كان الولاء هنا يقوم من خلال التّبعيّة لرأس المال ولجهات الإغاثة أيضًا، لكنّ حركة «أحرار الشّام» كانت قد استولت على بنك في «الرّقة»، قبل أن تغادرها وتتركها لـ «داعش». حركة «أحرار الشّام» هنا في ريف إدلب قويّة، وتتغلغل في النّسيج الاجتماعيّ. الهيئة الشّرعيّة كانت القوّة القضائيّة التي تتبع ألوية عسكريّة إسلاميّة عدّة، وعندما سألتهنّ عن الجامع هنا، قلن أنّ خطيب الجامع رجل أردنيّ قدم مع أبو قدامة من «جبهة النّصرة». «داعش»، و«جبهة النّصرة» كان انتشارهما على الحدود حينذاك، لاحقًا سيسيطران على «سراقب»، وستندلع الحرب بينهما، وبين «أحرار الشّام» و«الجيش الحرّ» تنتهي بخروجها من «سراقب» وسيطرة «أحرار الشّام» لبعض الوقت.

كان الفطور سخيًا وكريمًا، واستطعنا إنجاز العمل مع النّساء خلال بضع ساعات، ويجب أن أذهب الآن لأستريح قبل متابعة

زيارات بيوت النّساء لمعاينة المشاريع. أصوات القذائف ليست بعيدة، ومحمّد، ملاكي الحارس، ينتظرني.

أمام بيت منتهى مخزن صغير. وطفل وجهه مشوّه. إلى جانبه اصطفّ عشرات الأطفال، بعيون مفتوحة يراقبون الغريبة، التي هي أنا. أمّا المخزن الّذي تقف وسطه سيّدة شبه عمياء، فكان فارغًا إلّا من بعض أصابع الشّوكولا الرديء الصّنع ورقائق البطاطا وبعض البالونات، إلى اليسار طفلة تجلس على كرسيّ. عندما خفضت عينيّ وقع نظري على وجهها. طفلة في حوالى السّابعة، مبتورة الرّجلين واليدين! كأنّ هذه الأرض مجبولة من العظام واللّحم البشريّ. وقفت لوهلة، أنظر إليها ببلاهة. كانت مجرّد لحظات، ارتجّ رأسي، واعتقدت أنّني سأسقط، لكنّ الارتجاج كان في السماء. وركض الأطفال إلى الدّاخل، وصرخ محمّد بي لأدخل السيّارة.

الفجوة في رأسي تكبر، يتصاعد منها نمل يدبّ حتى أسفل عمودي الفقريّ. النّاس هنا يعيشون مع الموت. ليست مجازًا، هذه العبارة! لا يفكّرون في أمور عظيمة، وليس لديهم فضول لقراءة الواقع العسكريّ أو المشهد السّياسيّ. لا مجال عندهم للتّفكير. يصارعون للبقاء فقط! يهتمّون بتفاصيل من نوع آخر، «هل توافر الطّحين لصنع الخبز؟ هل تتوافر القهوة؟ أم سنستعيض عنها بالشّاي فقط؟ وهل يتوافر الشّاي حتى؟ والسّكّر؟ هل الماء متوافر بما يكفي لغسل الوجه صباحًا؟ هل وجبة واحدة تكفي لتقسيمها على بطون عدّة؟ هل سيصلون إلى نهاية أعمارهم؟

كنّا في شهر رمضان، وسيتناولون إفطارهم، قبل أن يُقطع رأس أحد من العائلة، أو يضطرّ الأب للمّ أشلاء أطفاله بعد القذائف والبراميل. الأهمّ من هذا كلّه، أنّه وبعد سنتين ونصف من العلاقة

اليوميّة مع القصف، صارت لهم عادات جديدة مع السماء، يراقبونها باستمرار، لا يخرج الواحد منهم من دون أن ينظر إلى السماء، أو يعتلي سطح بيته ويبحث في عينيه عن الموت القادم من الأزرق.

لا أعرف لماذا أبحث عن معنًى في كلّ هذا التكرار. بدأت أتلمّس اللّامعنى في بحر الدّم هذا! هل أغرق فيه لأتخلّص من معناه؟ هل أهرب إلى اللّامعنى عبر الولوج في المعنى؟ هل أكرّر حضوري هنا للوصول إلى الموت عبر حربي مع الموت؟

وصلنا إلى البيت. نورا بانتظارنا. قبّلتني بلهفة: «الحمد لله على سلامتك». «أبو إبراهيم» يجلس قرب جهاز اللّاسلكي. يقول: «الطائرة رحلت من هون. راحت باتجاه تفتناز». تنفّسنا بعمق، وأسئلة اللّامعنى والهراء عالقة في حلقي. غادرنا محمّد لمعاينة مكان القذيفة «هناك من سيموت عوضًا عنا» قلتُ. وتدفّق أفراد العائلة الكبيرة، وتحلّقوا حول الجدّتين، لتدبير يوميّات النّهار. من سيطبخ؟ من سيذهب إلى الأرض الزّراعيّة المحروقة؟ وأنا ونورا نعيد ترتيب بعض الأثواب التي خاطتها. كانت تجيد الخياطة وعرضت عليها أن تقوم بتعليم الفتيات الخياطة لإنشاء مصنع صغير لهنّ. لكنّ صوتًا زعق من جهاز اللّاسلكي مرّة ثانية، ووقفنا: «يا أهل سراقب، يا ثوّار سراقب، هيلوكبتر محمّلة بالبراميل تتّجه إلى سراقب وتفتناز. ششششششش... ششش». نتجمّد، البراميل تعني الوقوف كالحجر. البراميل هي عبارة عن خزانات مياه أو حاويات زبالة أو براميل مازوت عاديّة، محشوّة بالدّيناميت والمتفجّرات وقضبان الحديد. لا يترك البرميل سوى فرصة ضعيفة ليخرج أحد حيًّا من تحت الأنقاض. لذلك وقفنا وتجمّدنا. نورا تصرخ، وأنا وضعت يدي على جبهتي، واستمرّ زعيق اللّاسلكي. شرائح البطاطا تنضج في الفرن، فركضت وأطفأت الغاز. لن نموت حرقًا أيضًا! العجوزان

تنظران إلينا برعب، يقول صوت المقاتل من اللّاسلكي: «عم شوف الطّيّارة. عم تطّير فوق ارتفاع ٦ كم، ما رح نقدر ننزلها»، ونسمع أصوات المدفع الرّشاش الّذي يحاول صدّ هجومها عن «سراقب»، الصّرخات تتعالى من اللّاسلكي، التّمييز بين صوت طائرة «الميغ» وصوت طائرة المروحيّة الآن صعب إلّا بعد سقوط القذيفة. صوت انفجار قويّ. يقول اللاسلكي: «الله أكبر. انفجر البرميل في السماء. الله أكبر. الله أكبر».

الموت الّذي ذهب يستحقّ الاحتفاء قليلًا. نعاود الحركة. الرّجال يخرجون إلى الشّارع. والنّساء يعاودن إعداد الطّعام، وأنا ألحق بعيّوش إلى باحة المنزل لنعاين السماء.

هذا يوم لن أنساه ما عشت! العشرون من تموز سنة ٢٠١٣.

كيف أنسى ولوج اللّامعنى ووضوح الهزيمة على أبواب العدم!

كنّا في المكتب الإعلاميّ المكوّن من قسمين، قسم للموادّ والمعدّات الكهربائيّة وتوليدها، وقسم أجهزة «الإنترنت» والإرسال، وهو القسم الّذي بقيت فيه، لأنّ المقاتلين لا يدخلونه. القسم الثّاني يتحوّل إلى مضافة واستقبال الصّحافيّين والإعلاميّين ويؤدّي خدماته التّقنيّة لكلّ من يطلب استخدام «النّت». كان النّاشطون قد انشأوا في بلدات وقرًى عدّة مراكز إعلاميّة ينقلون خلالها للعالم الخارجيّ ما يحدث على أرض الواقع.

كنت أرسل بعض «الإيميلات»، وأدوّن بعض الملاحظات الخاصّة بالخطّة التي سأعتمدها لمشاريع النّساء. أمامي أوراق عدّة تشرح تفاصيل حالة كلّ امرأة ووضعها. كلّ شيء بدا صعبًا في لحظة. أظنّ أنّني فقدت قوّتي، وأنا أحاول الخروج من الغرفة إلى الحمّام لغسل

وجهي. كنت أشعر بأنّني مجرّد حالمة. قصف طيران الأسد لا يتوقّف. يجعلنا نركض دائمًا، مثل حيوانات بريّة، ومؤخرًا ظهرت المصيبة في المجموعات الجهاديّة التي صارت تتدخّل في الحياة الشخصيّة للنّاس وتفرض سلوكًا جديدًا.

في القسم الثّاني من المكتب، الرجال يتحرّكون، ووجود امرأة بينهم يبدو غريبًا. قلت: سأنتظر الذّهاب إلى بيت المرأة الأولى. مثل خليّة نحل كانوا يتحرّكون بين الغرف، غالبيّتهم شباب لم يتجاوزوا الثلاثين. أحدهم يقوم بالإشراف على مجلّة تطبع للأطفال، «زيتون وزيتونة»، وآخر يقوم بالتّصوير. من أجل الصّفحة الخاصّة بتنسيقيّة «سراقب» على شبكة «النّت»، وآخر يقوم بتنزيل شرائط الفيديو المصوّرة على الشّبكة، لإرسالها إلى وسائل الإعلام. يدخل بعض المقاتلين، أحيانًا، من كتيبة شهداء «سراقب» التي يبعد مقرّها حوالى المئتي متر من المكتب. نحن الآن في شهر رمضان، هذا يعني أنّنا لن نتناول الطّعام حتّى أذان المغرب بالتّوقيت المحلّيّ لـ «سراقب».

دوّى صوت انفجار قويّ، تلته أصوات انفجارات عدّة، وسقط زجاج النّوافذ. خرج الجميع. كانت قنبلة عنقوديّة، وسقطت على حائط المكتب في الغرفة المجاورة لي. الشّبّاك صار مجرّد فتحة في الحائط، واشتعلت السماء والأرض. صرخ الشّباب بأن نخرج، لكنّ شابًّا قال أنّ طائرة لا تزال تحلّق، وأنّنا قُصفنا بالقنابل العنقوديّة، والبراميل المتفجّرة. لم أستوعب بداية ما حصل. لا نستطيع النّزول إلى الملجإ. القنابل العنقوديّة، تترك كرات صغيرة على الأرض، تنفجر بدورها. «مارتن سودر» الصّحافيّ البولنديّ، معنا، وصحافي إنكليزي نسيت اسمه، واثنان من الصّحافيّين السّوريّين. مارتن نزل فورًا إلى الشّارع، وبدأ يصور السماء. لملمت الأوراق في الحقيبة، وصرخت: «سأذهب معكم».

ركبنا السيّارة. تحاشينا المرور في بعض الأزقّة حتّى لا تنفجر بنا كرات القنابل العنقوديّة.

الصاروخ الّذي سقط تحت المكتب، أحرق الأرض وما حولها. البيوت التي دُمّرت بالبراميل الثّلاثة التي سقطت تباعًا، سُوّيت بالأرض، الشّباب ينتشلون الجرحى. لم يبقَ أيّ أثر. مجرّد أحجار، والجثث المنتشلة، لونها كلون الحجارة والتّراب. كلّه يستوي بلون واحد. كنت أصوّر، عندما صرخ شابّ: «اذهبوا إلى المشفى هناك حاجة إليكم». انطلقنا، وسقطت قنبلة عنقوديّة في الشّارع المقابل، واشتعل الحريق. كنّا نحاول الاستدارة بعيدًا من مكان القصف، لكنّ اللّاسلكي بيد محمّد قال أنّ المشفى تعرّض لقصف بالقنابل العنقوديّة، وهناك صاروخ سقط في البيت المجاور. انطلقنا بسرعة إلى المشفى، الشّوارع خالية إلّا من بعض المضطرّين للتّنقّل، وهناك بعض المجموعات من أفراد العائلات الّذين يركضون للخروج من «سراقب» وأصوات الطّيران لا تزال في السماء. قلت للشّباب: «أشعر بأنّنا مثل فئران في مصيدة وبشّار الأسد يتسلّى بقتلنا». صمت الشّباب، لكنّ هذا فعلًا أدقّ توصيف خطر لي، وطائرات نظامه وصواريخه تقوم بمهاجمة هذه البلدة! المشفى على طرف البلدة، وقريب من الأوتوستراد، ما يجعله يتعرّض لقصف دائم.

في المشفى، وجدنا مجموعة من الرّجال. كانت وجوههم مغبّرة، وأحدهم يجلس متهالكًا وكرسيّه مليء بالدّماء. أناس يدخلون ويخرجون، يصطدم بعضهم بالآخر. حالة من الذّهول والخوف. خرج الطّبيب صديق الشّباب، وأدخلنا إلى غرفة مجاورة. كان غاضبًا، في الثّلاثين من عمره ومن «سراقب». قال: «هرب الأطبّاء، النّاس تصرخ في الخارج، ماذا أفعل؟ لا توجد أدوية كفاية. والنّاس تموت

والأهالي غاضبون. ما الّذي سأفعله؟». طرق الباب رجل وصرخ ليأتي الطّبيب. كان هناك شاب جريح. أدخلوه إحدى الغرف. هناك نقص في الدّواء والمعدّات، والكهرباء والماء، وكلّ شيء. يصرخ شاب. أدخل إلى إحدى الغرف الجانبيّة، فيها سريران، وُضعت عليهما جثّتان لامرأتين. أقتربُ منهما. قال ممرّض: «قُتلتا اليوم بتفجير البراميل». سألته: «هل يمكنني أن أراهما؟»، أجاب مستغربًا: «طبعًا»، اقتربت، ورفعت الغطاء عن وجه الأولى. كانت سيّدة في الأربعين تقريبًا، تبدو كأنّها نائمة لولا الدّماء التي لطّخت وجهها. أعدت الغطاء، ثمّ نظرت من النّافذة، وجلست على طرف السّرير الثّاني. كانت إلى جانبي جثّة امرأة أخرى، أصوات الطّائرات تملأ السماء، صرخ بي شابّ: «ماذا تفعلين هنا؟»، انتبهت إلى أنّني أجلس بين جثّتين، وإحداهما ألتصق بها. قمت بهدوء. أنا لست أنا. ثباتي هو فقط لأنّني أعيش في فقّاعة فراغي!

لحقت بهم إلى غرف الموتى الآخرين والجرحى. كان الطّبيب لا يزال يردّد: «ماذا أقدّم للنّاس؟! لا يوجد شيء لأقدّمه لهم! هم متروكون للموت. يا ألله... يا الله!».

كان أمام باب المشفى رجل يحمل جثّة ابنه وهو يقول: «الحمد لله الحمد لله... يا الله... ياااااالله...» الشّاحنة البيضاء أمام الباب الخارجيّ للمشفى. اقتربت منها، بينما البيت المجاور يحترق. بشر يتدافعون أمام المشفى وصراخ وهياج. في صندوق الشّاحنة ثلاث جثث، أمّ وطفلاها. الجثث ملفوفة بأغطية سرير مثقوبة ومهترئة. الفقراء هم من يموتون أوّلًا! قدما المرأة واضحتان. ينحسر عنهما الشّرشف. أرجل متشقّقة أيضًا. شعر الولد العسليّ يظهر مع بقع كبيرة من الدّماء، والطّفلة الصّغيرة تبدو في أعوامها الأولى. هؤلاء سقط

عليهم برميل، رغم أنّ بيتهم ليس في وسط المدينة، والبرميل انفجر في السماء قبل سقوطه. قتلتهم الشّظايا المتطايرة منه. كان طرف الشّاحنة الصّغيرة، ممتلئًا بالدّماء. الرّجل الجالس إلى جانب الرّصيف ينظر إلى باب المشفى. يحدّق في الفراغ. دائمًا يتكرّر المشهد. رجال جالسون إلى جانب الدّمار أو إلى جانب جثث عائلاتهم. ينظرون في فراغ. اقتربت من الشّاحنة أكثر: «الله يرحمهم». نظر إليّ وقال: «الله يسلمك». وعاد إلى صمته. ابتعدت عن الشّاحنة، ثمّ حمل الشّباب الجثث الثّلاث إلى المشفى. حينذاك، بانت ضفيرة الصّغيرة وبان وجهها. ربّما لم تتجاوز الرّابعة. تنتعل حذاءً بلاستيكيًّا، ولا أثر للأصابع في إحدى القدمين. مجرّد شرايين ظاهرة ودماء غزيرة. لحقتُ بالشّباب ورفعت الغطاء وأدخلت القدم المبتورة فيه. أصابعي تضرّجت بالدماء.

«سقط البرميل السّادس...» يقول شاب، ونحن ننظر إلى كتلة الغبار المقابلة. الطّائرة نفسها تلقي بالبرميل السّابع فوق وسط البلدة، ثمّ تحوم وتلقي برميلًا آخر. الرّؤية تختفي.

«هنا الجحيم»، أصرخ، وأدور حول نفسي! لا أرى سوى الغبار. طنين حادّ يمزّق أذنيّ. يقول محمّد غاضبًا: «سنعود بك إلى البيت، هنا خطر عليك». «لكنّ البيت معرّض للقصف!»، أجيب بعد التّوقّف عن الدّوران حول نفسي.

نذهب جميعًا في السيّارة. «الله يرحم أيّام طيران الميغ، وأيّام قصف الكيماوي. كان قصفنا بالكيماوي أرحم من البراميل التي تدمّر كلّ شيء. لا مجال للنجاة معها». يقول الطّبيب. المقاتل الّذي جلس صامتًا طوال الوقت، وانحشر في المقعد الخلفيّ مع الشّباب، يتابع: «بدهم يفتحوا معبر من هون للوصول إلى معمل القرميد. القصف

مستمرّ وعنيف لمدّة أسبوع، لازم تطلعي من هون يا مدام!». لم أردّ بحرف، ولم أناقشهم. وعندما توقّفت السيّارة أمام بيت «أبو ابراهيم»، كان غضبي عارمًا. قلت لهم: «متى ستعودون؟»، قالوا: «خلينا نشوف شو بدنا نعمل منشان الجرحى. وجودك يربكنا. ابقي هنا. سنتواصل معك على لاسلكي أبو إبراهيم».

كان يتّضح لي يومًا بعد يوم أنّه من المستحيل التّفكير بالعيش هنا كما حلمت وقرّرت. لم أتعلّم الفرنسيّة، لأنّني كنت قرّرت العودة والاستقرار في الشّمال. كانت باريس حتّى تلك الأيّام مجرّد محطّة عبور.

بقيت مع نورا وعيّوش والعجائز. كانوا لا يزالون في مكانهم، ونورا في حالة هلع. وبقوا جالسين. النّزول إلى الملجإ لا يعني شيئًا. العجوزان صامتتان كالعادة، ونورا واقفة تبتهل إلى الله، وأنا وعيّوش ننظر كلّ منّا إلى وجه الآخرى. دخلت إلى المطبخ وأعددت فنجانًا من القهوة، ثمّ دخل ميسرة وصرخ بنا: «هيا... هيا... سنخرج من سراقب!».

جعلونا نغادر مع النّساء خارج «سراقب» إلى جامع أقامه «أبو إبراهيم» في «المشرفيّة». كنت غاضبة لأنّني لم أبقَ معهم. المشاهد تتكرّر، وفي كلّ مرّة يبدو كأنّها تحدث للمرّة الأولى، المواجهة مع الموت، ومع العجز أيضًا، إذ إنّ المقاومة هنا تتجلّى بالوقوف والتّفرّج على الموت، ومن ثمّ متابعة أخباره. ماذا سيفعل المدنيّون العزّل تحت قصف المدفعيّات والصّواريخ وانفجار البراميل. لا يملكون أيّة وسيلة للدفاع عن النّفس. سلاح المقاتلين ضعيف، والّذين يموتون في غالبيّتهم من المدنيّين.

في طريق نزوحنا الموقّت، كانت جموع من العائلات لا تزال تخرج من «سراقب». نسمع باللّاسلكي أنّ أحد المقاتلين استطاع تفكيك القنبلة العنقوديّة التي سقطت، ولم تنفجر في أحد البيوت، وإلى الجانب الأيمن كانت بيوت عدّة قد سقطت البراميل فوقها.

أمامنا على «الأوتوستراد»، وهي المنطقة التي تتعرّض لقصف شديد، مكتب للسّيّارات مدمّر. يصرخ صوت من اللّاسلكي: «وين الأطبّاء! بدنا أطباء جرّاحين، لدينا الكثير من الحالات الإسعافيّة»، ثمّ صوت آخر يقول: «أهل سراقب أهل سراقب... انتبهوا. طيّارة قادمة... طيّارة قادمة».

من نافذة السيّارة كنت ألمح النّاس يسيرون مسرعين هائمين على وجوههم. رؤوسهم أمامهم وهم في حالة ضياع. ولا يحملون إلّا القليل من المتاع، ثلاث عائلات تنظر إلى السيّارة ونحن نتجاورها، ثمّ يظهر أمامنا مسلّح، يوقفنا. يسألنا عن وجهتنا، ثمّ يسمح لنا بالمرور. يقول «أبو إبراهيم»: «البارحة قام مسلّحون بخطف امرأة للمرّة الأولى، في العادة النساء لا يخطفن، وهي من قرية مجاورة، لكنّهم خطفوها، ووجدوا زوجها مقتولًا على الطريق، سرقوا سيّارته وامرأته! يجب علينا الحذر، هؤلاء مرتزقة ولصوص». في الجهة المقابلة، رافعة تحاول انتشال سطح بناء قتل فيه خمسة أشخاص، ولا يزال البحث جاريًا عن جثة طفلة. اثنان من أهل البيت أمام الدّمار، أحدهما واقف أمام الرّافعة يتابع حركتها، والثّاني يجلس على الرّصيف. توقّفنا قليلًا. كان الرّجل والد الأطفال الثلاثة. هم وأمّهم ماتوا. الرّجل الثّاني كان عمّهم. وفي الجهة الأخرى كان أطفال يقومون بجمع قضبان الحديد النّاتجة من الانفجار، لتجميعها وبيعها. طول قضبان حديد البراميل لم يكن يتجاوز نصف ذراع، وأحيانًا أقلّ. أحد الأطفال يتسلّق كتلة

الدّمار باحثًا عن القضبان، فيصرخ به الرّجال ليعود. عمره حوالى ثلاثة عشر عامًا. ثيابه شبه مهترئة، وعيناه سوداوان. شعره مغبّر، ويبدو أنه دسّ نفسه أكثر من مرّة في الأنقاض، ليجمع أكبر عدد ممكن من قضبان الحديد التي ربّما يستطيع بثمنها شراء الخبز. الرّجل الجالس على الرّصيف، يشعل سيجارته ويراقب الرّافعة، وينفض الغبار عن رموشه. كانت ابنته لا تزال تحت الأنقاض، لكنّ الرّجال قالوا له أنّها ماتت بالتّأكيد، وعليه أن يستعين بالصّبر.

وصلنا إلى الجامع. كان السّكّان من البدو. الجامع فسيح ومقّسم أقسامًا عدّة بأغطية الأسرّة. هنا، سنقيم بعض الوقت. ربّما أيّامًا عدّة. كانت عائلات كثيرة قد نزلت في هذا المكان. وكلّ ما تملكه أثار لأغطية وحصر بلاستيكيّة، أدوات مطبخ بسيطة. أتينا ببعض المشروبات الغازيّة والخبز والجبن والماء. لا توجد كهرباء هنا، ولا يوجد ماء، لكن أيضًا لا يوجد قصف.

لم نكد ننتهي من تنظيف المكان، حتّى جاءت العجوزان محمولتين على أيدي ميسرة وصهيب. كانت هذه فرصتي للعودة إلى «سراقب». ولم أقبل رفضهم. «لم آتِ إلى هنا لأبقى بعيدة عمّا يحصل!

عليكم أن توافقوا»، قلت لهم بإصرار، فوافقوا!

حُملت العجوزان على الأكفّ، بين نزوح ونزوح ما يجعل الرّوح أكثر ثقلًا، والجسد أخفّ. الأبناء الرّجال يضعون العجائز في مأمن، ويذهبون إلى الموت. يتبادلون الأدوار. الأمّ العجوز غاضبة ولا تريد مغادرة بيتها. الخالة العجوز صامتة. الدّموع تحتبس في عينيْ عبّوش. قالت أنّها لا تريد ترك بيتها والنّزوح. تفضّل الموت بكرامة. النّزوح

يجعلنا بلا كرامة. الأفضل أن نموت في بيوتنا. لكنّ الرجال لا يأبهون بالنّساء. يتركونهنّ في الجامع، وأعود معهم إلى المكتب الإعلاميّ.

حين وصلنا، كان النّاس بدأوا يتحرّكون، والسّاعة صارت حوالى الخامسة مساء. وحتى الآن، سقط حوالى سبعة عشر برميلًا متفجرًا فوق «سراقب»، وكلّها على بيوت المدنيّين وعلى السّوق. لم نعرف عدد الصّواريخ والقنابل العنقوديّة، لكنّ الشّباب قالوا ونحن نصعد إلى المكتب، أنّهم سيعرفون لاحقًا. دخلت وحدي، وذهب صهيب وميسرة. كان بانتظاري مارتن سودر والصّحافيّ الإنكليزيّ، واثنان من الصّحافيين الشّباب. أحدهما أصيب، وكُسرت ساقه، فعالجوه. مارتن يعالج بعض الصّور التي التقطها، عقلي مشوّش بما يتدواله الشّباب في الغرفة المجاورة. كانوا يذكرون أسماء العائلات التي راحت ضحايا قصف اليوم. هناك من قُطعت يده، وهناك من بُترت ساقه، وطفلة انتشلوها أشلاء من تحت الأنقاض.

الثورة على الأرض واقع مختلف. الكتابة عنها مختلفة أيضًا. هذا الواقع لا يحتاج إلى تنظير وترتيب، ولا حتّى إلى معرفة نهاية كلّ يوم. يحتاج فقط إلى هدوء الأعصاب وتدبير الأمور ساعة بعد ساعة، كأن تعرف المخارج الأسلم البعيدة من القصف، وهذا مستحيل، وتتأكّد من وجود أطبّاء ومسعفين، وما إذا كان هناك نشطاء في أماكن القصف لتوثيق ضحايا طيران الأسد وصواريخه. أن تراقب «الإنترنت» على أمل ألّا تنقطع، وتصير هذه البقعة الصّغيرة التي تتعرّض للتّدمير والإبادة خارج حدود العالم. أشياء بسيطة يجب الإلمام بها، والأهمّ من هذا كلّه، التماسك. التّماسك أمام الأعضاء البشريّة الممزّقة والدّمار الهائل للبيوت، كي لا يغيب عن عقلك للحظة أن انهيارك هو مشكلة لمن حولك. هكذا ببساطة. يجب أن تقترب من أصابع صغيرة وتلملمها من

تحت الأنقاض. تنتشل جثّة طفلة أخرى لا تزال حرارة بولها في ثيابها، ثمّ تمشي، وتتابع البحث عن الضحايا. هكذا أيضًا يجب ألّا تنسى وجوه الضّحايا لتكتب عنهم، ولتحكي الحكاية وتسرد للعالم الخارجيّ كيف كانت العيون بيضاء تمامًا تحت السماء التي تمطرنا بالبراميل وهدايا الموت المجّانيّة. لا يهمّ أيضًا ما إذا كنت قادرًا على تحليل ما يجري، ولماذا يتمّ قصف بيوت المدنيّين حتّى تفقد الثورة حاضنتها الشّعبيّة وتذهب كلّ المشاريع المدنيّة التي عاد من أجلها ناشطون وناشطات في المناطق المحرّرة من سيطرة النّظام. أو تأمين خطّ إمداد عسكريّ، ما يدفع النّظام إلى تدمير المنطقة! كلّ هذا لا يهمّ! المهمّ الآن أن تستطيع الوقوف على رجليك بينما السماء تمطرنا بالبراميل والقنابل العنقوديّة، وتقف ثابتًا كمسمار!

كنت أفكّر في كلّ هذا عندما اشتعلت السماء من جديد.

ثلاثة براميل سقطت بصورة متتالية، إضافة إلى قنابل عنقوديّة. هبطنا درج المكتب بسرعة كبيرة. مارتن والصّحافيّ الإنكليزيّ حملا الشّاب ذا السّاق المكسورة، وهبطا به. وقفنا أمام باب المكتب. كان جمع من الشّباب قد ظهر أمامنا. لم نعرف أين سنذهب لأنّ الطّائرة لا تزال في السماء. اللّيل حلّ، ويبدو أن قنبلة عنقوديّة سقطت بالقرب منّا. دعانا الرّجال إلى الذّهاب معهم، لكنّني رفضت. قلت لمارتن أنّني لا أعرفهم، ومن الأفضل أن نعود، لأنّ الشّباب حذّروني من حالات الخطف. خروجنا لن يفيد بشيء، يجب أن ننزل إلى الملجإ. اعترض الرّجال الغرباء، قالوا أنّ الملاجئ لا تحمي من البراميل. مارتن قال أنّه سيخرج للتّصوير، وعلى الشّباب الآخرين حمل المصاب والصعود به. قلت سأصعد وأنتظر. نظر مارتن إليّ بدهشة. وصعدنا الدّرج، هو أكمل نحو الطبقة الثّانية وصعد إلى السّطح. كانت فكرة

جنونيّة أن يقوم بتصوير الطّائرة الآن ومِن على السّطح. كثرٌ من النّاس قُتلوا بشظايا القذائف النّاجمة عن الانفجار. لحقت بمارتن، وصرنا معًا على السّطح. كانت المرّة الأولى وهي غريبة ومخيفة، ثمّ اعتدت لاحقًا مراقبة الطّائرات وهي تلقي البراميل. كنت أتخيّل وجه الطّيّار الّذي يلقي البراميل. أحاول رسم شكل إنسانيّ له!

السماء حمراء تقريبًا. الوقت ليس ليلًا تمامًا. البيوت ترتسم كظلال، والأضواء تلمع من بعيد وقريب بفعل القذائف. هناك وسط خطّ الشّفق الأحمر، كانت الطّائرة تحوم. البيوت هادئة وساكنة، ولا حركة في الشّوارع. لوهلة يبدو المكان مثل لوحة، لولا الأمكنة الّتي يتجمّع فيها النّاس لمعاينة آثار انفجار البراميل الثّلاثة الأخيرة. الطّائرة تقترب، قلت لمارتن: «لننزل فورًا». ركضنا، وصارت أصابعي في الظّلمة تبحث عمّا يعينها على الاتّكاء، أمسكني مارتن، وجرّني على الدّرج. فقدت توازني. دويّ الانفجار جعلنا نسقط أمام الباب. تبعه انفجار ثانٍ، ثمّ ثالث.

في لحظات الموت، يصير الجسد ملايين من مجسّات حسّاسة تتوق للمسة ما. في الموت، تصير مهمّة الجسد الالتحام بما يثبت له أنّه موجود. فعل غريزيّ يتراوح بين الجنون، وبين غريزة حيوانيّة تتحرّك بعدوانيّة ضدّ الفناء. كانت أصابعي تهشّ الهواء وتبحث عن كائن حيّ. عيناي أصيبتا بعمى موقّت. ألمح خيالات فقط. مارتن والصّحافي الإنكليزيّ كانا بمواجهتي. اشتبكنا معًا. لا أعرف كيف تجمّعنا حول بعضنا في لحظة دويّ الانفجار الكبير، ثمّ تفرّقنا في لحظة الصّمت التّالية. ركضنا كأنّ شيئًا لم يكن. لا أحد يريد أن يموت. ولا معنى للشّجاعة الآن، نحن مجرّد بشر مذعورين يتزاحمون في الفراغ عن قبضة التّلاشي.

ركضنا في الشّارع وركضنا حتّى توقّف القصف. كانت سيّارة محمّد قد وصلت، وهو يتنقّل بين أمكنة القصف لإسعاف الجرحى والتوثيق، ركبنا معه وخرجنا من دائرة القصف. يقول أحد الشّباب: «سآخذ الطّعام للعائلات في الفرن الّذي يقع أوّل البلدة».

في الشّوارع، النّاس يخرجون ليعاينوا الدّمار، وكنت أرى للمرّة الأولى هذا العدد من مقاتلي «داعش». كان المقاتلون موجودين حول أماكن القصف وبين النّاس، يحملون أسلحتهم ويشهرونها. وجودهم غير منسجم مع الحياة هنا. يبدون غرباء. ملامحهم سمراء داكنة، تميل إلى الزّرقة، وهي ليست كسمرة السّوريّين. الرّجال الثّلاثة الّذين وقفوا أمام السّيارة كانوا من موريتانيا، والاثنان الآخران، أحدهما يمنيّ، والآخر سعوديّ. وكان مصريّ يقف إلى جانب الفتيان. في العموم، هم غير محبوبين من السوريّين، وحتّى هذا اليوم، كانوا خارج النّسيج الاجتماعيّ المحليّ، على الأقلّ في ريف «إدلب». أمّا عناصر حركة «أحرار الشّام»، فكانوا من ضمن النّسيج الاجتماعيّ للنّاس، لأنّهم معظمهم كانوا من السّوريّين، ومن أبناء القرى والبلدات، وكانوا جزءًا من المجتمع، لديهم جمعيّاتهم الخيريّة، ومشافيهم، ومدارسهم، ليسوا مجرّد كتائب عسكريّة، بل حركة دينيّة دعويّة أيضًا.

أصوات المدافع المضادّة للطائرات تُسمع من جهات عدّة في «سراقب»، ما يعني أنّهم يلمحون طائرة في السماء، تلاها دويّ انفجارات قريبة. أسرعنا بالسّيارة، ولمحنا بضعة رجال يركضون. في الجانب الأيمن من النّافذة، حريق وغبار. لكنّ السّيارة لم تتوقّف. كنّا صامتين. ونريد أن نصل والطّعام معنا. الظّلام شديد. صرنا على أطراف البلدة. توقّفنا أمام الفرن الّذي هو عبارة عن ساحة كبيرة واسعة، لها سقف إسمنتي. وحولها الشّباب والرّجال، هم مجموعة من المقاتلين

والنّشطاء. القصف يستمر. لكنّنا جلسنا. ووضعنا الطّعام على الأرض.

المقاتلون كانوا من «جبهة ثوّار سراقب»، ومعهم رجل كبير في السّنّ مع عائلته، وإلى جانبهم مجموعة عائلات. انضمّ إليهم آخرون بعد ذلك. المدفع الرّشّاش أمامي مباشرة. وشعرت بالخجل وأنا أمدّ يدي بين أيديهم لتناول الطّعام. هل يمكن التّفكير في هؤلاء الشّباب الآن بمعزل عن الحالة التي جعلتهم مشاريع موتى. أصابعهم تغمس الزّيت، ووجوههم مرهقة، والجوع واضح على ملامحهم، التّعب، الإرهاق، الزّمن المخصّص لنا من السّلام لنزدرد الزّاد. لكنّ ذلك الصّوت، ذلك الصّوت لا يزال في أذني، صوت القذيفة، والارتجاف.

لم آكل كثيرًا. كنت أدخّن. لا أتوقّف عن التّدخين كالعادة، ومنذ سنوات وأنا أقول: سيأتي يوم أقلع فيه عن حرق رئتيّ، لكنّني لم أجد معنًى لكلّ هذا في ما مضى من حياتي. الآن تحديدًا، أنظر إلى سجارتي وأفكّر في أنّها أشهى ما يمكن الحصول عليه في الحياة مع كوب من الشّاي السّاخن، وتحت القصف في بناء غريب مثل هذا، بالقرب من مدفع رشّاش ومقاتلين يضحكون على الموت، وليس منه! كنت قلقة على نورا وعبّوش والعجوزين، رغم أنهنّ بأمان في الجامع حيث مكان النّزوح.

أحمد أنقذني من شرودي: «شو يا مدام خايفة من المدفع». رمقه محمّد باستنكار. وقلت: «شفت شو خايفة عم أرجف»، وضحكنا.

أحمد مقاتل من بلدة «سراقب»، عمره تسعة وعشرون عامًا. على يده وشم لوردة دمشق. درس في معهد تجاريّ وخدم في الجيش الإلزامي. يضحك، فتبرز أسنانه وينتفخ خدّاه. يرفع يديه إلى السّماء

ويحدثني: «يا ربّي خلّصت الجيش في الشّهر الأوّل من ٢٠١١، ما لحقت اتهنّى... وبلشت الثورة». يتابع الأكل بهدوء، وأنا أحثّه على الكلام: «مثل كثيرين خرجنا سلميّين بمطالب إصلاحيّة فقط، أي والله»، يضحك! ويتابع: «قتلونا واعتقلونا وأحرقوا بيوتنا في سراقب، ولم نحمل السّلاح، فقط تناوبنا على حراسة بيوتنا. كنّا ثلاثة أصدقاء ولدينا بارودة واحدة، لنحرس بيوتنا ونساءنا وأطفالنا من الشّبّيحة والمخابرات. قتلوا صديقنا، وبقينا اثنين. بعد ذلك، التحقت بكتيبة الشهيد أسعد هلال». «كيف فكرتم بتسليح أنفسكم؟»، أسأله. لا يضحك هذه المرّة. كان طويلًا وممتلئًا وبالكاد يستطيع التربّع. توقّف عن الطّعام وأشعل سيجارة: «كان هناك شبّيح من ريف سراقب، يطلق النّار علينا، والشّباب هنا أطلقوا النّار ردًّا عليه. ففكرنا في حماية أنفسنا لأنّهم بدأوا يطلقون النّار بشكل عشوائيّ علينا. شكّلنا مجموعات بين خمسة عشر وعشرين شخصًا لحماية البلدة، وكانوا قد وضعوا حول سراقب خمسة حواجز للجيش والمخابرات».

ينصت الجميع إليه. يبدو أنّهم توقّفوا عن الطّعام، والقصف توقّف، وراح أحمد يتحدّث وحده في صمت المساء: «لم أكن أنوي أن أقتل، بعد انضمامي إلى الكتيبة. كنّا عندما ندخل المعركة، لا نوجّه الرّصاص إلى منطقة قاتلة. اتّفقنا أن نقوم بتوجيه الرّصاص إلى الأقدام. لكنّ الأمور اختلفت بعد ذلك. تعرفين! قصفونا واعتقلونا وقتلوا شبابنا، وانفلتت الأمور. كانت وحشيّتهم عنيفة، ثمّ ما عدنا نهتمّ إلى أين نوجّه رصاصاتنا. أنا أعيش الآن مع أبي وأمّي وأخي، ولن أتراجع عن قتال بشّار الأسد من أجل أصدقائي الذين قُتلوا أمامي».

سألته عن الكتائب الدّينيّة المتطرّفة التي حرّفت مسار الثورة،

فقال: «لا أفهم قصدك بهم، هم مجموعات مختلفة. هناك فرق بين داعش وبين جبهة النّصرة... فرق كبير».

يتدخّل أحد الشّباب، قائلًا: «... ليس صحيحًا... جبهة النصرة من أحسن الناس، لا يسرقون، ولا يقتلون، ويحمون النّاس. يردّ عليه مقاتل آخر: «غير صحيح!». يتابع أحمد مقاطعًا الشّابّين: «أنا لا أشتم جبهة النّصرة، هم لا يسيئون إلى أحد، بينما داعش أساء للإسلام ولسورية. وهم غرباء ولا يمتّون إلينا بصلة، ومن حقّ الإسلاميّين أن يفكّروا في الطّريقة التي يرونها مناسبة لشريعتهم، حتّى في حجاب المرأة وسفورها».

أسكت عن ملاحظته هذه لأنّني لم أكن أريد الدّخول في نقاش كهذا. هو ينتظر منّي تعليقًا. «بصراحة لا أستطيع إلّا أن أحترم جبهة النّصرة بعد أن حرّروا الكثير من المناطق». أقول: «ولكن، ماذا عن مشروعهم السّياسيّ؟». يجيب: «لا أعرف... هذا، لا أعرفه! لكنّني سأقول لك أمرًا. هذه مرحلة فوضى، وقذارة. كلّ شيء قذر. من النّظام والكتائب الجهاديّة وأجهزة المخابرات والأمن والثّوّار. العالم كلّه. نحن نعيش في القذارة الآن. هناك فرق بين مقاتلين تركوا عائلاتهم وأرزاقهم وجاؤوا للقتال في سورية من أجل دينهم، وبين قياداتهم التي ارتبطت بأجهزة مخابرات، وتبيع نفسها للنّظام وغيره. نعم، تمّ اختراق قيادات بعض الكتائب».

أحمد يتقاضى راتبًا بسيطًا هو ألف وخمسمئة ليرة من كتيبته. يقول أنّها تكفيه ثمن سجائره فقط، وأنّه يريد أن يتزوّج، لأنّ القتال سيستمرّ لزمن طويل. يضحك ويمارس سخريته على كلّ شيء، حتى على نفسه. يقول: «وانت يا مدام شو الله غاضب عليك لتجي لهون؟!». ويضحك. أسأله بمَ يشعر أثناء المعركة، ولا أضحك.

أتظاهر بالجدّيّة أمامه، فيجيب بالجدّيّة نفسها: «في المعركة لا يوجد بشر. في المعركة أنا حيوان، يا قاتل يا مقتول، هئ هئ هئ... المشكلة أنّ جزءًا من السّنّة مع الثّوّار، بينما كلّ العلويّين مع الأسد. لماذا نموت نحن السّنّة فقط والأقليّات تبقى. لماذا هم صامتون إذا كانوا مثلنا سوريّين. أنا لا أفهم والله. لا أفهم. لا يوجد لديّ تصوّر واضح للمستقبل. أنا مقاتل، لكنّني ابن ناس وتعلّمت في المدرسة وأكره القتل. أريد أن أتزوّج وأنجب أطفالًا، لذلك أنا أقاتل، من أجل أن أعيش، لكنّني أعرف أنّ الثورة مخترقة، وأنّ كلّ ما يحيط بها ضدّها، وهي مثل أرملة فقيرة ومهملة ويتيمة. أحيانًا أشعر بأنّني مثل حجر شطرنج، ولكن ماذا أفعل، أعرف أنّهم يحرّكونني كما يريدون. من هم مموّلو الكتائب؟ من هم؟ لا يهمّني أن أعرف الآن، لكنّني لن أتوقّف عن قتال بشّار الأسد، وأعرف أنّ ما يحدث هو جنون مطلق وأنّنا نتّجه جميعًا نحو الموت. لكن، هل نموت دون أن ندافع عن أنفسنا؟ ذهبت مرّتين إلى تركيا. كنت أمشي في الشّارع، وشعرت بشيء غريب. شيء لا يمكن وصفه. لا يوجد قصف! لا توجد طائرات! ولا صواريخ تقتل النّاس. هل تعرفين؟ شعرت بالغربة. نحن فقط نموت. نحن نموت فقط... هذا كل ما نفعله!».

توقّف عن الكلام.

«اعطيني سيجارة يا معلّم»، قلت له بعد دقيقة صمت. كان غاضبًا، وهو ينهي جملته الأخيرة، فضحك عندما طلبت منه سيجارة: «ما في شي بيستاهل. هلأ رح نموت. يمكن بعد لحظة!»، يشعل لي السّيجارة، ويتابع الكلام والقهقهة: «ليه ما بتكتبي عن أبو ناصر؟»، ويشير إلى شاب نحيل ذي وجه أبيض وعينين قلقتين. لم أنتبه إلى وجوده بين المقاتلين، فقد كان منزويًا، وغير عابئ بما يحدث حوله.

كنّا نجلس فوق حصير بلاستيكيّ، وعليه مجموعة وسائد. باقي الأرض كانت إسمنتيّة محفورة، وروائح زيت وبنزين تفوح من المكان. أعي تمامًا وأنا أدوّن أنّني شخصيّة خارجة من رواية. لا أصدّق ما يحدث، ولن أفعل ما حييت. أنا الحيوان الّذي يحمل الصّمغ اللّازم لتثبيت الذّاكرة الآن.

أبو ناصر «شابّ وُلد سنة ١٩٩١»، أخبرني بأنّه حاول الحصول على شهادة البكالوريا ثلاث مرّات ولم يفلح. يبدو خجولًا ولا يريد الكلام، ينظر إليّ بطرف عينيه. قلت له: «ما تخجل أبو ناصر إنت متل أخي الصّغير». أجاب بصوت خافت: «والله وأعز يا مدام»، ويروي لي قصّته: «حملت السّلاح من أجل الجهاد في سبيل الله، في كتيبة حسان بن ثابت التّابعة لأحرار الشّام، أقلعت عن التّدخين، وذهبت معهم إلى خطّ الجبهة. في حلب، في حيّ سيف الدّولة وبستان الباشا، بقيت شهورًا، ثمّ ذهبت إلى مطار أعزاز. تركت أحرار الشّام، وانضممت إلى مجموعة مسلّحة مستقلّة للذّهاب إلى جبل الأكراد. أعطوني بدلة شاب استشهد، ولبستها. أنا لم أطلق النّار إلا لأثأر لصديقي الّذي استشهد أمامي، لكنّهم رفضوا إلحاقي بالمعركة في جبل الأكراد، الأمير رفض. كان قائد الكتيبة من سراقب. فتركتهم وعدت إلى هنا. لم أكن أملك سلاحًا، لكنّني حصلت على بارودة هدية في أعزاز، وذهبت إلى الأمير في سراقب، وأردت الانضمام إليهم، لأنّني وحيد لأهلي وأريد البقاء قربهم. من أعطاني البارودة في أعزاز قال أنّهم في مطار منغ، وأنّني يجب أن ألتحق بهم، فعدت إليهم».

سألته عن المجموعة المسلّحة التي عاد إليها، فقال: «إنّها مستقلّة. هناك الكثير من المجموعات التي كانت تعمل بهذه الطّريقة. بقينا ثلاثة شهور لم نضرب ضربة واحدة، وكان الجيش يهاجمنا ويقوم

بإعدام الشباب بإطلاق طلقة في رأس كلٍّ منهم. قائد الكتيبة كان كاذبًا، بتركنا في المعارك ويختفي، كنت غاضبًا، المفترض أنّه أميرنا، كيف يهرب؟ أخذ بارودتي منّي عندما تركته رغم أنّها كانت هديّة. وعرفت أنّه كان يتناول حبوب هلوسة، ويدخّن. ويفعل الكثير من الأشياء المحرّمة، التحقت بكتيبة أبو طراد، قائد لواء ثوّار سراقب وبقيت أربعة أشهر معهم، والآن بارودتي ستبقى في المقرّ، ولا أملك ثمن بارودة. البارودة الواحدة سعرها أكثر من مئة وثلاثين ألف ليرة».

«أبو ناصر»، يريد الاستمرار في القتال مع أنّه أراد أن يكمل دراسته. كان قد تعلّم العزف على الآلات الموسيقيّة. يعزف على الكمان وعلى العود. يضحك أحمد، ويقاطعه: «هو عازف عود ممتاز». يهزّ برأسه، ويقول: «لم أعد أستطيع العزف!». يصرخ أحمد: «لا تكذب». «والله ما عدت أعرف أن أعزف، لا أعرف لماذا! كنت أفكر في أنّني أقاتل ضدّ الكفّار الّذين يقتلون المسلمين، والآن أقول أنّي أقاتل ضدّ الظّلم. إذا بقيت على قيد الحياة وسقط بشّار، فسوف أترك كلّ شيء وألتحق بأخي في أميركا لأدرس الموسيقى. أنا أحبّ العود. قبل الآن كنت أخاف ألّا أموت شهيدًا، لأحظى بالجنّة، ولكنّني رأيت الكذب والتّناقض بين ما يقوله الأمير لنا وما يفعله. في إحدى المرّات...» يختنق صوته. ينظر إليّ بغضب. احمرّ خدّاه وصارت عيناه أكثر اتّساعًا: «في إحدى المرّات انشقّ عقيد واثنان من عساكره وساعدونا على اقتحام مطار منغ، اقتحمناه، وصرنا على أبواب المطار، لكنّ الأمير رفض دخولنا. ولم يسمح لنا بالتّقدّم. هذه حياة!».

اعتدل في جلسته، وبدا أكبر من عمره، منفعلًا وحزينًا، والكثير من اليأس في صوته: «أنا لا أفكّر في الزّواج أبدًا. كيف أتزوّج وأنا

سأموت في أيّ لحظة؟ كما ترين نحن نعيش تحت القصف بشكل دائم، سنفقد عقولنا بعد قليل! أنا قلق جدًّا على أهلي، ولن أفكّر في ترك السّلاح حتّى يسقط بشّار لأنّه لا يتوقّف عن قتلنا. هل أقول لك أمرًا: لقد خرجنا سلميّين ولم يكن لدينا سلاح فقتلونا. والآن يقتلوننا، ولن يتوقّفوا، هم من يقتلون. نحن ندافع عن أنفسنا. لكنّني أقول لك أنّ الأمور ليست جيّدة، في حلب عندما كنّا نجد رجلًا يشرب الخمر، كان الشّباب يقومون بجلده أمام النّاس، وهناك كتائب جهاديّة ذبحت وأحرقت وجلدت النّاس». «من هم هؤلاء؟»، أسأل. يجيب «غير مهمّ. لكنّهم ذبحوا بعض النّاس لأنّهم علويّون. وجلدوهم لأنّهم لم يطبّقوا شرع الله».

السّاعة السّادسة صباحًا. استيقظت الطّائرات مبكّرًا وقصفت «سراقب». طيران «الميغ» لا يخفي نفسه. نستطيع تمييزه من صوته.

من خلال النّافذة القريبة من مقرّ الكتيبة، أراقب الشّاب الّذي يجلس وراء مدفع ١٤،٥ ويوجّهه إلى السماء، ويصوّب باتّجاه الطّائرة. الرّشاش موضوع في صندوق سيّارة شحن صغيرة. المقاتل الّذي يجلس وراء المدفع أعرفه، ألوّح له بيدي، وأراقب السماء معه! هو في عالم آخر. يلتحم بالرّشاش، ويطلق النّار. قال الشّباب أنّ الطّائرة غادرت لأنّها خافت من الرّشاش. لو كانوا يملكون مضادًّا للطّيران لانتصروا. لا يملّ المقاتلون من تكرار هذه الجملة.

اللّاسلكي يزعق: «راحت الطّيّارة يا شباب الله يقويكم. خلّي عيونكم مفتحة».

أعود إلى النّافذة، والشّاب لا يزال في مكانه، يشعل سيجارته ويراقب السماء. بدا مسترخيًا وسعيدًا لوهلة، يحمل اللّاسلكي بيده

الأخرى وينصت إليه. كنّا مجموعة كبيرة في المكتب، شاب من دمشق نال دكتوراه في القانون، ترك البلد وانضمّ إلى العمل مع الشّباب في التّقنيّات والبرمجيّات. نحيل ومتحمّس، وقلق. لا يتوقّف عن العمل، يبقى لأيّام عدّة ثمّ يغادر، مثل نشطاء عدّة يأتون ويرحلون، وحسب ما قال لي: «مثلكِ أنتِ!» صهيب ابن «سراقب»، وحفيد العائلة التي أعيش عندها. لكنّه ترك أوروبا وجاء للعمل مع الثّوّار، ترك دراسته الجامعية، ويعمل في التّقنيّات والرّاديو، ويقاتل. أصيب في إحدى المعارك بساقه وصار أعرج. مقاتل شجاع، ويرفض أن يترك «سراقب» حتى يموت. يقول: «نموت أو ننتصر». كنت أتشاجر معه طوال الوقت، بخاصّة عندما يقود السّيّارة في الجبل. يملك قلبًا أبيض، وشجاعة استثنائيّة. أيهم مدرّس رياضيّات، لم يغادر حتّى الآن ويرفض الخروج كما يقول هذه الأيّام. سيفعل ذلك بعد وقت قصير، لكنّه حتّى ذلك الوقت، كان يعلّم الأطفال، ويبقى مع أخيه المشرف على تعليم مجموعات من الطّلاب، ويربّي الحمام، وسيموت بعد أشهر بقذيفة أطلقت من الطّائرة. محمّد رفيق رحلاتي الدّائم، منهل، مارتن سودر وشباب من «أحرار الشّام»، ومجموعة إعلاميّين، كانوا هنا وفي هذه الغرف الصّغيرة لا يزالون يحلمون بأنّ الثورة سوف تستمرّ، «ولا بد من أن تحدث معجزة ما»، يقول أحدهم.

في الزاوية، كان حوار بين شابّين عن أنّ الكتائب الإسلاميّة هي التي أوجدت مبدأ الغنيمة، وهو المبدأ الّذي سمح بانتهاكات وسرقات وتفريخ لصوص. بينما حاربتها كتائب «الجيش الحرّ»، وأطلقت عليها اسم سرقات. «ولكن في النّهاية انتصر الإسلاميّون»، يضيف الشّاب الّذي كان يعمل ويشرف على مجلّة يصدرها للأطفال، ويوزّعها في الرّيف الشّمالي لكلٍّ من حلب وإدلب. لم يكن عمل الشّباب احترافيًا،

لكنّهم يتعلّمون، وهذا ما كان يحدث غالبًا، فمن يعمل بالإغاثة، قد يقاتل أيضًا، ومن يوثّق ويصوّر، قد توكل إليه إحدى المهام الإعلاميّة أو القتاليّة أو الإغاثيّة.

شعرت بالضّيق، وطلبت من أيهم وشخص اسمه بديع مساعدتي على تنظيف الغرفة التي نقيم فيها. كان المكان مهملًا، ويُستخدم لكلّ شيء. ورشة مستمرّة لا تهدأ. شعرا بالغرابة بداية، لكنّهما ساعداني لاحقًا. قال أحدهما إنّه ذاهب لمساعدة عائلة بالنّزوح، وآخر قال أنّ صحافيًا أجنبيًا يجب أن يصل إلى هنا، وعليه ملاقاته. والمجلس المحلّيّ لـ «سراقب» سيجتمع اليوم هنا، لمتابعة تسيير شؤون المدينة. كان هذا التّنظيم المدنيّ قد بدأ يفقد سطوته لأسباب عدّة، منها ظهور الهيئة الشّرعيّة، وغياب التّمويل، والتّناحر الّذي ظهر بين أفراد البلدة الواحدة. الأهمّ من هذا كلّه، أنّ الهيئة الشّرعيّة والمحكمة الشّرعية كانتا تحت حماية الكتائب الإسلاميّة، وتطبّقان قوانينهما بقوّة السّلاح وباسم الله.

عادت الطّائرة للظّهور مساء، وقفزنا من أمكنتنا في الغرف باتّجاه الشّباك المطلّ على المدفع. كان يصوّب على الطّائرة، وطلقات النّار تخرج متتالية، وأنا وضعت كفّيّ على أذنيّ، وابتعدت عن النافذة. خرج ثلاثة من الشّباب ووقفوا إلى جانب المدفع يراقبون السماء كما يراقبون طائرة من ورق. وكالعادة، انتهى المشهد بعد دقائق، لكنّ الباب فُتح وظهر شاهر، وهو شاب هادئ، من «جبهة ثوّار سراقب»، كان ودودًا، لكنّه لا يتكلّم غالبًا. دخل الغرفة وقال: «هناك جثّتان في الوادي، يلا يا شباب ساعدونا لنعرف مين هنّي وندفنهون». وضعت غطاء رأسي، وقلت: «أنا قادمة». نظر إليّ بغرابة، وصمت كعادته، ولحقت بهم.

الشّمس حارقة، وأصوات قصف بعيدة منّا، في الجهة المقابلة للبلدة. توقّفنا على «الأوتوستراد الدولي». أشجار السّرو تحيط بالطّريق. إلى الجانب الأيمن، الوادي الصّغير الّذي يحوي الجثّتين في عمقه. رائحة كريهة في المكان. لم يسمحوا لنا بالتّقدّم أكثر، لكنّني لمحت لون ثياب إحدى الجثّتين. الرّأسان غير موجودين. أحدهما غير بعيد عن الجثّتين، والذّباب يشكّل غيمة صغيرة فوقهما. شاهر كان مرحًا قبل وصولنا، لكنّه عاد إلى وجومه قرب الجثّتين. بقي منهما هيكلاهما الخارجيّان فقط. لم يتعرّف إليهما الشّباب، وقرّروا أنّه يجب دفنهما في الحال. اقترب الشّباب نحو الوادي ومنعوني من التّقدّم. أشجار السّرو نحيلة ولونها يميل إلى الأخضر الباهت. أصوات طيران وقصف بعيد من حولنا. بدأ الشّباب الحفر، ووضعوا الكمّامات. لوهلة، خلت أنّني سأسقط أرضًا، كلّ هذا الموت! كلّ هذه الإحاطة بالموت. وجود شاهر الفتيّ والحيويّ، مع سلاحه الّذي حمله. هو ابن بلد. يدافع عنه، ليس متطرّفًا ولا إرهابيًّا، يحمل سلاحه ويقاتل. على الضفّة الأخرى، مقاتلون غرباء يشبهون المرتزقة يقطعون الرّؤوس باسم الدّين، ويوقفوننا على الحواجز كمحتلّين لبلادنا، وتختلط المعايير بالقيم. الفوضى، واستماتة الشّباب للدفاع عن ثورتهم التي تتسرّب منهم. قتالهم ضدّ نظام الأسد، وقتال المجموعات الجهاديّة التي بدأت تخرّب حياتهم... كلّ هذا!

جلست عند جذع شجرة السّرو وراقبتهم.

«كيف يمكن أن أكتب عن هذا الخراب كلّه؟».

كانت الرّائحة قاتلة، وأحد الشّباب من ورائي سمع ما أردّده، فانحنى برقّة وقال: «والله يا مدام ما بدّك كلّ هالشوفات، تعالي نرجع». اللون الأصفر بدأ يغشى عينيّ، شاهر والشّباب يأتون في اتّجاهي،

ويشيرون إليّ بالذّهاب. نهضت بصعوبة. الرائحة في حلقي وصورة الرّأس المقطوع احتلّت مساحة دماغي كاملة. قاتل ومقتول. وبلا هويّة. فوضى العبث والدّمار. في طريق العودة، قال شاهر: «ما بظنّ أنّهم من جماعتنا، يمكن من جماعة النظام!» الشابّ الآخر أجاب: «وشو عرّفك؟! خلص الله يرحمهون مين ما كانوا». لكنّ الشّاب في الجهة الأخرى قال: «إذا من جماعة بشّار الله لا يرحمهم. فطايس!».

لا شيء سيبقى لنا. فجأة مرّت تلك الصورة القاتمة. هذا العدم يسبح في بعضه، يأكل بعضه. في تلك اللّحظة، عرفت أنّني أضع نفسي في المنطقة القاتلة. لست أهلًا لكلّ ما أراه، وما رميت نفسي فيه. أنا أضعف من هذا الموت المتسلسل. من هذا الشّرّ المتوالد كلّ ثانية، والّذي يكبر ويكبر حتّى يبتلع الأرض! لن أقوى على العيش كما كنت سابقًا! هذا يحصل دائمًا، أفكّر في ذلك، وأستعيد قوّتي من جديد، لكنّ القوّة الدّافعة التي تزجّني في الموت كانت تكبر وتكبر. عذوبة الموت الملساء تزحف في رغباتي. لا معنًى لأيّ شيء بعد الآن! رأسي مثل أوكار نمل متداخلة. أصوات القصف بعيدة وطنين الذّباب فوق الجثّتين ووجه الطّفلة تحت الرّكام. كنت أسبح في عذوبة الاستسلام للموت.

أيقظني صوت شاهر معلنًا وصولنا إلى المكتب الإعلاميّ.

كان أعضاء المجلس قد اجتمعوا في المكتب لمعالجة مشكلة انقطاع الخبز. البارحة، فُقد الخبز من «سراقب». تركتهم وجلست مع محمّد لترتيب زيارات بيوت النّساء. كنّا بحاجة إلى دورة لمحو الأمّيّة، وتحديد مكان لمركز النّساء، ومتابعة المشاريع الصّغيرة، لكنّ رأسي فارغ. أدوّن ما يقوله محمّد بصورة آليّة. دخل شاب، وأخبرني عن المقاتلين الغرباء المهاجرين الّذين يطلبون من الأهالي البحث عن

زوجات الشّهداء ليتزوّجوهنّ، ويدفعون لهم الأموال لقاء ذلك. هذا الطّلب يرفضه كثرٌ من الأهالي. لكنّ البعض يوافق. كنت سمعت عن هذا من قبل. البارحة تحديدًا، كنّا في بيت زوجة شهيد، وقالت لي إنّ مقاتلًا يمنيًّا تقدّم لخطبتها، وهي موافقة لأنّ لديها ثلاثة أولاد، ولا معيل لها، سوى ما تتقاضاه من «جمعيّة الإحسان» التّابعة لـ «أحرار الشّام»، لكنّها غير سعيدة. اتّفقنا مع الشّابّة الجميلة على مشروع صغير تبيع من خلاله في بيتها موادَّ للتنظيف، ولوازم للنّساء، أكّدت لي أنّ المشروع لن يكفيها، لكن ربما يغنيها هذا عن اضطرارها للزّواج بمقاتل جهاديّ يمنيّ. لاحقًا، ستعدل عن فكرة الزّواج به، وتعيل نفسها بنفسها.

أحد الشّباب يصلّح المروحة على السّطح، المروحة الخاصّة بتوليد الطّاقة الكهربائيّة، لأنّ النظام قطع الكهرباء عن المناطق الثّائرة، وعمر وصهيب يتابعان أمور الإذاعة المحلّيّة التي أنشأها الشّباب.

في الواقع هناك ملامح دولة تتشكّل، بعد تحرير المناطق، لكنّ هذه الملامح سيتمّ محوها، وخنقها بالقصف المتواصل، ومن خلال انتشار الكتائب الدّينيّة المتطرّفة، مع ذلك، هنا وفي هذا المكان الصّغير والمهمل، كانت الثورة مستمرّة... الشّباب يقومون بتجربة استثنائيّة في الإدارة الذّاتيّة للمجتمع الأهليّ. هم قادرون. لكنّ هناك من لا يريدهم أن يحقّقوا ثورتهم المدنيّة الديموقراطية، وهم يعرفون هذا. قال الشّاب ذو الواحد والعشرين عامًا، والّذي يعمل في جريدة تصدر في ريف الشّمال: «كلّ ما ترينه يحدث الآن هو من أجل تحويل ثورة ديموقراطيّة إلى حرب دينيّة. وهؤلاء التّكفيريّون... لا يعرفون ما يفعلون، لكنّ قياداتهم تعرف». بصق على الأرض. له اثنان من الإخوة قتلا في القصف.

فيما نتجاوز المكتب باتّجاه بيت منتهى، كانت الطّائرة قد عادت إلى السماء. لكنّ مدفع «الدّوشكا» ومدفع «١٤،٥» يتصدّيان لها. بعض الأطفال ينزلون إلى الشّارع الفرعيّ الّذي دخلناه. يصنعون دائرة. يلعبون ويضحكون. لم أضحك. أفكّر في الطّائرة التي تلوح فوقهم، والتي قد تحوّلهم، بين لحظة وأخرى، أشلاء. اثنتان من أمّهاتهم، أمام باب المنزل، واجمتان. رجل يحمل كيسًا من البصل ويخرج به من الزّقاق، ومقاتل يحمل سلاحه ويدخل الزّقاق المقابل، الحياة كما هي.

بدأنا جولتنا على بيوت النّساء. غبار كثيف يعلو الجدران والوجوه وكلّ شيء، حتّى إنّني كنت أمسح وجهي بكمّي، كلّ دقيقة. قلت: سأفقد عقلي، كيف لا يفقد النّاس عقولهم، وهم يعيشون تحت الموت بشكل متواصل.

هذا الصّباح، استيقظت متعبة، وافتقدت وجود آلاء وحكاياتها آخر اللّيل، لكنّ شعورًا بالرضى غمرني، فهي آمنة الآن خارج سورية. ثيابي التي أنام فيها منذ يومين، بدأت تشعرني بالضّيق. كنت أخشى البقاء في ثياب النّوم، حتّى لا نضطرّ أثناء القصف للخروج أمام النّاس عراة. أنام وعباءة سوداء إلى جانبي، وفي الغالب، كان يتعذّر عليّ النّوم مع البعوض والحرّ الخانق. بالكاد أسهو وأستيقظ وهكذا على مدار أيّام عدّة. القصف توقّف، ويجب الذّهاب إلى بيت منتهى وضياء ومدرسة الأطفال لمتابعة المشاريع. لكن، قبل ذلك، قال محمّد، أنّه تجب معاينة الملجأ الواقع في السّوق، والّذي سنحوّله مركزًا للنّساء.

تقع السّوق وسط «سراقب»، وعادة يتركّز القصف عليها، كأنّ هدف القصف هو قتل أكبر عدد من المدنيّين. القصف توقّف، منذ ساعة، وشعرنا بقليل من الأمان أنا ومحمّد. عندما بدأت أعدّ له أسماء زوجات الشّهداء اللّواتي سنراهنّ اليوم، قال إنّ ذلك، صعب، سنلزمنا أيّام عدّة. كنت أستعجل الذّهاب إلى «كفرنبل»، من أجل رزان

ومشروع المدارس للنّازحين هناك.

السّوق هادئة، وهناك حركة قليلة. بضعة محالّ تفتح أبوابها ويتمّ فيها البيع والشّراء، وغالبيّة المحالّ أبوابها منتزعة تطير في الهواء بفعل الإنفجار. وللمرّة الأولى، يضع أصحاب المحالّ أكياس رملٍ أمام واجهات محالّهم الزّجاجيّة، فتبدو السّوق مثل خطّ جبهة. دخلنا الزّقاق المفترض أن يؤدي بنا إلى المركز، كنت أشعر بقليل من السّعادة، فرغم القصف والقتل والحصار، النّاس هنا يريدون أن يتابعوا الحياة بشكل طبيعيّ. وبدا الجميع، نساءً ورجالًا وأطفالًا مصمّمين على ذلك، لكنّ صوتًا صرخ من اللّاسلكي: «طيارة هيلوكبتر... ششش... ششش وينكون يا كلاب ما شفتو الطيّارة. ليه ما نبهتوا النّاس...». أمسكت اللّاسلكي بيدي، بينما كان يقود محمّد السيارة: «اطلعوا عالرّشّاش... يلا... الطّيارة صارت فوق سراقب».

دوّى صوت قويّ... «دججججججججج»، فغطّت سحابة من الغبار المكان. أبطأ محمّد السيّارة، وأغلق النّوافذ، ووضعت يديّ على أذنيّ، وصرخت. كنت أريد أن أسمع أنّني لم أزل على قيد الحياة، صراخ البشر هو نفسه عواء الحيوانات، لا فرق، ثمّ الصّوت الثّاني «ددددددججججججججج». أمامي، كتلة غبار. توضّحت الرّؤية قليلًا، ولمحت رجلًا يركض بسرعة ويحمل طفله الجريح. يركض وهو يبكي ويصرخ. لم أسمع صوته، لأنّ طنينًا في أذنيّ بدأ يتحوّل ألمًا حادًّا، ولم أعد أستوعب ما يجري حولي. في تلك اللّحظة، سمعت الصّوت المرعب. لا أستطيع أن أتذكّر كيف كان، ولكنّ أذنيّ كادتا أن تنفجرا، ورأسي اهتزّ. السيّارة أيضًا اهتزّت. ارتجاج الرّأس وارتجاج الخلايا وارتجاج الأرض، ثمّ تماهي الموجودات واختلاطها أمام العين كلّ هذا في اللحظة نفسها. محمّد

يحاول ببطء الدّخول في زقاق للخروج من السّوق. توقّفنا، لأنّ خطوطًا من الدّخان الأبيض صارت تتساقط على السيّارة، وعلى جوانب نوافذ السيّارة، صارت تعبر تلك الخطوط مثل شياطين طائرة. خطوط دخان أبيض وأسود تتساقط وأشكال حديديّة مستطيلة، ورأسي صار بين أضلعي. أسمع صوتًا حادًّا لاحتكاك الأجسام الطّائرة بالسيّارة. أحدها عبر زجاج النّافذة بالقرب من محمّد، وآخر مرّ قرب رقبتي! بعد دقيقتين أو ثلاث فقط، فتحنا أعيننا. خِلْتُ خلالها أنّني أموت، وأردت رؤية آخر ما تمكن رؤيته. لم أفكّر في الحياة، ولا في الأشياء الجميلة. فكّرت في أنّ هذا سيكون سهلًا، وأنّني خائفة فقط ومذعورة، ولا أعرف أين سأتلقّى القذيفة وفي أيّ جزء من جسدي، فقد بدا واضحًا أنّنا تحت مرمى القصف. ما لم نكن نعرفه، أنا ومحمّد، أنّ البرميل الثّالث الّذي دارت به الطّائرة وألقته فوق السّوق كان فوقنا تمامًا، وأنّه لم ينفجر في الأرض، وإنّما انفجر في السماء. وكانت لهذه المصادفة السّعيدة أسبابها، فبعد أن اقتنى المقاتلون مدافع رشاشة لصدّ الطّائرات التي يبلغ مداها ستّة كيلومترات، صارت المروحيّة، ترتفع في السماء لأنّ الشّباب أسقطوا طائرات عدّة بهذه الطريقة، ونتيجة هذا الارتفاع الّذي اضطرّت إليه مروحيّات الأسد، ولأنّ البراميل هي أسلحة يدويّة مصنوعة من موادّ أوليّة بدائيّة، تُلقى من علوّ شاهق على المدنيّين. لهذا لم ينفجر. كان يلزم وجود فتيل يتمّ إشعاله قبل رميه من الطّائرة، هذا الفتيل لم يكن طوله دقيقًا بما يكفي لوصول البرميل إلى الأرض. وفي حساب المدّة الزمنية التي يحتاج إليها البرميل للسّقوط وقتل أكبر عدد ممكن من النّاس، وفي عدم الدّقّة بحساب طول الفتيل في تلك الظّهيرة، هما ما جعلنا نعيش حتّى الآن، فالفتيل انتهى اشتعاله والبرميل لا يزال في السماء.

أسرع محمّد إلى بيت منتهى وتركني هناك. طلبت منه أن يأخذني معه لأعاين الأضرار، فقال: «ليش؟ لتموتي معي...؟»، وابتسم ملوّحًا بيده قبل أن يستدير ويغادر.

دخلت بيت منتهى والغبار يغطّي السماء. النّساء كنّ بانتظاري، مجموعة من زوجات الشّهداء والجارات والأطفال. بيت كبير يضجّ بالحركة. إلى اليسار جدار مفتوح. قالت منتهى أنّ القصف كثيف هنا لأننا وسط السّوق. كنت بحاجة إلى أن أفهم ما يحصل، فهم يفرشون الأرض ويضعون فوقها أطباقًا من شتّى صنوف الطّعام، يضحكون، ويتابعون أخبار قصفهم! الجميلة ذات العينين الواسعتين، كانت تضمّ طفلًا إلى صدرها. هي زوجة شهيد وتريد فتح مشغل صوف. الأخرى طبيبة عزباء، لكنّها مهتمّة بالأدب. امرأة برفقة طفلين، تريد ماكينة خياطة. الحياة التي تدفّقت فجأة، بعد البرميل الّذي سقط فوق رأسي، جعلتني مشتّتة وأنا أروي لهم الحادثة. رأسي فارغ تمامًا وشفتاي لا تزالان ترتجفان. الجميع يحيطون بي، وامرأة أمسكت بيدي، وأخرى بدأت تقرأ بعض الآيات القرآنيّة. لم أعرف أنّ وجهي أصفر، وأنّ عينيّ زائغتان، لكنّني كنت فعلًا ممنونة لأنّني ما زلت على قيد الحياة. وكنت أحاول معرفة ما تفعله النّساء للحفاظ على هذه القوّة، كنّ جميلات. نظيفات. طعامهنّ لذيذ. أطفالهنّ، رغم الفقر، تبدو علامات الاهتمام عليهم. وإحداهنّ أحضرت معها ما حاكته من ثياب.

ضياء التي تدير مدرسة، وهي أخت منتهى، كانت تشرح لي ضرورة أن نقوم بتكوين سلسلة بشريّة من النّساء، تقوم بتعليم الأطفال في بيوتهم لأنّه لا يمكننا جمع الأطفال في مدارس. في حالة القصف، ستكون أعداد الضّحايا كبيرة، لكن حين يتعلّمون في بيت،

سيكون عدد الضحايا أقلّ. لاحقًا، سيذهب الأطفال إلى المدرسة، ولن يأبهوا للقصف.

نضع الأوراق أمامنا ونبدأ تسجيل كلّ حالة من حالات النّساء على حدة ودراستها. لم يكن بإمكاني التّوقّف عن المتابعة، رغم أنّني بدأت أفقد تركيزي، شعرت بالخجل أمام قوّتهنّ. رأسي مشوّش بالكامل. صوت الطّائرة لم يتوقّف، وأصوات سيّارات الإسعاف في الخارج، ضجيج الأطفال، وصحون الطّعام التي تدخل وتخرج... بدأ الكلام، كأنّ شهوة الحكي تدفّقت دفعة واحدة. قالت صبيّة في العشرين من عمرها، أنّها غير موافقة على ما تفعله الكتائب الإسلاميّة، فإحدى هذه الكتائب في أحد الأيّام قطعت رأس جنديّ، وعلّقته على عصا ومشى فيه العناصر في سوق «سراقب». قاطعتها أخرى وصرخت فيها: «وبتعرفي شو كان عامل؟ طلبوا منه الاستسلام، وكان داخل الدّبّابة ما قبلوا يضربوا عليه رصاص حتى ما يقتلوه، أنا قرايبي كان هونيك وبيعرف، وضرب عليهم هو بالدّبّابة كان بدّه يقتلهم كلّهم، قتل اثنين من الشباب حتى التفّ عليه واحد من الشّباب، وذبحه، كانوا غاضبين». فقالت لها امرأة أخرى: «نحن لم نخرج ضدّ بشّار لنخلّي أطفالنا يشوفوا هذه المناظر المتوحّشة، هاد إجرام، ليش يحمل رأسه بين النّاس. كنّا بدنا نقدّم عريضة للمحكمة الشّرعيّة، بس بتعرفي هلأ صرنا لا حول ولا قوّة!». وافقتها أخرى: «ما منقبل، ما بدنا ولادنا يتربّوا بالطريقة الوحشيّة هذه!». تهمس امرأة: «والله القادم أفظع».

كان الأطفال يدخلون ويخرجون ويقفزون بين أحضاننا. ردّت الصّبية الشّابّة: «لكن نحنا شو دورنا ما رح أقبل ابني يصير قاتل ووحش من هيك مناظر».

كنت أكتب ملاحظاتي حول وضع كلّ امرأة، وما زلت مندهشة

أمام إصرار الحياة الهادر الّذي ألمسه بأصابعي وأتنفّسه بعمق. هنّ اللّواتي يبقين هنا تحت الموت، أما أنا فلديّ فرصة للخروج من هذا الجحيم والعيش خارجًا.

عندما عادت الطّائرة من جديد، صرخت إحدى الشّابّات وهي ابنة شهيد: «هذه طائرة ميغ!»، وسمعنا صوت انفجار، فقالت امرأة أخرى: «وهذه قنبلة عنقوديّة»، وتسابقنا للخروج. طلبت منتهى أن أبقى عندهم، لكنّ محمّدًا كان ينتظر خارجًا تحت القصف. ارتبكت أكثر، لملمنا أوراقنا، وركضت هابطة الدّرج.

في بيت العائلة، «أبو إبراهيم» ونورا وعيّوش، نزلوا إلى الملجإ وانتظروني. قنابل متتالية تتساقط، ووجدت من جديد أنّ من الجنون التفكير بالقيام بأيّ شيء، وسط حفلات الموت الجماعيّ هذا.

كانت العائلة قد عادت من الجامع، مكان النّزوح. نورا غاضبة. تريد عيّوش أن تصعد لتبقى إلى جانب العجوزين. وأصعد معها، نأتي بطبق الطّعام إلى درج الملجإ، ونأكل بصمت.

تفكيري مشغول في الوقت الباقي لي لإنهاء عملي مع النّساء، والطّريقة التي ستتبعها ضياء لتعليم الأطفال تحت القصف، أو على الأقلّ لمن بقي من العائلات في «سراقب». ربّما كان ذلك مستحيلًا بسبب القصف العنيف. مع ذلك، استطعنا أنا ومحمّد ومنتهى الذّهاب ليلًا إلى بيت فاديا، المرأة التي أرادت أن يكون لها مشروع خاصّ بها، وهو أن تفتح صالونًا نسائيًّا للتجميل، وهذا ما أدهشني، فمن سيهتمّ بهذه الأمور الآن؟! كانت فادية سمراء نحيلة، لديها ثلاثة أولاد، حتّى الآن غير معروف أين هو زوجها. لم تتجاوز الخامسة والعشرين. صالون التزيين داخل بيتها، وهو ما فعلناه في أغلب

مشاريعنا، لأنّ التّقاليد تمنع النّساء من الخروج كثيرًا. قبل الثورة كانت الأمور أفضل، ولم تكن النّساء في الغالب، بحاجة إلى العمل. الآن اختلف الوضع. أخبرتني الطّبيبة من «سراقب» أن قسمًا كبيرًا من النّساء هنا من الجامعيّات والمتعلّمات. لكنّ سطوة العادات والتّقاليد هي السّائدة. ليس الدّين وحده، بل أيضًا الخوف من النّاس ومن ألسنتهم.

أثناء تنقّلنا بين بيوت النّساء، كنّا نضطر للتّوقّف بسبب القصف، وهو ما أتاح لي رؤية عدد كبير من النّاس، معظمهم من طبقة متوسّطة، مع الثورة تدهورت أوضاعهم. كانوا لطفاء وكرماء. وكلّما دخلت بيت أحدهم، كان يحاول الخوض معي في شأن الحرب الطّائفيّة، وكيف هو خارجها ولا يؤمن بها، ولا يريد أن تكون هذه الكتائب المتطرّفة في المجتمع السّوريّ، لكنّ الجميع لا يملكون القرار ولا حول ولا قوّة لهم. كنت أفهم من هذا أنّهم يعرفون من أنا، ولم أشعر بينهم بخطر على حياتي. لكنّ ما حصل في اليوم التّالي جعلني أغادر «سراقب» بعد أيّام.

عندما لمحت من تحت الباب ظلال أقدام، اعتقدت أنّهم الشّباب يقومون ببعض الإصلاحات في خطوط الكهرباء أو جهاز «الإنترنت» الفضائيّ، ورغم أنّ الحركة صامتة ومريبة، فقد كنت أشعر بأمان لأنّ الباب الحديد للمكتب في أسفل البناء مقفل. مع ذلك، أقفلت باب غرفتي، وفتحت النّافذة مستعيدة صور اللّيلة الماضية، حيث كنّا في منتصف اللّيل نركض في العراء.

تجاهلت الظّلال التي تظهر من تحت الباب. لا أشعر بالخوف ولا بالقلق. داخلي ساكن تمامًا. عظامي تؤلمني. والصّداع وطنين الأذنين يثقل حركتي. البارحة ليلًا أثناء القصف، كان لا بدّ للشّباب من زيارة المشفى. وصل نداء استغاثة، كنّا نجلس مع مارتن سودر، وبديع. وهو فتى في السّادسة عشرة يهتمّ بكلّ ما يحتاجه المكتب الإعلاميّ. أبو حسن، محمّد ومنهل وأربعة من النّشطاء الّذين يستخدمون «الإنترنت»، يتابعون عملهم. كان هذا بعد الثّانية عشرة. أنا ومارتن لم نتحرّك عندما سمعنا القصف، فقد كان بعيدًا. الغرفة عبارة

عن صالة كبيرة، وحولها مجموعة من الكراسي وُضعت أمامها مجموعة من أجهزة الكمبيوتر. في الغرف الأخرى، حصر بلاستيكيّة ووسائد. هذه حال غالبيّة المكاتب الإعلاميّة التي زرتها في ريف «إدلب»، زهد في التّفاصيل وتقشّف في الحياة والأدوات وطريقة العيش. كان من المؤسف أن تكون زيارة المشفى مع منهل ومارتن بعد منتصف اللّيل وتحت قصف القنابل العنقوديّة، هي المرّة الأخيرة التي سأرى فيها مارتن، ولم أكن أتخيّل أنّني سأكون شاهدة على عمليّة خطفه وإخفائه. اللّيلة التي سبقت خطفه، كنّا معًا في المشفى. مارتن صوّر كلّ تفاصيل قصف المشفى. بقع الدّم، البيوت المحروقة مقابل المشفى، أجساد الجرحى، وجوه العابرين، المنتظرين. لون السماء، الأشجار. توقّفنا أمام غرفة طفل جريح. حتّى تلك اللّحظة كنت أشعر بالتّوازن، لكنّني فقدته أمام منظر طفل لا يتجاوز عمره الأربع سنوات، يبدو كأنّه استيقظ من النّوم، كان نحيلًا. وجهه جميل ولا يبكي. ينظر إلى السّقف. جفناه لا يرفّان. ولا يبدو عليه آثار جروح، لكنّ في صدره نقبًا عميقًا، هو أثر شظيّة من قنبلة عنقوديّة، تستقرّ في جسده، تفتّت، وتقتل. الطّبيب أخبرنا بأنّه سيشقّ صدره بالكامل لاستخراج الشّظيّة، وأنا أنظر إليه. لا أعرف لماذا فعلت هذا! لكنّني شهقت وقلت: «يالله... يالله...»، وخرجت. لم أكن أتخيّل صورة أكثر وحشيّة من تلك. طفل كعصفور حزين. صامت لا يشكو. يتألّم. عيناه شاخصتان ومليئتان بأمل العالم كلّه! لا يعرف ما يحصل حوله. تدخل كرة صغيرة سوداء جسده، وتنام في لحمه. تنهشه من أحشائه! انتبهت إلى أنّني أقف فوق بقعة دم كبيرة في المشفى. شعرت بأنّني أقف على جثّة ميت. صرخت، وابتعدت. كان مارتن يصوّر الطّفل، ثمّ دخلت غرف المشفى الفقير والمحتاج إلى كلّ أنواع الأدوات اللّازمة للعناية

بالجرحى. كان النّاس، ورغم أنّ السّاعة قاربت على الواحدة والنّصف ليلًا، لا يزالون يأتون بالجرحى. أعود إلى غرفة الطّفل الّذي يحدّق في السّقف، والطّبيب يستعدّ لعمليّة شقّ الصدر. نغادر. مارتن يسندني ومنهل سبقنا مسرعًا. كنت أتحرّك ببطء. قال مارتن بإنكليزية هادئة: «كلّ شيء سيكون بخير. سينجو». وعدنا إلى المكتب، عبر طريق طويلة توقّفنا فيها مرّات عدّة بسبب قذائف تنهمر أمامنا. مارتن يصوّر كلّ ما يحصل. لا يرفّ له جفن. ولا يرتجف. يتابع التّصوير كأنّ القذائف التي تنهمر فوق رؤوسنا لا تعني شيئًا!

في السّاعة العاشرة صباح اليوم التالي، اختفى مارتن. في ذلك اليوم، كنت أستند إلى النّافذة عندما علا صراخ منهل. وتلاه إطلاق رصاص وضجّة. الأمر لم يستغرق أكثر من عشر دقائق. تأكّدت من إغلاق بابي، وتوقّفت عن التّنفّس. صراخ ورصاص، ثمّ طرق قويّ على باب غرفتي، وإطلاق رصاص. منهل يتحدّث إليهم يريد معرفة ما يريدون. كانت أذناي تصفرّان، ولم أعرف ما إذا كانت السماء تمطرنا بالقنابل أم بالصّواريخ، لكنّني تأكّدت من أن مسلّحين في المكتب يقومون بمهاجمته، والظّلال التي كنت ألمحها لم تكن سوى التّمهيد لعمليّة الاقتحام والمداهمة. يصرخ منهل: «الكمبيوتر سمر! اعطيني الكمبيوتر!» أثناء ذلك، وضعت عباءة عليّ، وحجابًا، وفتحت الباب قليلًا، وبيدي الكمبيوتر. كان منهل يقف أمام باب غرفتي، ووجهه يقطر دمًا، ويمنع رجلًا مسلّحًا من اقتحامها. شقّ الباب صغير. ولم أتبيّن الكثير. منهل أغلق الباب فورًا، وأنا عدت إلى مكاني، مرّت دقيقتان ربّما، وفتحت الباب. لم أستطع أن أبقى على الحياد. الرّجل لا يزال أمام بابي، ومنهل واقف ووجهه مضرّج بالدّماء. سيخبرني منهل بأنّه كان يضربه على رأسه بكعب المسدس. اعتقدت أنّنا سنموت

الآن. فكرة وحيدة استولت عليّ هي أنّهم رجال «داعش» وقد جاؤوا إمّا لخطفي نتيجة معرفتهم مَن أكون، أو لقتلنا، لأنّهم كانوا يلاحقون نشطاء الثورة ويقتلونهم أو يعتقلونهم كما كان يفعل نظام الأسد.

وجه منهل يقطر دمًا، وعيناي تنطبقان وتنفتحان. اعتقدت أنّه يحتضر، لأنّ كمّيّة الدّماء النّازفة كانت كثيفة. سألته: «أنت بخير؟!»، نسيت وجود الرّجل المسلّح الملثّم، لولا صرخته المرعبة: «فوتي وليك». وجّه مسدّسه إلى وجهي. سمعت صوت قلبي يسقط مثل قذيفة. نظرت إليه بثبات وهدوء، وقلت له: «عفوًا بعتذر»، ثمّ أغلقت الباب، وجلست على السّرير. انحصر تفكيري فقط في أنّ اللّحظة القادمة هي اللّحظة التي ستتهاوى فيها جثّة منهل، ويفتح الباب، ويُطلق على رأسي الرّصاص، أو أغيب في عتمة الخطف. جلست بهدوء، شفتاي ترتجفان.

الملثّم المسلّح لم يكن سوريًّا، كان من المقاتلين المهاجرين الغرباء. عيناه عسليّتان. ما زلت أحتفظ بتحديقه في عقلي. كيف تكون عينا القاتل؟ من هو؟ عينان لا ترفّان ولا تتحرّكان. سكون الموت المعلن. ولكن، ليستا على طريقة عيون القتلة التّقليديّين. لقد بدا شابًّا جميلًا. وجنتاه حمراوان، لكنّه قاتل. ربّما لا يتجاوز العشرين من عمره. كنت أرتجف، ولم أستطع الانتظار أكثر. فتحت الباب، فإذا بالمسلّحين الملثّمين قد انصرفوا، كانوا تسعة. قيّدوا محمّدًا بسوار بلاستيكيّ، وهو نوع السّوار نفسه الّذي تقوم قوّات المخابرات والشّبّيحة بتقييد المعتقلين والنّاس به. سوار بلاستيكيّ حاد، يستعمل كأصفاد، ويشدّ على المعصمين، حتّى يغرس باللّحم، بحيث إنّ أيّ حركة تؤدّي إلى مزيد من احتكاكه بالجلد وحزّ اللّحم. أبو حسن مقيّد، وبديع أيضًا. كانوا كلّهم تعرّضوا للضّرب بأعقاب البنادق، وكلّ

أدوات المكتب سرقت. لم يتركوا شيئًا، حتّى الأسلاك الكهربائيّة الخاصّة بتوصيل الأجهزة، سرقوها، وسرقوا الأوراق، وكلّ ما كان موجودًا، خلال دقائق كانوا قد استولوا على كلّ شيء. الأفظع أنّهم أخذوا مارتن! لقد كانت عمليه خطف لصحافيّ أجنبيّ من أجل فدية.

الأمر لم يتوقّف هنا، فمنهل والشّباب ركضوا ولحقوا بالسيّارة، وكانت اختفت. حاول الشّباب الشّكوى للمحكمة الشّرعيّة، لكنّ الشكوى ذهبت هباء، الكتيبة التي كان مقرّها ملاصقًا للمكتب، اجتمعنا بها بعد أن ذهبنا فورًا إلى بيت «أبو إبراهيم»، وتمّ إحضار قائد الكتيبة «أبو دياب» وجلسنا مع مجموعة من المقاتلين وأهالي البلدة. منهل رفض أن ينظّف جرحه قبل أخذ حقّه من المحكمة الشّرعيّة. لكنّ المحكمة الشّرعيّة كانت تريد إثبات أن تنظيم «داعش» هو من خطف مارتن سودر، الصّحافيّ البولنديّ.

كان واضحًا أنّ المقصود أيضًا هو تخويف النّشطاء المدنيّين العلمانيّين، فبعد ذلك، ستتكرّر حوادث قتل وخطف لنشطاء علمانيّين، وسيصبرون ملاحقين.

في النّهاية، اختفى مارتن، وكنت أثناء النّقاش مع الرّجال في الفو أؤكّد لهم أنّ شخصًا يعرف المكتب وتحرّكاته بشكل جيّد هو من دلّ الملثّمين عليه، وأنّهم عندما اكتشفوا وجود امرأة خافوا وأسرعوا بالرّحيل، لأنّ أزيز الرّصاص سيأتي بمقاتلي الكتيبة قربنا. في النّهاية، لم يستطع أحد القبض عليهم. الفوضى عارمة، وحالات خطف الصّحافيّين الأجانب تزداد، من أجل الفدية ومن أجل إخفاء الحقائق.

كان الحزن يتملّكنا. مارتن كان استثنائيًا، أبيض الوجه، ضاحكًا، ذا غمّازتين، هادئًا. أجرى للشّباب دورة تدريب على

التصوير الفوتوغرافيّ. كان مهذّبًا أنيقًا، أثناء تحرّكنا تحت القصف. ورغم انهماكه بالتقاط الصّور، لم يكن ينسى أن ينزل من السيّارة أوّلًا، ليفتح لي بابها، أو أن يربّت على أكتاف الشّباب بعد القصف، مبتسمًا بحنوّ. كان يحدثني عن تاريخه مع قضايا الشّعوب، ويقول: «أنا مع قضيّة شعبك وأفهمها، لكنّ العالم في الخارج صعب ومعقّد».

اختفى مارتن. وانتشر خبرُ أنّني كنت مع الشّباب في المكتب رغم محاولة تكتّمنا على الأمر حتّى لا يعود المسلحون، وصار من الضّرورة مغادرة «سراقب». ورغم أنّ الشّباب من «كفرنبل» جاؤوا لاصطحابي بسرعة عند سماعهم الخبر، إلّا أنّني فضّلت البقاء لأيّام لأطمئنّ ولأساعد الشّباب في الشّهادة أمام المحكمة الشّرعيّة. لم أكن أعرف أن المحكمة الشّرعيّة قد تعتبر وجودي جريمة بحدّ ذاتها!

عدت إلى بيت العائلة.

نورا تصرخ: «يا!!!!! ويلي لو خطفوك...»، ثمّ تضع كفّيها على وجهها، وتضمّني. عبّوش أحاطتني بحبّ واهتمام، ثمّ قالت وهي تخرج لشراء الخضار واللّحوم: «قبل الثورة كان الرّجال يشترون حاجيّاتنا. هل تعتقدين أنّ الثورة جعلت من المرأة شيئًا هامشيًّا؟ لا أظنّ، نحن الآن نخرج ونشتري أغراضنا، ونتحرّك بغياب الرّجال. المشكلة في الكتائب التكفيريّة الغريبة التي سيطرت على حياتنا، نحن نريد أن نعيش. لن يجدوا لدينا مكانًا. الشّباب يحاربون على جبهات عدّة، بشار الأسد، المتطرّفين المسلّحين، الخاطفين والمرتزقة. لن يستطيعوا أن يفعلوا كلّ هذه الأشياء دفعة واحدة، ونحن نشتغل أيضًا. المصيبة لو بقي الوضع على ما هو عليه. ستتغيّر هذه الأرض».

تذهب عبّوش إلى السّوق من دوني هذه المرّة. طلبوا منّي البقاء في البيت.

صرت مدلّلة العائلة التي تجتمع هنا. الأخت وولداها وابنتها، مدرّسة اللّغة الإنكليزية، الأخ وابنه، أنا ونورا والعجوزان، زوجة الأخ الكبير، نجتمع هنا، ويبدأ التّخطيط للأيّام القادمة. كيف يعيش النّاس هنا تحت القصف المتواصل من جهة، وما يحدث من تغييرات عميقة في المجتمع من جهة أخرى. يقول ابن الأخت، وهو شاب مثقّف ولطيف: «كيف سنعيش هنا؟ يبدو الأمر صعبًا. نحن مثلًا نريد التّفكير بتأمين يوميّاتنا. الأرض احترقت، التّجارة توقّفت، الشّباب ذهبوا للقتال، وسيعودون إلينا شهداء. هذا الوضع قد يحتمل لسنة أيضًا، ولكن ليس لسنوات عدّة. سنعود بالتّاريخ لقرون مضت، وإذا بقيت المحاكم الشّرعيّة والكتائب العسكريّة الجهاديّة تسيطر علينا مع مقاتليهم الغرباء، ستصير الأرض محكومة بالعسكر والدّين المتطرّف، الإسلام دين يسر وليس دين عسر».

كان محور الحديث عن «داعش». أستمع إليهم، وأفكّر بما يمكن أن يفعلوه بمارتن، أقول: «لن يقتلوه أليس كذلك؟». يجيبني أحد الشّباب: «لا، سيحتفظون به من أجل المال. المشكلة أنّهم لا يعترفون بأنّهم خطفوه». كان أحد أعضاء المحكمة الشّرعيّة، والذي ينتمي إلى «جبهة النّصرة»، قد هدّد منهلًا بأنّه سيجتثّ العلمانيين كلّهم من هذا البلد. قالت عبّوش: «كيف بدنا نعيش إذا كل مرتزقة العالم سمحوا لهم بالدّخول إلى سورية. مرتزقة وسلاح وتطرف...».

أحاول التّركيز على ما يقوله النّاس هنا. لا أحد يسمعهم. النّاس الذين لا صوت لهم، ولا شبكة «إنترنت» يستطيعون التّعبير من خلالها عن أفكارهم.

كان تأمين طعام يوم واحد يلزمه الكثير من الجهد، رغم أنّ هذه العائلة تنتمي إلى طبقة ميسورة، لكنّ التّنقّل تحت القصف، وغياب

المواد الغذائيّة وغلاء الأسعار وفقدان الكهرباء والماء، تجعل العيش جحيمًا. النّساء هنا يصنعن أساس الحياة، يقمن بتدبير أمور الطّعام والنّظافة والضّرورات اللّازمة لبقاء الأطفال والرّجال على قيد الحياة. منذ يومين، زرنا مع محمّد، ومنتهى مشروع «بيت المونة» لمجموعة من نساء «سراقب»، كنّ يصنعن الطّعام إضافة إلى بعض الموادّ الغذائيّة لتموينها ويقمن ببيعها للنّاس بسعر مقبول، ويعشن مستقلّات اقتصاديًا. زرناهنّ بعد الإفطار. جلسنا في باحة البيت. الأمّ ومن حولها سبع فتيات وثلاث عائلات أخرى. باحة البيت تصطفّ فيها الأواني المليئة ببعض أنواع الورود. في الوسط، شجرة زيتون. المشهد يبدو متناقضًا مع صورة البيت من الخارج، بعد أن سقطت قذيفة أمامه، الورود بنفسجية وحمراء، مكان العمل هو غرفة واسعة فيها برّاد وفرن، ورفوف تصطفّ فوقها أوانٍ زجاجيّة لشتّى صنوف الطعام، وصنوف الحلوى. كان يلزمهم برّاد كبير لحفظ الأطعمة وضمان عدم فسادها، إضافة إلى مولّد كهربائيّ من أجل الاستمرار في العمل. العتمة هنا شاملة. وأضواء الشّموع لا تكفي. «نقوم بالتّقنين في استخدام المولّد لأنّ ثمن المازوت غالٍ»، يقول الشّاب ابن المرأة، والذي يقوم بعمليّة إيصال الطّلبات إلى المنازل: «هنا، في هذا المشروع، نصنع اقتصادًا منزليًا منتجًا، لكن كيف يمكننا الاستمرار في ظلّ هذا الوضع؟».

عدنا إلى البيت، وكنت قلقة وأنا أسمع أفراد العائلة يتحدّثون عن تفاصيل تدابير الحياة، وما زالت عالقة في ذهني جملة «أبو البراء» من المحكمة الشّرعيّة، والّذي هدّد النّشطاء اليوم بقطع رؤوسهم.

كانت النّسوة يكرّرن ما قاله بانزعاج، وهنّ يقمن بتقطيع الخضار، والرّواح والمجيء بين المطبخ المطلّ على باحة الدّار، والغرفة التي نتحلّق فيها حول اللاسلكي.

«أبو عكرمة» كان أيضًا في المحكمة الشّرعيّة، هو فلسطينيّ أردنيّ. قبل أن يأتي إلى هنا، كان في أفغانستان والعراق وباكستان. رجل ممتلئ، وصوته ناعم وخفيض، ولا يرتدي لباسًا إسلاميًا على طريقة رجال «القاعدة». ثيابه مدنيّة. عندما جاء إلى هنا، اعتقد النّاس أنه من منطقة «حوران». هو رجل صامت لا يتحدّث عن نفسه أبدًا ولا عن ماضيه، لكنّ النّاس عرفوا أنّه كان مهندسًا ميكانيكيًا يتقن الإنكليزيّة والفرنسيّة والأفغانيّة. عمره لا يتجاوز الأربعين وهو صمّام الأمان لـ «جبهة النّصرة» في «سراقب» ومحرّكها. ذكيّ جدًّا، متزوّج. إنّه أحد أعضاء اللّجنة الأمنيّة في «سراقب»، وكان في المحكمة الشّرعية، ثمّ تركها. يقول أنّه جاء إلى بلاد الشّام لمقاتلة «الروافض» والطّغاة.

تقول امرأة من قريبات العائلة: «وأنتم رجال سراقب ليش سلّمتوها للغرباء؟».

في تلك اللّحظة، كان أمر واحد يشغل بالي: كيف سأعيش في هذا السّجن، إذا كان من الصّعب عليّ التّحرّك لوحدي، أو حتّى الذّهاب خارج البيت لأمتار قليلة دون حماية لي؟ هل سأتمكّن من البقاء هنا كما كنت أخطّط؟ وكيف يمكن ذلك دون أن أشكّل عبئًا على هؤلاء النّاس الرّائعين، وسببًا في زيادة أعبائهم وتعاستهم أيضًا.

قال محمّد: «النّسوان رح يجوا لعندك بكرة، أمان أكتر إلك» نظرت إليه وإلى نورا التي كانت تقوم بقصّ قماشة على الحصير. لقد استطاع فهم ما أفكّر فيه. «والله مو خايفين عليك من النّاس، خايفين من المرتزقة واللّصوص... وولاد الحرام» قالت نورا، وهي تنظر إليّ بحزن شديد. صمتّ، لكنّني قرّرت الذّهاب إلى «كفرنبل» الآن، أفضل وسيلة ليشعر الجميع بالأمان. لقد صار وجودي بينهم خطرًا عليهم.

المركز الإعلاميّ في «كفرنبل» كان قد تغيّر كليًّا، بيت كبير مكوّن من غرف عدّة، وهو مركز لاستقبال صحافيّين عرب وأجانب ونشطاء وناشطات كانوا اضطرّوا للخروج من مناطق النّظام بعد أن لاحقتهم قوّات المخابرات، وعادوا من الشّمال للمشاركة في الثورة.

البيت له شرفة واسعة مطلّة على بستان زيتون، وهو مطلّ على شارع كبير. وكانت جلساتنا على الشّرفة. هناك مركز للشّباب أعدّ للتّدريب على إطلاق إذاعة خاصّة بريف «إدلب». قال لي رائد أنّ «الهدف منها هو إطلاق الفضاء العام للحكي والكلام، ولنناقش مشاكلنا بمسؤوليّة وشفافيّة». كان يرى أن هذا جزء من ديموقراطيّة قادمة.

رائد فارس، هو محور العمل هنا، ومرجعيّة النشطاء. خالد وعبد الله وأحمد وعزت وأسامة، هم ومجموعة من الشّباب الذين بدأوا التّظاهرات السّلميّة، كانوا يديرون نشاط التّظاهرات. وأحمد الرّسام،

كان يأتي بين حين وآخر، وهو كالعادة، وكما رأيته للمرّة الأولى هادئ وصامت. كانوا قلقين من بقائي في «سراقب» بعد حادثة خطف مارتن، وأرادوا أن أبقى عندهم حتى لحظة مغادرتي سورية. رائد يتحدّث بشكل دائم عن أمل قادم. لم يفقد الأمل من نجاح الثورة، رغم كلّ الانحرافات التي تعرّضت لها، ورغم تحوّل سورية إلى ساحة قتال لتصفية مصالح دوليّة. عبد الله يقول: «سنموت أو تنجح الثورة، أو سنموت وتفشل الثورة»، ويضحك. عبد الله شاب في العشرين من عمره، كرّس حياته ومنذ ثلاث سنوات للثورة. رائد كان يعمل في لبنان قبل الثورة. حمّود كان الرّجل المتفاني في العمل. معهم كانت رزان. الوقت كان يقترب من الإفطار، وانشغلوا بتحضير الطّعام.

على الشّرفة يتربّعون ويقوم رائد بإعداد سلطة الخضار. الشّباب الثلاثة الّذين كانوا يعملون مع «باص الكرامة» وهو مشروع مدارس النّازحين الّذي نعمل عليه مع رزان. هم طلّاب جامعة في أوائل العشرينات من العمر، حسن طالب اقتصاد، ويوسف وعزت وفراس في الأدب إنكليزي. صائمون. يحدّثونني عن آليّة نشاط العمل في المدارس الثّلاث في «كفرنبل» وقريتين أخريين، وكيفيّة عرض الأفلام السينمائيّة والنّشاطات الرّياضيّة والموسيقيّة للنّازحين الّذين تركوا قراهم بعد أن دمّرتها طائرات الأسد.

كان رائد يذهب ليأتي بالخضار من «معرّة النّعمان» تحت القصف. يقول أن الخضار هناك أرخص وأفضل. نحن نتحدّث، ونضحك. رزان تدخل وتخرج من المطبخ مثل المكّوك. هنا في «كفرنبل» كنّا نستطيع الجلوس في الهواء الطّلق، ورؤية أشجار الزّيتون التي تتجمّع تحتها أكوام من القمامة يتمّ حرقها باستمرار.

المركز كان بيتًا محتلًّا من جيش النّظام، ويبدو ذلك من آثار

الطّلقات المنتشرة فيه، ومن الثّقوب في جدار المطبخ التي كان يستخدمها القنّاصة لقتل النّاس. عندما خرج الجيش، قام الشّباب بتنظيفه، لأنّ صاحبه وهبهم إيّاه، لكنّ آثار الخراب كانت لا تزال واضحة.

أسند رأسي إلى عمود الشّرفة، وأفكّر في أنّ رأس جنديّ كان هناك، وأنّ رصاصة اخترقت جبهته، زعق اللّاسلكي: «طائرة فوق السّوق، طائرة عند السّاحة يا شباب»، وسمعنا الصّوت في اللّحظة ذاتها التي أعلن فيها أذان المغرب وهي لحظة البدء بالإفطار، انضمّ إلينا محمّد العطار ويارا نصير وإبراهيم الأصيل، وهم من السّوريّين النّشطاء الّذين كانوا يدخلون ويخرجون من الشّمال ويعملون على تفعيل النّشاطات المدنيّة. رأسي على الجدار، والشّباب يحملون كؤوس الماء للبدء بالإفطار. نحدّق في وجوه بعضنا. قال رائد: «يلا... صيامًا مقبولًا يا جماعة»، وأنا أخذت صحني وسكبت الطّعام، كذلك فعل الشّباب، حمّود صعد الدّرج، وبدأ القصف... تركنا الطّعام، اتّجهت إلى أحد الأعمدة الدّاخليّة وصرخت بهم ليفعلوا ذلك، كانوا تقريبًا في العراء، والحوّامة تعني أن القصف بالبراميل. ركضت وراء حمّود وصعدت الدّرج. كان المشهد نفسه يتكرّر في كلّ القرى. ولحقنا بعض الشّباب. ألقت الحوّامة البرميل على مقربة منّا، وسحابة الغبار لا تزال واضحة. صرخ حمّود: «انزلوا»، وهو وقف يراقب، رائد بقي واقفًا، ثمّ ركض بسرعة، ولحقه الشّباب. كانوا كما يفعل شباب «سراقب»، يريدون توثيق ما يحصل، ومساعدة الجرحى، والتّصوير. كانوا يقومون بمهمّة دولة. نحن نزلنا الدّرج. ومائدة الإفطار لم تمسّ. قال المقاتل الذي جلس ووضع اللاسلكيّ في حضنه: «خلص اليوم أخذنا حصّتنا، كلّ يوم قبل الإفطار أو في بدايته».

تجمّع من بقي حول الطّعام. كنّا ندخّن فقط. لم يمسّ أحد الطّعام. أضاف المقاتل الأربعيني: «منذ بداية شهر رمضان وهم ينتظرون أذان المغرب ويبدأون القصف إمّا بالطائرات أو بالصّواريخ، سمعتهم يتحدّثون على اللّاسلكيّ». يقول المقاتل. «كيف سمعتهم؟»، سألته. قال: «سمعتهم بأذني هذه»، وابتسم بمرارة، «ماذا كانوا يقولون؟». «كانوا يقولون أنّهم سيقومون بإعداد إفطار شهيّ لنا من البراميل... ويضحكون»، وأنا نظرت إليه باستغراب! «أي والله يا مدام، منلقط شو بيحكوا مع بعضهم وهنّي عم يزتّوا البراميل. واحد منهم وقبل ما يزتّوا البرميل: قله لرفيقه: يلا فطرهن للكلاب!» سألته: «وهل يتحدّثون هكذا مع بعضهم وهم يرمون البرميل؟» أجاب: «ليس دائمًا، أحيانًا، سوء حظّي خلّاني أسمعهم. هذا جزء من مهمّاتي».

أبو محمود، المقاتل الحزين والغاضب، والّذي أحاوره، كان يستمع لأحاديث الطّيّارين، هو أسمر البشرة ذو عينين زرقاوين. كان يعمل في السّعوديّة، في المقاولات، لمدّة ستّ سنوات، ثمّ عاد واشترى سيارة وبنى بيتًا في البلدة. عندما بدأت التّظاهرات السّلميّة قرّر ترك عمله كسائق، وتفرّغ للعمل الثّوريّ المدنيّ مع الشّباب. ولكن، مع دخول جيش الأسد «كفرنبل» تغيّر عمله، وصار يلاحق المخبرين بـ «البمبكشن»، كان هذا في الرّابع من تموز سنة ٢٠١١، وبعد ستّة أشهر حمل السّلاح، كان سلاحه بندقيّة بسيطة، ودخل في المعارك ضدّ الجيش هو ورفاقه. البندقيّة الرّوسيّة كانت غير مجدية، كما يقول، فأتى بقنّاصة كي لا يتعرّف النّاس إليه وهو يقاتل جيش الأسد. مع «لواء فرسان الحقّ» التّابع لـ «الجيش الحرّ»، وعندما بدأ طيران الأسد القصف، ترك القنّاصة وعمل على رشّاش ١٢,٧، وهو الآن رامي مضادّ طيران. يقول إنّه يحمي ناسه وأهله من القصف، رغم

أن سلاحه ضعيف. يخرج من بيته صباحًا ويعود في نهاية اليوم. لم يترك بلدته، وبقي مع زوجته وأولاده. يرى أنّ طريقهم طويلة، وأنّ دخول اللّصوص إلى الثورة مع بعض الكتائب الجهاديّة قد خرّبها.
أسأله وهو ينظر إلى السماء، وعينه أيضًا على اللّاسلكي، ماذا سيفعل بعد أن يتوقّف القتال. يبتسم بمرارة ويهزّ رأسه: «سوف أعود للعمل كسائق سيّارة، أرمي هذا كلّه»، وأشار إلى الرّشاش. قالها بقرف وأسى، ثمّ أضاف: «لم أكن أنوي حمل السّلاح، هذه أداة موت وأنا أريد الحياة. لقد قتل نظام حافظ الأسد أبي في سجن تدمر، حيث بقي مسجونًا لديهم إحدى عشرة سنة. عندما اعتقلوني في فرع الأمن السّياسيّ، قال لي العميد بهدوء: ما تعمل بأولادك متل ما عمل أبوك فيك... وهل تعرفين، أنا كبرت من دون أب، حرمني النّظام أبي وحرمني من حقوقي المدنيّة، ولم أعترض. خرجنا في تظاهرات سلميّة فقتلونا. وأنا لا أريد نظامًا إسلاميًّا، أريد دولة ديموقراطيّة ومدنيّة، أنا واضح...».

بينما هو يتحدّث، عاد الشّباب، ورووا لنا ما حصل، وأين سقطت القذيفة، وأسماء الجرحى: «المهمّ لا يوجد قتلى هذا اليوم... لنأكل»، قال رائد. كنت أنتهز الفرصة لمراقبتهم وهم يتناولون الطّعام، يأتي بعض الشّباب ويخرجون. مقاتل آخر انضمّ إلى المجموعة. كانت «كفرنبل» تستحقّ كل هذا الثّناء في التّاريخ القصير للثورة السّوريّة. كتائب «الجيش» الحرّ تسيطر على البلدة، ولم تنتشر فيها الكتائب والألوية الجهاديّة المتطرّفة حتّى تاريخ هذا اليوم، في نهاية شهر تمّوز.

حضر شباب «باص الكرامة»، وكان يجب الذّهاب معهم إلى مدرسة قريبة في قرية تعدّ من ريف «كفرنبل»، انضمّوا إلينا مرهقين.

الحديث كان عن تفاصيل القصف. مثل خليّة نحل، يدخلون ويخرجون. يعدّون الأدوات اللّازمة للعرض السّينمائيّ للأطفال. رؤية هذا الإصرار لمتابعة الحياة تحت القصف تعني الكثير لي. هم لا خبرة لديهم في المجتمع المدنيّ ونشاطه. كانوا يبتدعون صنوفًا من العمل المقاوم، حسن، الأسمر المتهكّم، عزّت اللطيف المهذّب، ولكن الغاضب. فراس الذي بالكاد نسمع صوته. عبد الله الملقّب بالتّمساح، الشّاب الحيويّ الجميل مثل لوحة لفارس من العصر الفيكتوري... أراقبهم جميعًا والغصّات تتوالى في حلقي، ولم أكن أستطيع حتّى التفوه بحرف، وأنا أمضغ طعامي. يحتفون معي وأحتفي معهم بمشاركة الموت. كان هذا يكفي لنكون أصدقاء. موتنا المؤجّل والحاضر دائمًا. يجب عدم التّفكير دائمًا في هذا الأمر، وإلّا سأصاب بالجنون من فداحة الظّلم.

والآن في هذه اللّحظة، واللّحظة التي أتت في اليوم الّذي تلاه، عندما طلبت منهم ترك مهمة إعداد الإفطار لي، كنت أكتشف نفسي، لأنّ الجذور الدّائمة التي اعتقدت أنّني أجيد تقطيعها، جذوري في العائلة، جذوري في الحب، في الدّين، في العمل الوظيفيّ، في فكرة الوطن، كلّ الجذور التي كانت تمرّ أمامي وأقتلع نفسي منها وأرمي ما تبقى منّي في تربة جديدة، إخلاصًا للحرّيّة والحقيقة المتبدّلة في عمري. كلّها نبتت فجأة، في لحظة سرّيّة، وأنا أمضغ طعامي وأراقب تدفّق الحياة في شبابهم.

في اليوم التّالي وأنا أطبخ لهم، ونتحدّث عمّا يمكن أن نفعله لنساء «كفرنبل» وأطفالها، والقرى المحيطة بها، احتفلوا بالمائدة التي أعددتها، كأنّهم تلقّوا هديّة عظيمة. عيونهم دائمة الامتنان، وكنت أدرك في أعماقهم الحاجة الماسّة إلى الشعور بأنّ ما حلموا به في

ثورتهم عندما خرجوا قبل سنتين، قد تحقّق بعضه، هم لا يريدون أن يصدّقوا أنّ ما يحدث هو حرب طائفيّة، والدّليل هو وجود هذه المرأة التي هي أنا بينهم. كانوا لا يأتون على ذكر الأمر إلّا مزاحًا، كما حصل بعد أيّام عدّة. وعندما بدأت الطّائرة القصف، وكالعادة مع أذان المغرب، دندن رائد بأغنية «بالذبح جيناكم»، فردّ عليه شاب وهو يدندن: «فرقة رابعة». ثمّ بدأ الضحك والغناء. لقد حوّل هؤلاء الشّباب أغنيتين قام في إحداهما تنظيم «جبهة النّصرة» في «بنش» بجعل طفل صغير، يهدّد العلويين بالذّبح. وفي المقابل، كانت هناك أغنية باسم «فرقة رابعة» لطفل علويّ، يتغزّل فيها بقتل المناطق السنّيّة الثّائرة بطريقة بذيئة. كانوا يستخدمون الأطفال كأدوات كراهية. الشّباب في «كفرنبل» يغنّون الأغنيتين بسخرية ويضحكون، كأنّهم يلغون معنى الموت فيهما. قلت في قلبي: «لقد قهرناك أيّها الدّيكتاتور، هي لحظة، وربّما نموت بعدها، لكنّنا هزمناك، أنت تنتصر ربّما، لأنّك مجرم ونحن أبناء سورية التي كانت... في هذه اللّحظة هزمناك»، لكنّها لم تكن أكثر من لحظة، لحظة ومرّت، تكثّف القصف بعدها وغرقنا في صمت تامّ.

بعد أن ارتشفنا أكوابًا عدّة من الشّاي، كان من الضّروريّ التّحرّك للذّهاب إلى مدرسة الأطفال. تحوّلت غالبيّة المدارس أماكنَ سكن للنّازحين.

الكهرباء مقطوعة وأضواء بعيدة تلمع في السماء. القصف مستمرّ في «معرّة النّعمان»، ونحن نتركها خلفنا ونذهب في الاتّجاه المعاكس، حسام وأنا ورزان وفراس وعزّت وحسن.

كان عليّ تقليب الأمر في رأسي ونحن نجتاز بساتين الزّيتون والتّين، والسماء صافية، والقمر في أوج اكتماله بدرًا. إنّ ما يحصل

الآن هو أشبه برواية وليس حقيقة، وعليّ التّفكير في أنّ هذا الصّمت والسّكون، والبهجة التي تنقلب من السماء، ليست إلّا سحرًا خالصًا، وهي ليست خوفًا من الموت. الهناءات الصّغيرة التي تقطعها التماعات القذائف البعيدة، تؤكّد لي شكوكي بأنّ رغبتي في الموت هي ما يدفعني إلى العودة إلى هنا. ليست الرّغبة فيه، بل الانفكاك منه والدّخول فيه، ثمّ ما الّذي يدفعني إلى الضّحك الآن، وإلى تنفّس الهواء عميقًا وفتح النّافذة ومدّ رأسي إلى الخارج، وتركه يتأرجح. قال عزّت: «وصلنا».

كانت المدرسة تقع في قرية الدّار الكبيرة على هضبة، لا تبعد من «كفرنبل» سوى عشر دقائق بالسيّارة. لا أثر لضوء. المدرسة تعيش في ظلام دامس مثل القرى المحيطة بها. لكنّ أضواء خافتة وشحيحة تلوح من داخل الغرف. يأتي رجل ويرحّب بنا. رجل آخر، ينظر إلينا بازدراء، ويمضي. مجموعة من الشّباب الملتحين، تقف على طرف السّياج، تراقب ما يحصل بفضول، الأضواء، معدّات التّشغيل جاهزة، المسرح موجود. الشباب حضّروه منذ بداية عملهم. تدفّقت من مبنى المدرسة مجموعة من الأطفال، وانتشرت بيننا، وعلا الصّياح وتعالت الضّحكات والصّراخ، وخرجت الأمّهات.

هذه علاقة بالسّكون والموت. وهي ليست لوحة يتمّ تحويلها إلى سرد، هذه حقيقة! يتدفّق الأطفال، ولا أستطيع تمييز وجوههم في الظّلمة. يقفزون، ويتمّ فصل البنات عن الصّبيان، في مجموعات. هذا كان غريبًا، بعض الأمّهات تقدّمن منّي، إحداهنّ تعيش مع ثلاثة من أطفالها. تدمّر بيتها في «معرّة النّعمان». امرأة أخرى تركت مدينة «حلب»، وجاءت لتعيش مع أقرباء لها في «حيش»، فقد قُتل كثُر من عائلتها، وبقيت مع خمسة من أطفالها هنا. كانوا يقفزون حولها، طفلة

في العاشرة، بدأت تتقدّم وتغنّي، صوتها جهوريّ، وواضح، مبحوح، لكنّها تمسك بيد توأمها التي فقدت النّطق تحت القصف. كانتا هزيلتين. التي تغنّي تحاول إشراك أختها، قالت لي المرأة التي من «معرّة النّعمان»، إنّهما يتيمتان، فتدخّلت امرأة ستّينيّة، وهمست لي: «يعني إنتو ما عم تشوفوا هالناس شو عم يصير فيها، طيب ونحنا لأيمتى بدنا نضل هيك؟». جملة العجوز هذه أسمعها دائمًا! عندما أزور بعض البيوت في القرى المحيطة بـ «كفرنبل» وفي وسطها أيضًا. النّاس الّذين لم يشاركوا في الثورة لكنّهم آمنوا بها. كانوا يفقدون الأمل، بعد تجويعهم وحصارهم وقصفهم وقتل أولادهم. السّتّينيّة أمسكت مرفقي بقسوة، واقتربت منّي: «فقدت ثلاثة من أولادي، وبيتي راح بالقصف، وابني الرّابع عم يقاتل، وأنا هون مع ستّة من أحفادي، وهدون»، ثم أشارت إلى ثلاث نساء شابّات: «هدون كنايني». تيبّست أمامها.

اشتغل جهاز العرض السّينمائيّ، وانتشر الضّوء.

كان الشّباب يتحدّثون مع مجموعات الأطفال، وقد صفّوهم في صفوف منتظمة. المشروع يحاول إيجاد بديل مؤقّت للمدرسة، كي لا يبقى الأطفال في عزلة وتحت القصف. سيكون هناك جيل كامل لا يجيد القراءة والكتابة، وهناك محاولات لتجنيد الأطفال، وقد نجحت في مدينة «الرّقّة» من قبل تنظيم «داعش». «جبهة النّصرة» أيضًا تقوم بتجنيد الأطفال.

بدأ العرض، وأتقدّم للجلوس بينهم. عرض تعليميّ وتثقيفيّ وترفيهيّ، ثمّ حوار مع الأطفال. يتقدّم الكبار أيضًا. يأتي الجيران، لا هواتف هنا ولا كهرباء. على اليسار مجموعة من الشّباب الملتحين، تراقب شزرًا ما يجري. قال لي الشّباب أنّ هناك من هو غير راضٍ عن

عملهم، بخاصّة في ما يتعلّق بموضوع السّينما والرّسم والدّروس التي تُقدّم للأطفال، لأنّ هذا يعدّ كفرًا وحرامًا، ولكنّهم كانوا يراقبون فقط، ولم يمنعوا النّشاط. «من هم؟» أسأل: يقولون: «جماعة جبهة النّصرة، ومؤيّدو داعش... وبعض المتشدّدين».

لم أفهم بدايةً التّشويش الحاصل والانقلاب الّذي يتمّ تكريسه في الرّيف هنا. هذا يعني، وإذا استمرّ الوضع على حاله، أنّ أشكال الحياة المدنيّة كافّة ستزول. لكنّ النّاس يقاومون، هكذا تقول طبيعة الحياة. إنّ الطّبيعة تتغيّر وتتطوّر في اتّجاه المستقبل وليس نحو الماضي، لكنّ الخوف كبير من الكتائب الجهاديّة ومشروعها لإقامة دولة إسلاميّة.

في منتصف العرض، نسمع دويّ انفجار ضخم، فتلمع السماء ونضيء، ثمّ ألمح الفزع في عيون الأطفال. صاروخ يمرّ من فوق رؤوسنا باتجاه القرية الأخرى! على مقربة منّا سقطت قذيفة. لم يصرخ أحد. الأمّهات ركضن واحتضنّ الأطفال. شبابنا يصرخون، وأحدهم مكبّر الصوت يقول: «شو قلنا لما تقصف الطّيّارة وتنزل قذيفة... شو منعمل... وشو قلنا عن الاحتياطات؟»، لكنّ أحدًا لا يسمعه. كانت هناك مجموعة من التعليمات التي لُقّنت للأطفال في حالات كهذه، لأنّ الإسراع في الرّكض والفوضى، قد تتسبّب بأذيّة بعضهم بعضًا، كانوا يدوسون بعضهم، والصّغار منهم يظلّون تحت الأقدام. وكثيرًا ما تعرقل حركة المجموعات، ويبقون تحت مرمى النّيران، يصرخ رجل: «أوقفوا شاشة العرض، انتو عم تنشروا الضو وعم تجيبوا القصف علينا!» يطفئ الشّباب شاشة العرض، وتقترب امرأة منّا:

«ولك يابنتي شو عم تعملوا؟ بدكون تعلّموا الأطفال وتخففوا عنهم المصايب. لك بدهم ياكلوا... وبدهن يوقف ابن هالحرام

القصف... روحوا وقفوه عن القصف، ونحنا بألف خير... الله لا يوفقك يا بشار. ويلعنك أنت وعيلتك المجرمة». أجيبُ: «والله يا خالتي لو فينا نوقفه منوقفه... هاد اللي طالع بإيدنا».

الشّباب يلملمون قطعَ المولّد الكهربائيّ وبقيّة المعدّات.

الظّلام يعود شيئًا فشيئًا إلى المكان، والسّاحة تخلو من الأطفال ومن الكبار أيضًا، لكنّ وجوههم تراقبنا من زجاج النّوافذ في غرفة المدرسة، تقول رزان: «إذا نزلت القذيفة هيك ممكن يموت عدد أكبر منهم!» فيجيب شابّ من جماعة المراقبين الملتحين متهكّمًا: «هيك بكون حكم الله وقضاؤه وقدره».

حلّ الصّمت. هناك هسيس غريب. السماء أظلمت. ليل مطلق. ولا حتّى ضوء صغير. الشّباب يركبون السيّارة.

في اليوم التّالي سيتمكّن الشّباب، في المدرسة الثّانية، من إكمال العرض والتحدّث مع الأطفال.

المدرسة الثّانية كانت خارج «كفرنبل»، وتقطنها حوالى خمس عشرة عائلة وفيها أكثر من سبعين طفلًا. تتراوح أعمارهم بين الثّانية والثّالثة عشرة. غالبيّة المشاركين والمتحمّسين كانت من الفتيات. الصّبيان هؤلاء كانوا حذرين، ويقولون أنّهم رجال ومكانهم ليس هنا. أحدهم وهو في التّاسعة من العمر، قال لي بعد أن طلبت منه المشاركة: «شو شايفتني صغير! بكرة رح أهرب وروح لعند جبهة النّصرة». أنا بعرف قوّص». أخته ابتسمت، وقالت: «كذّاب. ما بيعرف يقوّص». كانت في العاشرة، وجميلة. فصرخ بها أن تصمت، لأنّه لا يحقّ لها الكلام في حضرة الرّجال. لم يكن الصّبيّ، ابن التّاسعة، الوحيد الّذي يفكّر في هذه الطّريقة، ابن أخ أحد المقاتلين،

كانوا يربطونه بالحبال، وهو لا يتجاوز الثّانية عشرة، بعمود البيت، لأنّه هرب والتحق بـ «جبهة النّصرة» من أجل القتال. وعندما استطاع أهله إعادته، سبّهم وشتمهم وقال أنّه بريء منهم لأنّهم كفرة.

كنت أشعر باليأس، فمهما كانت مشاريع الدّعم النّفسيّ والتّنمويّ والثّقافيّ وحتّى الاقتصاديّ التي يمكن أن تغطّي بعض مدارس النّازحين، أو بعض التّجمّعات البشريّة التي تعيش في العراء، فهي عاجزة، أمام حجم المآسي اليوميّة وهولها. هؤلاء الأطفال بالكاد يأكلون الطّعام، وهم يعيشون في نزوح دائم، والأيّام التي يحضر فيها شباب «باص الكرامة» لتعليمهم وتدريبهم غير كافية. حجم الكارثة الإنسانيّة أكبر من كلّ جهد يُبذل في سبيل إيقافها!

الأضواء المشحونة بالبطّاريات كانت تنتظرنا في المكتب. رائد وبعض الشّباب شغّلوا مولّد الكهرباء عندما وصلنا. كان احتفاء المجتمع الأهليّ والمحليّ بالنّاشطين الغرباء كبيرًا. حسام الّذي رافقني بسيّارته خلال وجودي بـ «كفرنبل»، كان بانتظارنا. يقول أنّه أنهى دراسته الجامعيّة قسم الأدب العربيّ، وكان يحلم بأن يكون أستاذًا جامعيًّا، لكنّهم قبلوا نيابة عنه ابنة أحد الضّبّاط، رغم أنّها لم تكن مجتهدة.

يصبّ حسام الشّاي لنا بحماسة، يتصرّف بتهذيب شديد. انشقّ عن الجيش في الشّهر السّابع من سنة ٢٠١٢، وهرب من دمشق عبر جبال اللاذقية، إلى ريف إدلب، وشارك في تحرير الحاجز الأول في «كفرنبل»، لكنّه بعد أسبوع رمى السّلاح، وعاد إلى نشاطه المدنيّ. لم يكن معجبًا بأداء «الجيش الحرّ» ولا الكتائب العسكريّة، هو لا يستطيع مجاراة ما يحدث من قتل ووحشيّة، ويقول أنّ هناك سرقات قام بها المقاتلون، هو غير راضٍ عن سلوكهم.

في «كفرنبل» نسبة تتراوح بين خمسين وستّين في المئة من الأهالي تعيش على زراعة التّين والزّيتون، ولا توجد تجارة. السّكّان بغالبيتهم من الموظّفين والمتطوّعين في الشّرطة والجيش، ومنهم من يعمل في لبنان، ومنهم نسبة من المثقّفين والمتعلّمين وقد زرت أحد هؤلاء لنهار كامل، وهو كاتب، لم يغادر «كفرنبل»، بقي مع زوجته وأولاده وأحفاده. بعد أن استشهد ابنه في القصف، صار يهتمّ بأحفاده.

حسام من الشّباب الّذين لم يجدوا فرصة للعمل، وعندما كان في الجيش، كانت خدمته في الفرقة الرّابعة، قال أنّهم في الجيش رفضوا إعطاءه إجازة. العقيد الّذي يشغل منصب رئيس قسم الهندسة في اللّواء، طلب منه تفخيخ سيّارة «سابا» لونها فضيّ. فعلًا، وصلت السيّارة إلى اللّواء ٤٢، وكانت سيّارة مدنيّة. ولمّا سأل عنها قالوا أنّ العقيد اشتراها، وهي ستُستخدم لمحاربة العصابات الإرهابيّة المسلّحة. كان العقيد وحسام يشتغلان بالسيّارة السّاعة الثّانية عشرة من بعد منتصف إحدى اللّيالي، وتمّ تجهيزها للانفجار. هذا العقيد خضع لدورة على يد خبراء روس. يحكي حسام قصّته بغضب: «بعد الدّورة، قام بتعليمنا بنفسه، وكنت أرافقه بالمروحيّة، إلى تلّ رحّال، وكان المكان محاصرًا بالثّوّار، والعقيد يتحدّث مع قائد الكتيبة ويسلّمه العبوات النّاسفة. اعتقدت أن عمل السيّارة سيكون في منطقة حرب، وكنت أصدّق قصّة العصابات المسلّحة». يهزّ رأسه بأسف. كان يروي قصّته حينذاك والسيّارة تجتاز بنا القرى المحيطة بـ «كفرنبل»، ونحن نعاين آثار قطع الأشجار وخرائب الآثار والتّجمّعات البشريّة الّتي تنتشر في العراء. كان هذا يشبه عودة الإنسان إلى الوراء آلاف السّنين، كأنّ الزّمن انقلب فجأة. أطفال ينامون تحت الأشجار. ونار تشتعل بين الحجارة الضّخمة. ووجوه حرقتها الشّمس. أطفال ونساء. وقليل من

الرّجال بينهم. الرّجال يذهبون للقتال، أو يموتون. وحسام مستمرّ في سرد قصّته: «أخبرني العقيد، أنّ السيّارة صارت جاهزة للتّفجير، وأنّ ما يلزمه هو تركيب الصّاعق فقط. هذا يعني أنّ أيّ شخص سيركب السيّارة، بعد تركيب الصّاعق، ستنفجر به، حالما يُشغّل محرّكها. في تلك الليلة، أيقظني العقيد السّاعة الثّانية عشرة.

لا يتوقّف حسام عن الكلام، تحت قيظ الشّمس، والعرق يتصبّب منه، وسهوب من الأشجار المقطوعة أمامنا، يمسح جبينه بمنديل مسترسلًا: «العقيد قال لي أنّ اثنين من الشّباب، سيذهبان معي لتركيب الصّاعق. وذهبت مع الشّابّين، كانا صامتين، ولم يتفوّها بحرف، ولم يردّا على أسئلتي. ظننت أنّنا سنذهب إلى أرض المعركة، وكنت قلقًا، لكنّني كنت أقوم بخدمتي الإلزاميّة، ولم يكن مسموحًا لي مخالفة الأوامر. في طريقنا، عرفت أنّ هذين الشّابّين الصّامتين هما من المخابرات الجويّة، والمفاجأة الكبيرة كانت هي أنّ السيّارة التي ذهبنا بها توقّفت في ساحة القابون الرّئيسيّة. ترجّلنا منها وإذا بسيّارتين تتوقّفان بجانبنا. قال الشّابّان أنّ اللّواء جميل حسن، يطلب منّا العودة بهاتين السّيارتين، أنا بإحداهما والشّابّان بالأخرى. كان ذلك مفاجئًا وصاعقًا بالنّسبة لي، لكنّني طلبت منهما حينذاك جهاز «الرّاشدة» الّذي يعطّل الإشارة، كي أتمكّن من وصل الصّاعق. ما فعلته أنّني وصلت الصّاعق بالعكس، بحيث لا ينفجر، لأنّني لو كنت وصلته بالشّكل الصّحيح لانفجرت عبوة وزنها خمسة وثلاثون كيلوغرامًا وأدّت إلى حصول مجزرة في ساحة مكتظّة بالنّاس. ما فعلت أراحني كثيرًا. أنهيت عملي وعاد كلٌّ منّا إلى مكانه. في اليوم التّالي صباحًا، غادرت مقرّ خدمتي. صدّقيني لقد صدّقت أنه يوجد إرهابيّون وكنت متحمّسًا جدًّا للدّفاع عن بلدي ضدّهم، لكنّ ما حصل جعلني أعرف الحقيقة.

لقد كانت عصابة الأسد هي الإرهابيّة».

هذه قصّة حسام الّذي يشاركنا الجلسة، ويغنّي، ونحن نرتشف الشّاي.

كان من المفترض أن يروي رائد اليوم حكاية «كفرنبل»، وكيف بدأت الثورة، وإلى أين انتهت، لكنّه قال أنّه سيفعل ذلك بعد ذهاب الجميع. وأنا ورزان كان علينا الذّهاب قبل السّاعة الثّانية عشرة إلى البيت. هذا أفضل، مع أنّ الشّباب ما كانوا ليتركونا نتحرّك وحدنا. وهذا كان سجنًا أكبر، فنحن نساء وغريبات، وحاليًّا حتّى نساء البلدة لا يتحرّكن بمفردهنّ، فقد كثرت حكايات الخطف والسّرقة والقتل.

النّسمات العليلة التي هبّت من بساتين الزّيتون أزالت تعب النّهار الطّويل الّذي يحتاج إلى روايات طويلة للكتابة عنه، وأختصره ببضع جمل. النّهار الّذي يحوي السماء الزّرقاء وأصوات الطّيور، والتحام السماء بالسّهوب الخاوية، عيون النّاس القلقة وهي تتجمّع أمام البيوت قبل موعد الأذان، وحركة السّوق الضّعيفة، ثمّ ذلك اليأس الّذي أكّدته العائلات التي زرتها، لا يريدون حكم الأسد المجرم، هكذا كانوا يصفونه، لكنّهم، في المقابل، لا يريدون حكم الدّولة الإسلاميّة والخلافة والعودة بالتّاريخ إلى قرون مضت. شاب يدرس في الجامعة، ولم يلتحق بالعمل العسكريّ، قال: «نحن تحت احتلالين، الاحتلال الأسديّ، جاء بالاحتلال الجهاديّ التّكفيريّ، لقد تعبنا»، وتضيف أمّه: «تعبنا ونريد أن نعيش... يالله... يالله»، ثمّ ترفع يديها نحو السماء. حصل هذا في دكّان صغير، فيما كنّا نشتري بعض الموادّ الغذائيّة قرب المكتب. لا يمكن الحديث عن هذه الأمور ببساطة. النّاس هنا، كيف يأكلون، يستحمّون؟ كيف يزورون بعضهم، ما الّذي يريدونه؟ ومن بقي منهم على قيد الحياة؟ كان ذلك صعبًا، لأنّ نفورهم

الواضح من الإعلاميّين والصّحافيّين كان يزداد. أحدهم من أصحاب المحال، صرخ وأنا أصوّر بجهاز «الآيباد»: «يا آنسة... إذا صورتيها بجي النّظام بيقصفها، يرضى عليك روحي من هون، ماتوا اتنين من أولادي وكومة الحجار هي... كانت بيتي». قلت له: «تكرم يا عم»، وانصرفت.

بعد انصراف الشّاب، بقيت أنا ورائد ورزان وحسن وعزت وحمود، وكانوا يحضرون للرّسم على جدران «كفرنبل» صباح اليوم التالي. جدرانهم ولوحات الكاريكاتور التي يصوّرونها ويوزّعونها لجميع أنحاء العالم، كانت وسيلتهم الأقوى لنشر معاناتهم. لم يكن الإرهاق باديًا على رائد، وأنا حاولت الاستفادة من حيويّته. أسامة الذي يعمل في الإذاعة داخل القبو، حضر واتّفقت معه صباح اليوم التالي على تدريب الشّباب على إعداد البرامج الإذاعيّة. قال أنّه سيبقى معنا، فقلت: «لو نشرب قهوة، أمامنا حديث طويل». قال: على راسي والله». فهم تمامًا ما أردته. لم يكن بحاجة إلى كثير من التلميح. كان ذكيًا جدًا، ويدرك أنّه يقود مجموعة، ولم أعرف ما إذا كانت هذه ميزة إيجابيّة أم سلبيّة، ربّما تتضح في المستقبل. حتّى الآن أثبتت التجربة أنّ الثورة كانت بحاجة إلى قيادات محليّة مثل رائد. قلت: «لنبدأ، أنت احكِ وأنا سأكتب».

دخل شابّان، وكانا في بداية العشرينات، قال أحدهما: «شو مدام كل شي تمام؟ هون ما في خطف ولا شي، أنت بأمان». شكرته، ولم أسأله من هو، فقد اعتدت على دخول الشّباب وخروجهم للاطمئنان عليّ بعد خطف مارتن. قدّرت بأنّهم يشعرون بأنّ بين أيديهم أمانة ويجب الحفاظ عليها.

بيدأ رائد حكاية كفرنبل والثورة، وأنا أكتب ما يرويه: «بدأت

الاحتجاجات في شهر شباط ٢٠١١. كانت هناك مجموعتان تكتب الشّعارات على حيطان كفرنبل ضدّ النّظام. في آذار، جلسنا بشكل محدود أنا وثلاثة أشخاص وبدأنا التّنسيق. لم يكن لدينا أيّ اتصال بمجموعات أخرى في سورية. تواصلنا مع الشّباب بسرّيّة تامّة، لنحقّق ثورة على نظام الأسد. نحن نستحقّ أن نعيش. بالنّسبة لي، أردت رؤية رئيس آخر لبلدي. لا نريد أجهزة أمنيّة مجرمة. نريد قضاء وقانون. نحن نستحقّ دولة، ولسنا عبيدًا عند آل الأسد. اتّفقنا على خروج أوّل مظاهرة في الخامس والعشرين من آذار. فشلت المظاهرة، وحينها أقام عضو فرع حزب البعث احتفالًا بنفس اليوم، ومشوا في كفرنبل في مسيرة تأييدًا لبشار، وهو ما حفّزنا للخروج في الجمعة التالية، ومن دون هتاف. كانت مظاهرة قويّة، وكنّا حوالى مئتي شخص أو ثلاثمئة. نصفهم كانوا مدسوسين من الأمن، لأنّهم أرادوا معرفة ما يحصل. المخبرون كثر في كلّ مكان في سورية، وكفرنبل مثلها مثل كلّ المدن والبلدات والقرى. صوّرنا المظاهرة ونشرناها. في الأسبوع الذي يليه لم نخرج، بعد أن اجتمعت معنا كبار العائلات ومنعونا من الخروج، وتمّ تشكيل لجان شعبيّة ووقفوا على أبواب الجوامع لمنع المظاهرة، نحن لم نرد سوى التظاهر ضدّ نظام الأسد والاحتجاج والمطالبة بدولة قانون وقضاء، لكنّنا عدنا وخرجنا في اليوم الخامس عشر من نيسان، وكتبنا التاريخ واسم كفرنبل، وكنّا نحمل علم النظام، وكتبنا على اللافتات: بالروح بالدم نفديك يا درعا يا بانياس. الله سورية وحرّيّة وبس. لقد خرجنا رغمًا عن العائلات التي كانت تخاف إجرام الأسد. وفي يوم السابع عشر من نيسان، تظاهرنا عصرًا لأنّه يوم الاستقلال، ونادينا بإسقاط نظام الأسد، وكتبنا ذلك على اللافتات وصوّرناها. جاءت سيّارات الأمن، وحوالى مئتي عنصر مخابرات، ووقفنا في مواجهتهم سلميّين. وجّهوا رصاصهم

نحونا. هم وجّهوا رشاشاتهم نحو صدرونا ونحنا وقفنا عزّلًا ورفعنا شارة النّصر. انسحبوا. تركت بيتي وتخفّيت، أنا والشباب. لم نعد ننام في بيوتنا. نأتي في النهار نرى أهلنا، وفي الليل ننام في العراء، وصرنا نخرج بشكل يومي في مظاهرات، وكانت الحاضنة الشعبيّة ضعيفة لأنّ أهالي كفرنبل خائفون، وهم لا يزالون يتذكّرون أحداث حماه ومجزرتها في عام ١٩٨٢، والتي راح ضحيّتها خلال أسبوع واحد أكثر من ثلاثين ألف قتيل على يد قوّات الأسد الأب ومخابراته. لم نتوقّف عند كفرنبل، كنّا نذهب إلى القرى المجاورة، وندفعهم إلى الخروج ضدّ النظام، قرية حزبرين، جبالا، معرزيتا، حاس، الهبيط، كفرعويد. كلّ يوم ننتقل من قرية إلى قرية. وذهبنا في المظاهرة مشيًا على الأقدام إلى معرّة النّعمان، وخرج معنا أهل المعرّة. في الثاني والعشرين من نيسان، كانت أوّل مرّة نكرّس فيها لافتات كفرنبل، واستمرّت منذ ذلك الحين كلّ يوم جمعة وصارت تقليدًا نوزّعه على شبكة الإنترنت، وانضمّ الكثير من الخائفين إلينا، وصارت تتراوح أعداد المتظاهرين بين أربعة وسبعة آلاف شخص. مع ذلك، كان خوف النّاس من مواجهة المخابرات كبيرًا، لن أنسى النساء وهنّ يرمين علينا الورود والأرزّ ونحن نصرخ مطالبين بالحرّيّة».

يتوقّف رائد عن الكلام متأثّرًا. يرسم خطًّا بإصبعه على الحصير قبل أن يشعل سيجارة. كنّا نتربّع فوق حصير بلاستيكي، ومجموعة وسائد طويلة. أنا مخدّرة بسبب التّعب. الشّباب يصغون بإجلال، رغم أنّهم شاركوا في كلّ الأحداث. يتابع رائد: «كنّا مطلوبين للأمن، وكان هذا بحدّ ذاته يجعل النّاس تخاف الاقتراب منّا، وفي الثاني من أيار داهم رجال الأمن بيوت الضيعة. كسروا بيوت النّاشطين بعد اقتحامها، واعتقلوا حوالى خمسين ناشطًا. فاعتصم الشّباب أمام المخفر، ودخلوا إليه. انضمّ بعض النّاس إلينا، ثمّ أقفلنا مخارج القرية

بحواجز من حجارة، وأشعلنا النار بإطارات السّيارات، وهدّدنا بحرق الشرطة والمخفر، إذا لم يخرج المعتقلون، وذهب وفد من كفرنبل لمفاوضة النّظام على خروج المعتقلين، وعادوا خائبين. في اليوم التالي، جاء أمين فرع حزب البعث، وسأل عن مطالب الناس، وكانت مطالبنا كالتالي: كفّ يد الأجهزة الأمنية عن النّاس، وحلّ هذه الأجهزة، وتغيير الرئيس. نحن ناقشناه بشكل هادئ، ولكنّي عندما قلت: أريد لسورية رئيسًا مختلفًا عن الأربعين سنة الماضية، سكت أمين الفرع، وبعد دقائق، قال: أنّه لا يريد شعارات في اللافتات ضدّ بشار الأسد، ولا يجب أن نلعن روح حافظ الأسد، وهذه هي الطّريقة الوحيدة لخروج المعتقلين. نحن لم نلعن روح حافظ الأسد، كلامه لم يكن صحيحًا، نحن فقط هتفنا لإسقاط بشار الأسد. في السّابع من أيّار، أجرينا انتخابات ديموقراطيّة للتّنسيقيّة». أقاطعه: «كيف بدأت التّنسيقيّة، وكيف تشكّلت؟». يضحك، ويقول: «والله منها لحالها!». ونضحك جميعًا.

كانت أصوات القصف بعيدة، ثمّ اقتربت أكثر، وكنّا نلتفت إلى مصدر الصّوت. قال حمّود: «ما تخافي ما بظنّ اليوم ننقصف»، ردّ حسن: «لا خلّيها تخاف، لأنه ممكن دائمًا ننقصف!»، فعلا الضّحك والقهقهة. لا يتوقّفون عن الضّحك، يتنفّسونه كمضادّ حيويّ للموت!

تابع رائد: «بدأت التّنسيقيّة بشكل عفويّ، في التّظاهرات ظهر أشخاص أكفّاء ونشطاء ومهمّون. كنّا خمسة عشر شخصًا، ياسر السّليم، المحامي، وحسن الحمرا وأنا... ولم يكن هناك اسم تنسيقيّة متداولًا. كنّا لجنة، ولم نستخدم حينذاك الفايسبوك، كان هذا منذ شباط سنة ٢٠١١. فعلنا كلّ ذلك بشكل عفويّ وارتجاليّ، وأردنا تنظيم الحراك الشّعبيّ. اجتمعنا في بيت أحدنا، وانتخبنا سبعة أشخاص

للمهمّات السّياسيّة والعسكريّة والإعلاميّة والتّنظيميّة، وعندما شعرنا بأنّ شرعيّة هؤلاء المنتخبين ليست شعبيّة كفاية، اجتمعنا في المركز الثّقافيّ وأجرينا انتخابات وأخبرنا جميع النّاس، وتشكّلت تنسيقيّة كفرنبل. في اليوم الأوّل من تمّوز، وكانت «جمعة الإرهاب»، خرجنا بمظاهرة كبيرة. لكنّ يوم الرّابع من تمّوز، دخل الجيش وقطّع أوصال المنطقة كلّها، نحن هربنا من كفرنبل. كنّا حوالى ستّين ناشطًا، وعشنا في خيم في العراء والبساتين وقرى أخرى. لكنّ النّاس كانوا يطردوننا من هذه القرى خوفًا من الجيش وأجهزة الأمن. في كفرنبل، كان هناك تسعة حواجز للجيش، وحوالى ألف وسبعمئة عسكريّ ومئة دبّابة ومئة عربة. دخلنا خفية وكتبنا لافتات داخل كفرنبل، رغم وجود القنّاصة والجيش، وخرجنا في تظاهرة من جامع العقبة، فتدخّل الجيش وأطلق النّار، فهربنا ثانية. الجمعة التي تلتها، يوم الخامس عشر، خرجنا في مظاهرة قرب كفرنبل، في معرّة صرما حملنا اللّافتات ووقّعنا عليها اسم كفرنبل. كان لا بدّ من العودة إلى كفرنبل، وعدنا. نقوم بالمظاهرة، ونهرب من أمام الجيش. يضربوننا ويطلقون النار، ونهرب. كنّا سلميّين ولم يكن لدينا قتلى، وكانت مظاهرات النّساء قليلة. خرجت مظاهرة نسائيّة يوم الثّالث عشر من أيّار».

يتوقّف، وأتوقّف أيضًا. أرتشف قهوتي، وأشعل سيجارة. أنظر إليه. يتأمّل اللّيل وأشجار الزّيتون التي تحيط بالبيت.

«وكيف حملتم السّلاح وتحوّلت الثورة من سلميّة إلى مسلّحة؟»، سألته. فأجاب: «لم نكن نظنّ أنّ النظام سيبقى، كنّا نخمّن أنّنا نستطيع إسقاطه بالإضراب والمظاهرات السّلميّة، لم نتوقّع ما حصل، لكنّنا فعلًا حملنا السّلاح».

يقول شاب غاضب، كان قد دخل ووقف أمام الباب: «شو يعني

كانوا عم يقتلونا ويقصفونا، شو منعمل منموت؟! ليش نحنا بدنا سلاح؟!».

يتابع رائد: «في جمعة العشائر، كان هناك مستودع محروقات للجيش، اسمه الآن وادي الضّيف، وما يزال حتّى اللّحظة. هذا المستودع فيه سريّة حراسة. نحن في جمعة العشائر، ضربنا مقرّ الأمن العسكريّ في معرّة النّعمان، بعد أن سقط لدينا شهيد، وقسم من شبابنا تواصلوا مع عسكريّ في وادي الضّيف، وأخذنا من هناك ٣ بنادق. وجئنا بها إلى كفرنبل، واستطعنا استعارة ستّ بنادق أخرى. أصبح عندنا ثماني عشرة بندقيّة، وطمرناها تحت التّراب في بساتين التّين، وصرنا نخرجها بقرار من التّنسيقيّة عندما نريد الدّفاع عن بيوتنا، وبقي هذا السّلاح مطمورًا ولم يستخدم، حتّى دخل الجيش. حينها قرّرنا حمل السّلاح ونبشه من تحت التّراب، ووضعنا شروطًا لحمله، لقد فعلنا ذلك مكرهين ورغمًا عنا، لم ولا نريد حتّى اللّحظة السّلاح! واستخدمناه بداية في حالات الدّفاع عن النّفس، كنّا نعيش في العراء والخيام ويلزمنا السّلاح للدّفاع عن أنفسنا ضد وحوش البرّيّة والوحوش الآدميّة. يوم السّادس عشر من آب خرجنا بمظاهرة. هجم الجيش علينا وانتشر في البلدة، وبدأ حملة اعتقالات واسعة. أحد الشّباب حاولت أمّه استعادته من بين أيديهم بعد اعتقاله، فرموها أرضًا، فوقعت، وانكشف رأسها على الملإ، ما استفزّ مشاعر النّاس واجتمعوا مع الشّباب، وجمعوا السّلاح، وذهبنا إلى حاجز العيّار، وقرّرنا الرّد على إهانتنا بشرفنا. كان معنا بندقيّة واحدة وقنّاصة. بقينا ساعتين، قتلنا ستّة عناصر من الحاجز، ومنهم نقيب في الجيش. هكذا بدأ العمل المسلّح. في اليوم التّالي لتلك الحادثة، نزل الجيش بكثافة بين النّاس، واعتقل الكثير منهم، وحوّلوا معمل السّجّاد معتقلًا لهم،

وكسروا البيوت. كان الاعتقال جماعيًا وعشوائيًا... لقد كنّا مجرّد مدنيّين ونتظاهر! أنا كنت أعمل في لبنان قبل ذلك، وأنا مسلم ولكني أريد دولة مدنيّة ديموقراطيّة، فما الذي فعلناه حتى يحدث كلّ هذا؟ صرنا نعيش في العراء، ولم يكن بيننا مثقفون. نعرف بعضنا لأنّنا أبناء بلدة صغيرة، ونحن أقرباء. وكنّا من سبع إلى ثماني مجموعات غير مسلّحة، ولكنّنا صرنا مسلّحين بعد ذلك، هناك أشخاص رفضوا حمل السلاح وبقوا ناشطين مدنيّين. وكانت هناك ستّ مجموعات مسلّحة أصبحت سبعًا. كلّ مجموعة كان فيها من عشرة إلى أحد عشر شخصًا، يرأسهم رجل كلمته مسموعة ومحترمة. كنّا نتوزّع فقط للدّفاع عن البلدة، وبدأ المغتربون من أهالي كفرنبل يرسلون إلينا المساعدات. وصرنا نتقاسمها. بدأ ذلك في شهر آب ٢٠١١، كنّا نعطي الرجل المتزوّج ستة آلاف ليرة سوريّة، أمّا العازب فنعطيه ثلاثة آلاف. كانت المبالغ قليلة والناشطون قليلين. في شهر تشرين الثّاني، أنشأنا أول كتيبة وكان اسمها: كتيبة شهداء كفرنبل، وصارت لاحقًا جزءًا من الجيش الحرّ. خطّتنا اقتضت بضرب مواقع الجيش ليلًا، اثنان يقودان درّاجة ناريّة، يطلقان النّار على الحاجز ويهربان، ثمّ يضرب الحاجز علينا كلّ اللّيل. وفي الوقت نفسه تأتي درّاجة عليها اثنان من جهة معاكسة وتطلق النّار في اتّجاه الحاجز نفسه. نحن نضربهم، وهم يبقون مستيقظين طوال اللّيل. بهذه الطريقة، كنّا نمنعهم من التّحرّك ليلًا وإيذاء المدنيّين. نقوم بهذه العمليّة مع الحواجز التّسعة المحيطة بكفرنبل! يشدّد على جملته الأخيرة، كأنّه يريد تقديم تبرير ما.

يكمل: «نعم، كنّا نفعل ذلك لأنّهم كانوا يؤذون أهلنا ونحن أردنا إيقاف الأذى بهذا الشّكل. يكسرون بيوتنا ويعتقلون شبابنا. لقد أردنا إخافتهم فقط! في هذه الفترة، انشقّ المقدّم أبو المجد. هو أوّل ضابط

منشقّ، والتقينا به، وأراد العمل معنا. خفنا بداية، لكنّا عملنا معًا لاحقًا، وصار قائد كتيبة شهداء كفرنبل، والتي صار اسمها كتيبة فرسان الحقّ. صوّرناها وأعلنّا تشكيلها عبر رابط ڤيديو. حينها كان النّاس يحترموننا وينظرون إلينا بهالة من القدسيّة، ويتبرّعون لنا بما يستطيعون ويقدّمون كلّ أنواع المساعدة الممكنة. كانوا في غالبيّتهم مع الثورة، وبقيت الحاضنة الشّعبيّة للثورة تتراجع وتتقدّم بين حين وآخر. صرنا نصنع ألغامًا محلّيّة أمام عربات الجيش، بالسّكّر والسّماد، وبعض الموادّ مع فتيل، وذلك كي نحمي المظاهرات من تقدّم الجيش. وهنا بدأت النّاس تشعر بالانزعاج من تخريب الطّرقات والشّوارع والتّفجيرات. كانوا ضد ما فعلناه، ونحن أردنا منع دخول الآليّات العسكريّة إلى كفرنبل. اختلفنا مع أهالي البلدة من أجل هذا التّكتيك الجديد. ماذا كنّا سنفعل؟ كان شبابنا يموتون تحت التّعذيب، ووجدنا جثثهم بعد تحرير كفرنبل في حديقة المدرسة التي كان يوجد فيها الجيش. وازداد غضب الأهالي من عمليّة تبادل إطلاق النّار المستمرّ بيننا وبين الجيش، لأنّ البيوت تتضرّر وتتخرّب. وازدادت حدّة القتال في اللّيل والنّهار وصارت الشّوارع مسرح حرب، ومعها ازداد غضب الأهالي، وصرنا ضعفاء. نحن اتّهمنا الأهالي بالتّقصير في حقّنا وتُركنا لوحدنا، واتّهمونا بتدمير البلدة. وتخلّت عنّا الحاضنة الشّعبيّة، ولم يعد الأهالي يقدّمون لنا المساعدات. وعندما قامت الهدنة بين الجيش النّظامي والجيش الحرّ، كان لدينا أمل بالضّغط قبل موعد الهدنة في اليوم العاشر من الشّهر الرابع، حينها جاءت المساعدة من المجلس العسكريّ، ووصلنا سلاح، وكان هذا في نهاية شهر نيسان سنة ٢٠١٢. كنّا نشتري قذائف آر بي جي، وتكون غير صالحة للاستعمال. خدعنا تجّار السّلاح، ومات أحد الشّباب بسببها، لذلك وجدنا أنفسنا

ضعفاء، ولكن مع مساعدات المجلس العسكريّ، وصلتنا عشر قاذفات آر بي جي جديدة. أظنّ في تلك الفترة، انتهى عصر الأسد في كفرنبل، وبدأنا بضرب الحواجز. كان حاجز العيّار هو أوّلهم، وكان هذا في الشّهر السادس. حينها بدأ جيش النّظام بقصفنا بالدّبّابات، بقذائف الفوزديكا، وكما ترين الآن، قد تسقط علينا قذيفة في أيّ لحظة. كانوا يقصفوننا بشكل دائم، ونحن لم نتوقّف عن القتال، وعن مهاجمتهم، حتّى قمنا بتحرير خمسة حواجز. كانت لحظة التّحرير الحقيقيّة قد بدأت السّاعة الثّالثة صباحًا. زرعنا حول بناء الجيش الألغام وفجّرناها. كان حاجز من قرية حزيزين بدبّاباته، ومعركتنا في مساحة صغيرة، وصاروا يقصفوننا من الحواجز، ونحن نهرب في كلّ الاتجاهات، والقصف يلحق بنا. جلست حينها قريبًا من القصف، وأكلت تفّاحة، كنت أنتظر الموت. ثمّ انسحبنا، واعتقدنا أنّنا سنأتي لتحريره في اليوم التّالي، لكنّ الحواجز انسحبت لمقرّ البلديّة، والحواجز الأخرى ذهبت لوادي الضّيف، وبقي فقط حاجز البلديّة، وثلاثة حواجز في كفرنبل، يعني كلّ الحواجز المحيطة بنا في القرى انسحبت إلى وادي الضّيف، في تلك الفترة، بدأنا نكتب كفرنبل المحرّرة، بعد أن كنّا نكتب في لافتاتنا: كفرنبل المحتلّة، وكان هذا في الشهر السّادس من سنة ٢٠١٢».

نهض حمّود، وقال بخجل: «لازم ينتهي الحديث».

كانت السّاعة قد تجاوزت الثّانية عشرة ليلًا، وانتبهت إلى أن سيخًا حادًّا من الألم يخرج من أسفل ظهري وينتهي في أصابع قدمي، وأنّ رجليّ متيبّستان ولا أستطيع التّحرّك. نهض رائد وقال: «غدًا نكمل»، وأنا لم أستطع التّحرّك، ولوهلة خيّل إليّ أنّنا نخرج من قبر عميق، وأنّني عندما أكتب، أشبه ورقة شجرة سقطت منذ زمن وداستها

الأقدام واهترأت وتحوّلت غبارًا يرحل نحو قمّة جبل بعيد!

هكذا ولا شيء أيضًا يمكن أن يحوّل الحياة هنا إلى معجزة. كيف لي اختيار الموت بهذه الطّريقة؟ وأين يكمن كلّ هذا الشّرّ السّهل؟ الشّرّ الّذي خرج فجأة من الجحور، وتوزّع في الهواء. شرٌّ يولّد شرًّا، في دائرة لا متناهية من الدّوران، وها نحن نصعد في هذه الدّائرة الحلزونيّة. أنهض وأشعر بأنّني أصعد في زوبعة من الشّرّ، ولا خيار لي سوى الاستسلام لنهايتها. وحده هواء اللّيل ونحن في الطّريق إلى البيت، أنقذني من ذهول هاويتي.

كان ضوء السيّارة يشقّ الظّلام الكامل، ويجب الصعود إلى بيت رزان. كانت تستقبل فيه النّاشطات اللّواتي يأتين للعمل المدنيّ في المناطق المحرّرة، ثمّ تضاءل وجود النّاشطات والنّشطاء، لأنّ عناصر «داعش» وبعض الكتائب المرتزقة يخطفونهم، و«جبهة النّصرة» تلاحقهم. كانوا ينظرون إلى النّاشطين المدنيّين بصفتهم كفّارًا، وقد بدأت عمليّات اعتقالهم وخطفهم وتصفيتهم منذ أشهر، مع ذلك كانت كفرنبل تتمتّع بحصانة، لأنّ وجودهم فيها قليل، لكنّه بدأ بالظّهور.

وجودي بالنّسبة للشّباب هنا أيضًا مسؤوليّة كبيرة. كنت ألتزم بكلّ ما يقولونه حرفيًّا، وعقدت العزم على الذّهاب إلى المعركة، أو على الأقلّ إلى أحد خطوط الجبهة. لا أعرف ما كان يدفعني إلى ذلك. ربّما هي العلاقة مع الحقيقة. ليست الحقيقة المطلقة، بل النّسبيّة. كان يجب أن أرى كلّ شيء بأمّ عيني. في العودة إلى سورية بين وقت وآخر متسلّلة ومتنكّرة، لم يكن فقط من أجل إنشاء مراكز تنمويّة للنّساء أو مدارس للأطفال. لقد كنت أبحث عن علاقة ما مع هذا الشّرّ المتناسل من أبسط الأشياء. البحث عنه، عبر الكتابة عن حقيقته. ما هو وما أصل سهولته! أحاول فهم الشّرّ. لأنّني لم أكن أستطيع الوجود

على الضفّة الأخرى، حيث يتمّ تصنيعه، في المناطق التي يسيطر عليها النّظام، وهنا على هذه الأرض حيث أقف ينمو الشّرّ باعتياديّة.

ربّما كنت أعود لأواجه المرايا الموشوريّة التي قطّعت أوصالي وجذوري. ففي هذه الحرب التي بدأت تأخذ أبعادًا طائفيّة فُرضت عليها، كنتُ وحسب المولد أنتمي إلى ذلك المكان، ولكنّني أيضًا لا أنتمي إليه، وحسب الفهم المنطقيّ لعلاقتي بالحرّيّة، فأنا أنتمي إلى هذا المكان الّذي أضطرّ للتسلّل إليه سرًّا، ويرفضني، بعد أن احتلّته الكتائب التكفيريّة.

توقّفت السيّارة، وكان يلزمنا المرور عبر ممرّ ترابيّ، يوصل إلى البيت. أنا ورزان نصعد الدّرج، معنا مصباح كهربائيّ صغير، وفي البيت نضع المصباح على رفّ صغير في الغرفة، لإنارة المكان. شحْنه كان يتمّ في المركز الإعلاميّ، فالكهرباء مقطوعة بشكل دائم. الماء أيضًا مقطوعة، وعلينا الاستحمام بتقتير، والنوم تحت ملاءة لأنّ البعوض قد يلتهمنا! هذا ما قالته صبيّة لي وهي تعاين وجهي صباح اليوم التّالي وآثار اللّسعات بادية عليه!

تحت بيت رزان، غرفة واسعة يعيش فيها نازحون. خمس عائلات متقاربة، مع عدد كبير من الأطفال. تركت بيوتها بعد قصفها، حيث قُتل ثلاثة رجال منها، ولم يعد لديها مكان يؤويها. تتجمّع نساء العائلة تحت النّافذة. اثنتان منهنّ حاملان. أسترق السّمع إلى أحاديثهنّ وأنا أصحو. كنّ نحيلات جدًا، حتّى الحاملان منهنّ. يدهشني جمال عيون أطفالهنّ صباحًا.

وأنا أفتح البوّابة الحديديّة لأراهم وقد احتشدوا تحت شجرة الرّمّان، وفوق الأحجار التي تشكّل سورًا للبيت المقابل، يحدّقون بي بفضول. شبه عراة، حفاة وشعورهم لونها أغبر، وجوههم متّسخة. أجلس معهم تحت الشّجرة، وكلّ منهم يروي حكايته.

في كلّ مكان نتحرّك فيه، نجد نازحين وعوائل مشرّدة. اليوم ونحن نصعد ليلًا، كانت الطّبقة الأولى مظلمة، وكنت أفكّر في الأطفال، وأمّهم الحامل. أبوهم قُتل في القصف، وعمّهم أيضًا. عمّهم الثّاني، يأتي ويذهب بين وقت وآخر، وهم جميعًا لا يذهبون إلى المدرسة منذ سنة ونصف، ويتنقّلون من مكان إلى آخر، وينامون أحيانًا في العراء.

أقول لرزان ونحن نصعد الدّرج متسلّلتين حتّى لا نوقظهم: «إنّهم نيام». تقول، وقد بدا التّعب عليها: «أريد تدخين سيجارة بهدوء».

اكتشفت أن صمتًا ساحرًا يلفّ اللّيل، وأنّ السّاعة قاربت

الواحدة، وأنّني لا أستطيع حتّى تحريك قدميّ، أو منع جفوني من الإطباق. كانت السّعادة تغمرني لوهلة لأنّني لست خارج حدود سورية، أردتُ البقاء كلّ عمري هنا، في سحر هذه اللّحظة. اللّحظة التي تحوّلت لاحقًا مشهدًا ثابتًا في عقلي لا يتزحزح من أمام بصري وداخل بصيرتي.

دوّى انفجار قويّ، كانت القذائف بدأت تتساقط، مع ذلك غفوت بعمق حتّى الخامسة فجرًا.

صباحًا أفتح عينيّ على صوت القذائف. أستيقظ وبي حاجة للعودة إلى العتمة. أريد عمرًا مثل أهل الكهف. قدماي تشتعلان بلسعات البعوض. أرتشف القهوة بصحبة رزان التي كانت معتقلة قبل أشهر، وشاركت في الثورة، وهربت من سورية، ثمّ قرّرت العودة والعمل في الشّمال.

أضع دفتري الصّغير ومهمّات اليوم. كلّ يوم في الشّمال السّوريّ يجب أن يعادله إنتاج شهر كامل من العمل: هكذا، كنت أردّد دائمًا. أن أبقى لشهر كامل، يعني أن أنجز عمل أشهر عدّة. هكذا كان المفترض، لكنّ الظّروف لم تكن دائمًا توفّر لي ما أريده. القصف المتواصل يشلّ الحياة، ويحوّل البشر كائنات مذعورة وجائعة.

اليوم من مهمّاتي، درس للشّباب في الإذاعة، الذّهاب إلى مركز النّساء، ولقاء أحد الكتّاب من «كفرنبل»، ثمّ الذّهاب إلى «معرّة النّعمان»، والعودة ليلًا لأكمل قصّة الثورة في «كفرنبل».

في المطبخ، تضع رزان أدواتها بترتيب. تغلق أكياس القهوة والسّكّر بملاقط غسيل، تنشر الغسيل على الأبواب ومقابضها. تفتح باب خزانة فيها مرآة طولانيّة نستخدمها كبديل عن مرآة الحمّام. البيت كان مجاورًا لبيتٍ قُصف. يطلّ شباكّي على البيت المقصوف، وعلى هضبة وراءه، حيث يتركّز القصف. أستيقظ اليوم على همس ناعم بين طفلين يجلسان في زاوية حوّلها القصف خيمة! الطّفل الأول يبدو في السّادسة والثاني أكبر. الجدار نمت عليه أعشاب، وفي الزّوايا، تجمّعت أزهار صفرٌ صغيرة، وعلى الأرض حيث تربّع الولدان، مجموعة من أكياس النّايلون البيضاء. كان الولدان يعدّان دُحلًا (كرات زجاجيّة صغيرة) حمرًا وخضرًا وصفرًا. يُخرج أحدهما من جيبه قطعة قماش، يفردها، ويلعبان. كانا من بيت مجاور لبيتنا. السماء زرقاء. غيوم بيضٌ صغيرة وناعمة تمرّ بهدوء، وأصوات قصف تتعالى. أبتعد عن النّافذة، الانفجار قريب، أصرخ برزان لتستيقظ وتحتمي بالعمود. لا أستطيع البقاء هكذا. لحظة وأركض إلى النّافذة. الطّفلان لا يزالان في مكانهما، يقومان بتبادل الدُّحل. شعرت باطمئنان لأنّهما بخير، وارتميت على الوسادة.

النّاس الّذين لا يكتب قصص بطولاتهم أحدٌ، أو كيف سيقومون بتغيير البلد، هم أنفسهم كانوا غير مكترثين بالشّعارات الكبيرة أو الكلمات الرنّانة. النّاس الّذين أراقبهم في حيواتهم هنا وأراها بوضوح، قد غيّروا حياتي. نعم، على هذه الدّرب الصّغيرة التّرابيّة التي لم تنجُ من القصف، والتي تصطفّ على جانبيها البيوت، وتنبت في حوافها الأعشاب. هؤلاء المجهولون والمغمورون، والّذين يركبون دراجاتهم النّاريّة وقد يُقتلون من أجل شراء ثلاثة أرغفة من الخبز، هؤلاء يتنفّسون هنا ويعيشون حياة يوميّة مريرة. تمرّ القذائف فوق

رؤوسهم وتهدم الطّائرات بيوتهم وتحرق بساتينهم. يستيقظون كلّ صباح ممتنّين لأنهم ما زالوا على قيد الحياة. عاشوا بين زواريب الأحجار وتحت أشجار الزّيتون والتّين. هكذا بكلّ بساطة، وكما يتحوّل اللّيل والنهار، يتقدّمون في العمر وينجبون الأولاد ويموتون بلا ضجيج. بسرعة خاطفة تمرّ حيواتهم. لا أحد يكترث بهم، ولا يفكّر في ما يريدون، وهم يجلسون الآن على مصطباتهم. النّساء بغالبيّتهم هنا يفترشن الأرض مع أزواجهنّ أو ما تبقّى من الأزواج، والأطفال يركضون ويلعبون في مساحة ضيّقة ومحدودة. العائلة التي تفترش الأرض وأمرّ بأفرادها في دربي الصّباحيّ، مكوّنة من خمسة أطفال ورجل وزوجته. كانت تناقش ما إذا كان بإمكانها الحصول على ليترين إضافيّين من المازوت فقط. تسألُ المرأة زوجها عن المكان الّذي يباع فيه البصل، والبنت الكبيرة ذات السّنوات الاثنتي عشرة تكنس المصطبة، وترشّ عليها من إبريق ماء بلاستيكيّ صغير بضع قطرات. الأب ينظر إلى السماء حينًا، وإلى زوجته وطفلته الرّضيعة حينًا آخر، يهمهم بكلام لا أسمعه، وأنا أقول: «صباح الخير»، فيردّ الجميع بفضول وحبور: «صباح الخير»، ثمّ أتابع طريقي.

حسام ينتظرني في السيّارة. طلبتُ منه معاينة أماكن القصف والدّمار في البلدة. لم تكن مختلفة عن غالبيّة البلدات والقرى في ريف «إدلب». تتفاوت نسبة الخراب فقط. في «كفرنبل»، نسبة الدّمار متوسّطة. لا تقارن بـ «المعرّة» التي سنذهب إليها بعد الظّهر. لكنّني، وخلال ساعة ونصف، صوّرت أماكن الدّمار، المدرسة، وخزّان الماء الكبير. كانت خزّانات المياه هدفًا لطيران الأسد. منع مياه الشّرب عن القرية المستهدفة هي سياسة متعمّدة للنّظام. المدارس أيضًا تُقصف، وتحوّل بعضها مراكز للكتائب العسكريّة.

وسط الأسواق، كان هدفًا للقصف في غالبيّة المدن والقرى. في ساحة السّوق ووسط البلدة، ألقت الطّائرات خلال الظّهيرة ثلاثة براميل متفجرة، فقتل ثلاثة وثلاثون شخصًا خلال دقائق. إلى يمين الساحة، قُصف جامعها الأثريّ القديم. كان القصف عشوائيًا. ونحن نمرّ بساحة السّوق المهدّمة، حيث بنى أهالي «كفرنبل» عمودًا حجريًا من الرّخام، نرى عليه أسماء الشّهداء الّذين قضوا في قصف الطّائرات. الحركة في السّوق طبيعيّة، يقول حسام، عادة الحركة لا تتوقّف، ولكن، منذ بدء الثورة قلّت كثيرًا. المخازن ومحالّ الخضار والعربات لا تزال على حالها. أراقب مجموعة من الأطفال أمام عربة من الخضار، أكبر ولد فيها في الخامسة عشرة. الأطفال كلّهم يصيحون. حناجرهم قويّة، يضحكون. يروحون ويجيئون بين عربات عدّة.

نعود إلى المكتب الإعلاميّ، ونبدأ مع شباب الإذاعة درس إعداد البرامج. يقول حسام أنّه سيغيب ساعة ويعود ليأخذني إلى مركز النّساء.

القبو الخاصّ بالإذاعة كان مؤلفًا من ثلاث غرف متداخلة، كلّ غرفة تؤدي إلى الأخرى. حصائر بلاستيكيّة وبضع وسائد من الإسفنج. دخلنا غرفة التّسجيل والبثّ. كانت صغيرة. بالكاد تكفي لشخص واحد. أدوات ومعدّات بسيطة. يقومون بالبثّ التّجريبيّ، ويحضّرون للحديث مباشرة مع النّاس. لم يكن للشّباب خبرة في العمل الإعلاميّ. ما أرادوه هو أن ينقلوا حيّز الكلام إلى الفضاء العام، وأن يكون مسموحًا لهم أن يناقشوا مشاكلهم الحياتيّة واليوميّة بشكل معلن. يخبرني أسامة، وهو مهندس شابّ في أوائل الثّلاثينيّات، أنّه يريد التّفرّغ للعمل في الرّاديو ويحضّر هو وعزت وأحمد برنامجًا للحديث عن الشّؤون اليوميّة لأهل «كفرنبل»، مشاكل الإغاثة، السّرقات،

الانتهاكات التي تتمّ على أيدي الكتائب العسكريّة، وهذه كانت أصعب الأمور التي يمكن الحديث عنها.

يقول شابّ صغير السّنّ، لم يتجاوز العشرين: «خلّصنا من عسكر الأسد، إجونا عسكر الجهاديّين».

القبو حارّ. وكان القصف قد بدأ، ونزل بعض الشّباب إليه. القصف كان من المدفعيّة، وهذا يعني أنّ هناك فرصة للنّجاة. البراميل وحدها كانت تحوّلنا أصنامًا بشريّة.

بعد الدّرس، ذهبت مع حسام إلى مركز النّساء. المركز أيضًا عبارة عن قبو غير مجهّز. أمّ خالد، مديرة المركز لم تحصل على الشّهادة الثانويّة، ابنها، خالد أحد النّاشطين. تصلّي وتصوم، وتقود سيّارة. لديها صالون تجميل للسّيّدات. تقرأ وتقول أنّ النّساء، سيقمن بالتّغيير. كانت تمثل شريحة مهمّة من نساء الرّيف في «إدلب»، واللّواتي يطمحن إلى الوصول بالمجتمع الأهليّ والمحلّيّ إلى مطالب الثورة الأولى في العدالة والحرّيّة والكرامة. كانت تنتظرني مع مجموعة من النّساء في القبو، وقد أنهت دورة تعليم المخرز والتطريز. المركز بحاجة إلى كساء كامل.

الحجاب هنا جزء من التّقاليد، ولكنّه منذ أكثر من سنة، بدأ يتحوّل واجبًا وفريضة وقانونًا إلزاميًّا. في بعض الأماكن في «حلب»، فرضه تنظيم «داعش». في الرقّة، كانت النّساء يغطّين وجوههنّ وأجسادهنّ بشكل كامل بالأسود، بعد سيطرة «داعش» عليها. لا يمكن التّفكير في هذه المنطقة من الرّيف كجزء مغمور من العالم. لقد تمّ إفقاره مثل غالبيّة أرياف سوريّة. لكنّ النّساء هنا متعلّمات إلى حدّ ما وقادرات على الحوار، وعلى مناقشة أمور السّياسة، ويدركن أن تغييرًا

جذريًا يحدث، وسيسير بهن للدّخول في نفق مظلم لا خروج منه. فالكتائب العسكريّة الجهاديّة التي تسيطر، يومًا بعد يوم، على الشّمال السّوريّ، كانت تفرض قوانينها الاجتماعيّة والدينيّة بقوّة السلاح والمال. وتحت القصف المستمرّ، كان الحديث عن هذه القضايا يعتبر ترفًا وبلا معنى، هكذا قالت الصبايا ونحن نرتشف القهوة بعد معاينة القبو.

كنّا نجلس في الطّبقة الثّانية فوق القبو مباشرة، مجموعة نساء، كلّ واحدة منها تفكّر بصوت عالٍ بما يمكن فعله وسط هذه الظروف الصعبة، وكيف يمكن الاستمرار بالعمل دون إلحاق الأذى بالنّسوة وبأزواجهنّ وعائلاتهنّ ودون تجاوزهنّ العادات والتّقاليد. «هذا صعب جدًا. علينا الالتزام بتعليم النّساء والخياطة وشغل المخرز وقصّ الشّعر والتمريض، لا أكثر ولا أقل، وحين تنتهي هذه الحرب يمكننا التّفكير في أمور أخرى»، تقول إحداهنّ. لأمّ خالد رأي آخر: «يمكننا تعليم اللغة الإنكليزيّة والفرنسيّة، والقيام بدورات محو أمّيّة ودورات تعليم كمبيوتر». قلت لهنّ من الضّروريّ وجود «إنترنت»، وأجهزة «كمبيوتر»، ويجب القيام بدورات دعم نفسيّ، والأهمّ دروات محو أمّيّة للنّساء. وبينما كنّا نتحدّث، سقطت قذيفة بالقرب منّا. كنّا نجلس تحت الشّباك، وبلمح البصر، صرنا متكوّمين في الغرفة الدّاخليّة. مرّت دقائق ونحن ننظر إلى بعضنا، ثمّ غرقنا في ضحك طويل، لكنّني رأيت وجوههنّ الصفر المفزوعة. لا بدّ من أنّ وجهي كان أصفر أيضًا.

كانت السّاعة تشير إلى الواحدة ظهرًا، وحان موعد العودة إلى المكتب للذّهاب إلى خطّ الجبهة مع «أبو وحيد». حسام تأخر، ولم تكن الهواتف موجودة، ولا أستطيع المشي وحدي في الشّارع. تقول النّساء إنّهنّ لا يتحرّكن بمفردهنّ إلّا للضّرورة هذه الأيام، ولكن يجب

ألّا أذهب وحدي، مهما كلّف الأمر. في الحرب تحدث حالات فوضى، فكيف عندما تكون هذه الفوضى موجّهة ومنظّمة. النّساء يعتقدن أنّ من الأفضل متابعة الحياة كما هي. أمّ خالد تقول: «نعم، أنا أعيش تحت الحرب والقصف، ولكنّني أريد أن أعلّم الفتيات كيف يعشن حياتهنّ بطريقة جميلة، نريد أن نتزوج وننجب ونبني حياتنا، لا نريد الاستسلام للموت».

فُتنتُ بطريقتها في الحديث. كانت أمّ خالد تجسيدًا حقيقيًا لفكرتي عن الشّراكة مع المجتمع المحلّيّ الشّعبيّ في التّنمية والمعرفة. وثقت بهذا المجتمع، أكثر من ثقتي بالنّخب السّياسيّة والثّقافيّة.

النّساء كان لديهنّ فضول لمعرفة حياتي الشّخصيّة. وأقنعتني أمّ خالد بضرورة تصفيف شعري، وفعلت ذلك. أخذتني إلى صالون التجميل الّذي فتحته في بيتها. كان متواضعًا بأثاث خفيف، لكنّه كان كافيًا لتخرج منه عرائس البلدة وهنّ في أبهى زينة.

في الطّريق إلى المكتب، وبعد أن جاء حسام، كنت أفكّر بأنّني يجب ألا أيأس، رغم قناعتي بأنّ القادم أسوأ ممّا مضى. لكنّني لن أفقد إيماني، والنّساء من حولي منحنني المزيد من الأمل.

كنّا في الأوّل من آب، والشّمس الحارقة وملابسي السّود التي تغطّيني بالكامل، تجعلني أختنق. كنت قلقة بعض الشّيء، فأنا ما زلت أرتجف حتى اللّحظة عندما أسمع دويّ انفجار، فكيف وأنا ذاهبة إلى خطّ الجبهة الأول!

«أبو وحيد» ينتظرني.

انطلقنا مباشرة. لم يتغيّر «أبو وحيد» كثيرًا. صار أكثر نحولًا. مُقلًا في الحديث عن المعارك، وبدا محبطًا بعض الشّيء. لم يكن يحصل على تمويل لجنوده بالقدر الكافي. سألته: «هُزمنا؟». نظر إليّ جيدًا، وقال: «آخ... شو بدّي أحكي لأحكي. انتصرنا وانهزمنا. ما تصدّقي أبدًا أنّنا انهزمنا. العالم كلّه كان ضدّنا... كلّه». كان يقود السّيارة وأصابعه على المقود ترتجف. ذراعاه صلبتان وقويّتان ومحروقتان من الشّمس. سألته عن أحوال زوجته والأولاد. فقال: «سعرهم بسعر النّاس كلها». طلبت تدخين سيجارة، أجاب فورًا:

«لا . . . الدّنيا رمضان ممكن يكونوا جماعة الجبهة أو داعش موجودين ويظهروا فجأة. هيك أضمن لحياتك». اعتذرت منه لنسياني هذه التفاصيل.

الهواء ساخن ويلفح وجوهنا، ونتقدّم عبر القرى. «أبو وحيد» يبدو أقلّ همّة وأكثر حزنًا. المرّة الماضية، في شهر شباط، كان يحلم حين يقول: «إنّ كلّ شيء قابل للتّصليح، ونحن ما زلنا نحاول تحقيق حلمنا». هذه المرّة كان صامتًا أغلب الأحيان، لذلك لم أحاول إقحامه في ما آلت إليه الثورة، والسّبب الّذي جعل من الكتائب الجهاديّة التّكفيريّة تحتلّ الصّدارة. كنت أعرف ما سيقوله عن التّمويل، وعن الرّجال الّذين يتدفقون يوميًا من شتّى بقاع الأرض للقتال تحت حجّة الدّفاع عن الإسلام. قال: «سنمرّ في طريقنا لنأخذ معنا أحد المقاتلين».

كان المقاتل في «معرزيتا»، لم يكن يسكن في بيته. جاء بزوجته وأختها إلى مدجنة مهجورة، ووضعهما فيها، قرب خطّ الجبهة، ليستطيع أن يكون قريبًا منهما. قال إنّه لا يستطيع تركهما وحدهما في العراء. المدجنة تقع في سهل فارغ إلّا من الحشائش اليابسة، وفي داخلها لا يوجد سوى حصير بلاستيكيّ قديم، ووسادة عريضة بالكاد تتسع لشخصين. أعمدة إسمنت وأحجار بلا إكساء تتخلّل مساحة المدجنة، وتتوزّع على الفراغات في ما بينها. طلبت من «أبو وحيد» لقاء الزّوجة وأختها. كنت عطشى، لكنّ النّاس صائمون، ويجب احترام صيامهم. الزّوجة، أم فادي، قالت وهي تضمّ طفليها: «قصفوا بيتنا، وقضينا الشّتاء هنا. لا مكان نذهب إليه، أبقى مع رجلي حتّى الموت. كنّا ثمانية ومع الرّجال أصبحنا أحد عشر شخصًا، وهذه

المدجنة تحوينا منذ سنة. عندما قصفونا تركنا كلّ أغراضنا وراءنا وركضنا في الشّارع».

ارتجّ الباب الحديديّ المهترئ، فصرختُ، ضحكتا وقالتا: «ما في شي مجرّد قطّ». وأنا شعرت بالإحراج لأنّني اعتقدت أنّ قذيفة انفجرت! أختها التي تبلغ من العمر سبعًا وثلاثين سنة كانت تتكلّم بخفّة، ولكن بأسًى. سمراء. عيناها قاتمتان وحادّتان، بياضهما أحمر تمامًا، تبدوان مخيفتين. لم أسألها من أين أتى هذا الاحمرار! كعبا قدميها العاريتين الممدّدتين، مشقّقان بشكل لافت. الطّفلان حافيان وعاريان، وعيونهما واسعة وتحدّق بصرامة. لا ترفّ الجفون. أطفال النّازحين الّذي عاشوا في العراء بغالبيّتهم كانوا يحملون هذا التّحديق نفسه!

قامت الزّوجة عندما ناداها زوجها لتحضر له ثياب القتال. سألتني الأخت: «هل أنت ذاهبة إلى هناك؟». قلت: «نعم». «هل تريدين ثيابًا مثل المقاتلين؟» فقال الزّوج من الدّاخل: «والله يا مدام لو بتلبسي متلنا بكون أحسن، لأنه رح نكون مكشوفين عليهم». رفضتُ. سألتها كيف تعيشون. فقالت أنّ زوجها يأتي بالطّعام وهم يستحمّون مرّة واحدة كلّ أسبوعين، وثيابهم التي يرتدونها يغسلونها ويبدلونها بثيابٍ أخرى. لم يحملوا حتى ثيابهم. «في الشّتاء، نسدّ الفتحات بأكياس نايلون، البرد يقشر أعمارنا. لم نعد نحصل على الحطب. لم يعد هناك أشجار كثيرة». قاطعتها أختها: «لا نستطيع ترك أزواجنا وهم يقاتلون. نحن نحتاج لهم دائمًا. أنا كنت سكرتيرة عند دكتورة، وأجيد الكتابة والقراءة. الآن نعيش كأنّنا في العصر الحجريّ. ننزح من قرية إلى أخرى، وأطفالنا معنا. بالكاد نأكل، ورجالنا يقاتلون. هل تعرفين؟»،

تقول وهي تضع يدها في يدي وتحدّق بعينيّ. تعصر أصابعي في كفّها، تؤلمني ويصبح صوتها فحيحًا: «تريدين فعلًا أن تخبري النّاس بما حصل لنا؟ اقسمي أن تخبري البشريّة كّلها أن أبناء القرى الأخرى طردونا. ليس الأمر كما يبدو لك. الشّعب ليس واحدًا! هناك كراهية تكبر الآن بين النّاس. هل ترين هناك؟»، وأشارت إلى جهة نافذة حديديّة بالكاد يبلغ عرضها خمسين سنتيمترًا، وحديدها متآكل وصدئ: «هناك الجبهة، نحن نراهم وهم يروننا. بيننا وبينهم ثلاثة كيلومترات فقط. ونعيش في مكان منعزل. نعيش حياة معدمة. نحن لا نعيش. لولا مخافة الله لقتلت نفسي. نموت ببطء هنا مثل حيوانات مربوطة إلى شجرة ومتروكة للموت جوعًا. أهالينا الّذين بقوا ماتوا في القصف، والأفاعي تتسلّل إلينا ليل نهار. هل تستطيعين البقاء معنا ليلة واحدة؟ مستحيل! انظري لهذه الأكياس».

كانت ثلاثة أكياس متوسّطة الحجم معلّقة على عمود: «هذه هي ثيابنا نحشرها في أكياس لنغادر بسرعة في أي لحظة. نحن ضائعون ومشرّدون، وهل ترين بطني؟»، تمسّد على بطنها المنتفخ، وتتابع: «سأحمل كلّ تسعة أشهر، وآتي بأولاد، حتى لا ننقرض. أولادنا سيستردّون حقنا. نريدهم أن يتعلّموا. نريدهم أن يقاتلوا حتّى نعود إلى بيوتنا. لن نركع لبشّار الأسد. لن نركع أبدًا. ولن نتراجع».

أفلتت أصابعي التي بقيت عليها آثار احمرار. كنت بالكاد أتنفّس! لن أبكي! عضضت على شفتي، وغرقتُ في نوبة بكاء صامت وهي تحدّق في سقف المدجنة المعدنيّ. الطّفلان يقتربّان منّي وأنا أهمّ بالنهوض. أستأذن بتصويرهما، فلا يضحكان. ركبنا أنا و«أبو وحيد» والزّوج المقاتل باتجاه بلدة «حيش»، وهي خطّ جبهة أوّل في ريف

«إدلب». تركنا وراءنا الهضبة الصّغيرة التي تعلوها المدجنة التّعيسة. «هل هما بأمان هناك وحدهما؟» أسأل. يجيب الزّوج: «الحامي هو الله».

كان السّهل فارغًا، ومن بعيد تلوح مدجنة أخرى، والسماء التي أخذت تميل إلى زرقة قاتمة خلت من الغيوم البِيض.

تركتهما وأنا ألوّح بيديّ. وعدتهما بأن أعود إليهما، ولم أفِ بوعدي. قالت لي: «لن تعودي!» وكانت محقّة، لم ألمحها مرّة أخرى.

زوجها، «أبو خالد» المقاتل الأشقر، ركب معنا في السيّارة من جديد. كنّا نتّجه إلى خطّ جبهة بينه وبين قوّات النظام سبعمئة متر فقط. كان عدد سكّان «حيش» خمسة وعشرون ألف نسمة، وهي أكثر منطقة تعرّضت للقصف. قصفت أربعة عشر يومًا بشكل متواصل. المعلومات التي أخبرنا بها «أبو خالد» لم تكن بحجم الخراب الّذي رأيته، فقد اعتدت رؤية صور الدّمار في الشمال، لكنّ «حيش» مختلفة، سكّانها اختفوا، خمسة وعشرون ألف نسمة غادروا أو قتلوا أو اعتقلوا، كأنّها لم تكن يومًا. لا توجد شوارع. هناك أزقّة ترابيّة بين خراب البيوت، والشّوارع قصفت بالكامل. تتخلّلها آثار القذائف التي تحوّلت حفرًا. الأبنية على الأرض، لم تكن مهدّمة فقط، بل مجرّد حجارة متكوّمة. هناك حفر هائلة وكبيرة. يقول «أبو خالد» كانت بيوتًا سقطت عليها البراميل مرّات عدّة. الجدران الإسمنتيّة التي تعلو الطّبقات والتي لم تتهدّم، أعمدتها تحوّلت منحدرات. أشجار الزّنزلخت لا تزال مخضرّة شامخة وتظلّل بعض الرّكام. ونحن ندخل

من الجانب الخلفيّ، أحنيت رأسي. كان مهمًّا ألّا يلمحوا امرأة معهم على الجانب الآخر، سألتُ «أبو وحيد»: «هل يروننا؟». أجاب: «نحاول الالتفاف عليهم». كان يفصل بيننا وبينهم شارع وبيوت مدمّرة.

في أعلى الهضبة كانوا. وقفنا قبالتهم. خفضنا رؤوسنا عند نزولنا من السيّارة، وصار «أبو خالد» يخفيني بجسده، كأنّه درع واقٍ من الرّصاص. خلفنا، كان شارع من أكوام هائلة من الحجارة، من بينها تنبثق أغصان صغيرة خضر لأشجار الزّنزلخت. يسارًا ويمينًا وفي كلّ الاتّجاهات، الحجارة تختلط بالحديد وبالسّيّارات المتفحّمة المحترقة، هم لا يتوقّفون عن قصفها.

دخلنا غرفة صغيرة، كانت مثل باقي الغرف التي دخلتها، فيها حصير على الأرض وبضع وسائد. بدأ المقاتلون يتدفّقون. كانوا أكثر من عشرة، وبدأ إطلاق النّار. قال أحدهم: «لقد عرفوا بوجودكم». «لكنّنا مررنا بحذر، والتففنا من خلف الشّارع، فكيف عرفوا!». سألت.

الرّصاص لم يتوقّف من الجانبين.

في الغرفة، صورة ولوحات على الحائط. طبيعة صامتة. صورة لمقاتل. صورة أخرى لورود ملوّنة، وبضعة مسامير عُلّق عليها عدد من القمصان. كان المكان بالكاد يكفي لوجودنا، وجلس كلّ مقاتل ورشّاشه إلى جانبه. وضعوا الرّشّاشات متقابلة تحت أرجلهم، فبدت كأنّها ترقص أمامي. كانت لامعة، وفوّهاتها واضحة. من هنا يخرج الموت! فوّهات سود تشكل دائرة حول عنقي، وطلقات رصاص تمرّ فوق السّطح. كانوا ينظرون إليّ بفضول وسعادة. أحدهم قال: «أهلًا وسهلًا يا مدام، ما خفتي؟ كان لازم تلبسي متلنا، حتى ما يكشفوك».

ابتسمت له، وشرحت لهم ما أريد معرفته عنهم ومن هم، ولماذا بقوا، وهل صحيح أنّ الكتائب هنا تابعة لـ «جبهة النّصرة» و«أحرار الشّام»، وهل وصل «داعش» إلى هنا؟

الشّابّ الّذي تحدّث كان ممتلئ الجسم. حنطيّ البشرة، ضاحك العينين، عمره ستّ وعشرون سنة. يمسك رشّاشه بيده. قال: «كلّ من ترينهم الآن هم من أبناء حيش، ونحن لم نترك بيوتنا. نبقى هنا لأنّها تهدّمت. اسمي فادي، وكنت أعمل من قبلُ في لبنان. لمّا بدأت الأحداث، ورأيت كيف يُقتل النّاس على التّلفزيون، تركت عملي وعدت إلى هنا. هذا بلدي ويجب أن أبقى فيه. اختصاصي ألغام وقاذف آر بي جي. أرى أنّ هذه الحرب شيعيّة ـ سنّيّة، ولا أراها غير ذلك. لم تكن هكذا في البداية. لكن الشّيعة الإيرانيين تدخّلوا ضدّنا وقاتلونا هم وحزب الله. الآن هم موجودون على خط الجبهة الّذي مررت من أمامه. نحن نسمعهم على اللّاسلكي، ونكون في مواجهتهم. بيننا وبينهم مئتا متر فقط. كما ترين حيش مدمّرة بالكامل. ولا يوجد لدينا مكتب إعلاميّ، مثل باقي البلدات. قصفونا بكلّ أنواع الأسلحة: صواريخ أرض ـ أرض، براميل، صواريخ سكود، قذائف وكل ما يخطر ببالك. كانت سماء حيش تمطر بالصواريخ والقذائف. لم يبق حجر على حجر».

يضيف شاب آخر: «هذه حرب دينيّة وليست شيئًا آخر، أنا سامي، عمري اثنتان وعشرون سنة. كنت أدرس في الجامعة. هل ترين أنّها من أجل غير الدّين؟». يجيبه الشّاب الّذي بجانبه، وهم يوزّعون أدوارهم للحديث: «نعم، هذه حرب للدّين». يصل الدّور إلى شاب نحيل وهادئ مبتسم باقتضاب. شاحب قليلًا، يقول: «أنا أنس، عمري خمس وعشرون سنة، بدأنا هنا ومن وسط حيش، مظاهرات سلميّة،

مثل كلّ القرى. لم نتطرّق للدّين أبدًا، قلنا: الشعب يريد إسقاط النظام، لكنّ النظام اتّضح أنّه كافر، لذلك حملنا السّلاح. هل تعرفين لمَ هو كافر؟ في الدّقيقة الواحدة كانت تسقط فوق رؤوسنا خمسون قذيفة. أنا أنس ابن حيش والكلّ يعرفني... استخدموا كلّ أنواع الطّيران، ولم يستطيعوا الدّخول. قُتل خمسة وثمانون عسكريًّا منهم، ولم يدخلوها. نحن لسنا هنا لوحدنا، هناك جبهة نُصرة، وهناك كتائب أخرى، لكنّنا هنا في هذه الكتيبة كلّنا من أبناء حيش. حزب الله هنا، وشيعة من العراق وإيران. هل ستقولين أنّ هذا ليس صحيحًا؟ نحن نراهم ونسمعهم! كلّ العالم وقفت ضدنا. المجتمع الدّوليّ تخلّى عنا. ماذا كنّا سنفعل؟ سننتظر الموت. رفعنا شعار «لا إله الله محمّد رسول الله». الموت ينتظرنا، ونحن نستعين بالله على الظّالم بشار». يقاطع أحد الشّباب أنس، وهو غاضب، اسمه نوّاف: «القذائف قتلت أطفالنا. نعم، هي حرب دينيّة».

سرعان ما غزا الغضب وجوههم. يقول آخر: «العلويّون قتلونا وسنقتلهم». يتدخل «أبو خالد»، وينظر إليّ بابتسامة: «هؤلاء الشّباب كانوا كلّهم عمّال فقراء دمّروا بيوتهم، وقتلوا أهلهم، وشرّدوا من بقي هنا. كما رأيت، لديهم إحساس بالاضطهاد الطّائفيّ»، فيقاطعه أحدهم: «لا يا سيدي، العلويين والشّيعة ما بيعرفوا الله وهم كفار». يردّد بقية الشّباب الكلام نفسه تقريبًا.

اسم هذه الكتيبة التي أجلس مع عدد من مقاتليها «مغاوير حيش». كانت «جبهة النصرة» قد رفضت أن نلتقي بها في أماكن عدّة، لكن هنا في «حيش». «أبو وحيد» رفض حتّى أن يعرفوا أنّني هنا. كان إطلاق الرصاص يشتدّ. وطلب «أبو وحيد» منّا أن نغادر مباشرة، لكنّ الشّباب تحمّسوا، وبدأوا يعرضون مشاكلهم وكيف تمّ إهمالهم وإهمال تجربة

«حيش»، وكلّ منهم يردّد جملة مختلفة. كانت رشّاشاتهم على الأرض. قال أبو وحيد بصرامة: «لازم نمشي يا شباب، الوضع خطير على النتّ».

كان بودّي البقاء والاستماع إليهم بشكل أفضل، لكنّ الخروج بعد ذلك سيكون صعبًا، وربما يبدأ القصف. إطلاق الرّصاص بين القنّاصة الموجودين على طرفي خطّ الجبهة، ما زال مستمرًا. لم أصافحهم، تمنيت لهم السّلامة. الرّجال هنا لا يصافحون، بالكاد يسلّمون ولا ينظرون في عينيْ المرأة. كنت أعدّل غطاء رأسي لأخفي وجهي. أحاول التّركيز على ما يقولون. كانوا يحتاجون لتفعيل المكتب الإعلاميّ، ولكن بسبب القصف المتواصل، كان يبدو الأمر صعبًا. ثم إنّ ناشطيهم قُتلوا ولم يبقَ سوى أنس وقد تحوّل مقاتلًا، قال أحدهم: «حاولنا مرّة الاستعانة بعدّة قرى وبعدّة مكاتب معروفة للإعلام هنا، لكنّهم لم يساعدونا، لقد تركونا جميعًا!».

كان الشّاب محقًّا، فهذه البلدة تبدو منسيّة ومهملة، كأنّها خارج الزّمن والتّاريخ، وهم بدوا بوجوههم الشّابّة والغاضبة، أشبه بجثث متحرّكة. أردت المغادرة، لأنّ أصابعي بدأت ترتجف، وهم يروون قصص رفاقهم الّذين يموتون واحدًا تلو الآخر. أحدهم قال هازئًا أثناء رواية قصص الموت: «اليوم دوري، طالع عالسما»، فرد الثّاني: «لا والله... ما بتروح قبلي»، وضحكوا.

نجتاز عتبة البيت ونحني رؤوسنا. يخرج ثلاثة من الشّباب معي ومع «أبو خالد»، «أبو وحيد» يتقدّمنا. يقول شاب لم ألمحه جيّدًا، كان يجلس في الظّلّ: «بس خبّري العالم يا مدام، أننا نموت وحدنا وأنّ العلويّين قتلونا، وسيأتي يوم يُقتلون فيه، هم يقتلوننا ونحن نرد

الأذى، هم والشيعة الكفرة هم ونساؤهم العاهرات». هنا قال «أبو خالد»: «عيب هالحكي يا عمّي»، فردّ بحدّة: «لا مو عيب». قلت وأنا أحدّق فيه: «الله يحميكون يا شباب، ويرجّع حقّكم»، فردّوا: «آمين يا مدام، الله يحميك، والله نوّرتينا، لازم كنتي تنتظري تفطري معنا». قلت لهم: «إفطارًا مباركًا»، ثم حنيت رأسي وأنا أتّجه إلى السيّارة. نظرت إليهم، كان الرصاص فوق رؤوسنا: «أنا أهلي علويّين، وما عرفت حالي غير سوريّة»، قلت بسرعة. وانسحبت. دخلت السيّارة، فركض اثنان ورائي ومدّا رأسيهما من نافذة السيّارة: «ما تواخذينا يا مدام، والله ما قصدناك! والله نحنا ما منكره العلويّين، على راسنا إنتي وأهلك». كنت صامتة، مثل تمثال من حجر. أسمع ضربات قلبي وأصوات الرّصاص. قال «أبو خالد»: «ما تزعلي والله مو قصدهون»، وبدأت سيول الاعتذارات. كان أنس يقف جانبًا، وعيناه تلمعان بالدّموع، ثم اقترب منّي: «والله يا مدام نحنا منحميك بروحنا، إنتي بنت البلد» كان «أبو وحيد» و«أبو خالد» غاضبين منّي، لأنّني قلت ما قلته، وأنا لم أكن أعرف لم فعلت ذلك، ولكن كان على أحد أن يكسر جدار الموت هذا، ولم أكن لأعرف ما الّذي سأفعله. وجدت صمتي خيانة لكلّ الأبرياء من العلويّين. وخيانة لروح الثورة التي خرجنا من أجلها قبل سنتين. همس «أبو وحيد»: «ما كان لازم تحكي هيك».

كان الشّباب يشعرون بالإحراج، وأردوا التّنافس على حمايتنا ودلّونا على طرق مختلفة وأكثر أمنًا. مشى شابّان أمامنا، تحت الرّصاص. كلّ بضع ثوان يلتفت أحدهم وينظر إليّ، عيونهم ممتلئة بالامتنان والاعتذار، وأنا ألوّح بيدي وأبتسم لهم. لم أفكّر بكمّية

الرّصاص الّذي يمرّ خلال الفواصل بين البيوت المتهدّمة ويتنشر حولنا. كانت رقبتي مشدودة. الأصحّ كانت تتهشّم. لأنّ حنجرتي طقطقت وأنا أبلع ريقي.

قال «أبو وحيد»: «ممنوع التّصوير هنا، نحن لا نسمح به». ومرّ الشباب سريعًا أمام السيّارة التي تمشي ببطء، يحملون رشّاشاتهم. كنّا على خط الجبهة وأخذوا أماكنهم. هو إذًا خطّ الموت! قلت لـ «أبو وحيد»: «فلننتظر ونرَ ما يحدث»، فرفض لأنّ المعركة محتدمة ويجب أن ننصرف بهدوء.

قبل أن تنعطف السيّارة، لوّحت لهم. وقف الأربعة ولوّحوا بخجل.

دخلنا في طريق ترابيّة، وانطلق «أبو وحيد» مسرعًا، بعد دقائق، نظر إليّ: «لن أعود بك أبدًا إلى أيّ مكان مثل هذا. ما فعلته مخاطرة، لكن كانت جيّدة لتري الشّباب كيف يفكّرون. عليك معرفة أنّ آخرين قد يتصرّفون بطريقة مختلفة! وقد تُقتلين». هززت رأسي، ونظرت إلى الخلف، فكرة واحدة خطرت لي: «هل يوجد أقرباء لي على الجهة الأخرى؟ أقربائي الّذين أحبّهم وأشتاقهم، وعشت طفولتي معهم، والّذين تتراقص وجوههم المحبّبة إلى قلبي أمام زجاج السيّارة، وجوههم الضّاحكة ونحن نجتاز عتبات الطّفولة والمراهقة. أقربائي الّذين لا أريد لهم الموت، ولا أريد لهم أن يصبحوا قتلة؟».

وضعت نظّارتي السّوداء، فقد بدأت ملوحة عينيّ تطغى، والشّمس التي كانت تستعدّ للمغيب، لم تعد مزعجة. لكنّ الوقت قد حان للدّموع. قال «أبو وحيد» أنّنا كنّا نبعد عن جنود النّظام ثلاثمئة متر فقط. هززت رأسي أيضًا. كنت أبكي بصمت وأخفي وجهي بالحجاب

ونظّارتي السّميكة. لن أحتمل هذا. سينفجر قلبي. كنت أسمع ضرباته، تعلو وتعلو، ونسيت أن أطلب منهما المرور لرؤية المرأتين في المدجنة. لقد حنثت بوعدي. قال «أبو وحيد» أنّنا سنذهب غدًا إلى «خان العسل» في «حلب»: «البارحة حدثت معركة قُتل فيها خلال ساعات خمسمئة رجل من الطّرفين». لم ألتفت إليه، ولم أتوجّه بأيّ سؤال جديد. لم أحاول حتّى معرفة الوقت الّذي سننطلق فيه إلى ساحة المعركة هناك. كنت أفكّر فقط كيف يموت هذا العدد الكبير من البشر خلال وقت قصير كهذا؟ حتّى أنّني لم أنتبه لنزول «أبو خالد» إلّا عندما تقدّم نحوي وألقى تحيّة الوداع. ونسيت كلّ ما قاله «أبو وحيد» لاحقًا. كانت أذناي تطنّان، وأنا أراقب الشّمس تختفي وراء سهوب مترامية وهضاب تظهر فجأة تعلوها مجموعة من البيوت، المحروقة في غالبيّتها. وعندما وصلت إلى المكتب الإعلاميّ في «كفرنبل»، غسلت وجهي وجلست على الشرفة أتكئ إلى العمود المجاور لشجرة الزّيتون.

العمود المجاور لشجرة الزّيتون في المكتب، كان يطلّ على بيت صغير. هناك ولدان يقومان بإطعام خروفين صغيرين في حظيرة مصنوعة حديثًا، وأكوام من عيدان الحطب تصطفّ إلى جانب الحظيرة. اقتربا من شجرة الزّيتون ورمياني بعود من الحطب سقط في حضني. الشّباب يتوزّعون هنا وهناك. رائد يقوم بالطّبخ على الشّرفة، يمازح الجميع. يأتي بقطع اللّحم ويوزّعها، ثمّ يشويها على النّار بعد أن يغمسها بالزّيت ويخلطها بخضار، ويضيف إليها الفليفلة الحارّة. حمّود يغسل الخضار. عبد الله ينظّف الأرض ويمسح الحصير، رزان تجلي ما يصلها من أوانٍ متّسخة. كان التّحضير للإفطار طقسًا احتفاليًا، يسبق قذائف الموت. لا يزال هنا بعض الخضار، والطّعام. لا يزال هناك من يخبز ويطبخ، ويحتفل بالتّفاصيل الصّغيرة. إبريق الماء يتمّ جليه مرّات عدّة ويوضع مع كؤوس عدّة نظيفة. يدخل مقاتلان اثنان، وينضمّان إلى حفلة العمل. رائد يضحك ويقول: «بعد ساعة، سنأكل، وبعد ساعة سنُقصف، يعني معقول نموت وما نأكل أكلة طيبة قبلها؟!». أبقى صامتة.

كان رائد يدرس الطبّ، ثمّ ترك الدّراسة وذهب إلى لبنان، وبقي يعمل هناك، حتى عاد فجأة، وفتح مكتبًا عقاريًا سنة ٢٠٠٥. يقول لي: «بعد عودتكم من المدرسة، سنكمل قصّة كفرنبل». أجبته: «طبعًا». عقلي لا يزال مشوّشًا، وأردّ باقتضاب. عليّ التّماسك حتّى وقت العودة من المدرسة، وعليّ تقسيم مراحل التّماسك والقوّة إلى دفعات عدّة. القصف القادم لن يستغرق سوى دقائق، إذا لم ننجُ، فلن يترتّب عليّ إكمال باقي المهمّات. وفي حال نجونا من الموت، سنذهب إلى مدرسة الأطفال، ثمّ نكمل المهمّة الأخيرة وهي قصّة الثورة في «كفرنبل».

أكلنا، ونجونا من القصف. سقطت القذائف تمامًا بعد خمس دقائق من أذان المغرب، في الجهة الغربيّة من البلدة. فتنفّسنا.

كانت السّاعة قد تجاوزت العاشرة والنّصف ليلًا، عندما عدنا من عملنا في «باص الكرامة» مع الأطفال النّازحين، وعليّ أن أدوّن خلال ساعتين بقيّة الحكاية من رائد. قلت له: «عدنا، هيّا يا شهريار إلى الحكاية». فضحك. أضفت: «تبادل أدوار، أنت الرّاوي، وأنا الورّاقة!».

كان الشّباب يُعدّون الشّاي. بضع قطرات من الماء البارد على وجهي كفيلة بإيقاظي، ونسيان كلّ ما مرّ بي في يومي الطّويل.

«وصلنا إلى الشّهر السّادس سنة ٢٠١٢، عندما سيطر الثّوّار على كفرنبل مع بقاء حواجز الجيش النّظامي؟» قلتُ. هزّ رأسه: «نعم هذه الحواجز، لم يستطع الجنود خلالها التّحرّك إلّا في دباباتهم. وقرّرنا بارتجال ومن دون خطّة أن نقوم بمعركة التحرير الأخيرة. كان هذا في اليوم السّادس من الشّهر الثامن. مجموعة فؤاد الحمصي، المقاتل

الشجاع الّذي خرج في شهر رمضان ونصب كمينًا لحاجز الجيش على طريق اللاذقية. لم ينجح، فعاد إلى كفرنبل، ثمّ حصل تراشق طلقات نار بينه وبين حاجز للجيش، فأرسلوا نداءً يقولون فيه أنّهم محاصرون من قبل قوات الجيش، عندها أشعل الشّباب الإطارات وأحرقوها وصرخوا: مؤازرة... مؤازرة، وهكذا بدأت معركة التّحرير، وتدفّق الشباب المقاتلين. كنّا حوالى ألف ثائر مسلّح، وبقينا خمسة أيام في قتال مستمرّ، نرابط ونتوزّع لقطع الطرقات. واستطعنا أن نقطع الطّعام والشراب عن قوّات الجيش. وفي الوقت نفسه، لا نتوقّف عن القتال. ثمّ قصفنا بالطيران. في اليوم السابع، جاءت حوّامات وظلّت تقصفنا أثناء معركة التّحرير. كانوا يريدون إنقاذهم، بقينا أكثر من اثنتي عشرة ساعة متواصلة، قصف الطيران حينها لم يكن وحشيًا مثل الآن. كان القصف يغطّيهم فقط ولضرورة عسكريّة، لكنّ القصف الوحشيّ بدأ في الثامن من آب سنة ٢٠١٢، وكان هذا تاريخ سقوط أول برميل متفجّر في الثورة السّوريّة. كنت أحمل كاميرتي قرب الحاجز، وأصوّر كلّ ما يحدث في المعركة. منذ ذلك الوقت ونحن نقصف بشكل دائم بالبراميل. في اليوم التاسع من الشهر، قصفونا بطائرات الميغ، وفي اليوم العاشر أيضًا، لم يتوقّف تحليق طيران الميغ بشكل مكثّف، وبين الثامن والعاشر من الشهر، تحرّرت كفرنبل، وأعلنّا بيان التّحرير في الجامع. شعرنا بزهو، فقد صار اسم كفرنبل «المحرّرة». اعتقدنا أنّ نصرنا على الأسد بات قريبًا. كنّا متحمّسين ونقتحم الموت، وبدأت الحواجز تتحرّر، حواجز القرى الأخرى حاس وكفروما وقد ذهب الأهالي بعد خروج الجيش. هربوا لأنّ القصف يوميّ وكانت المعركة مستمرّة وإطلاق الرّصاص لا يتوقّف. من بقي أثناء التّحرير الثّوّار فقط، وحصلت أكثر من مجزرة في كفرنبل، في الثّاني والعشرين من

أب، استشهد ستّة وعشرون شخصًا في ساحة المظاهرات، وفي اليوم الخامس والعشرين من أيلول، استشهد سبعة عشر شخصًا. وكان القصف يتواصل بشكل يوميّ. في اليوم السابع عشر من تشرين الأوّل، كان هناك ثلاثة عشر شهيدًا، وفي نهاية الشهر، أحد عشر شهيدًا. وفي الخامس من تشرين الثاني، سقط اثنان وثلاثون شهيدًا. كانوا يقصفوننا بعد التّحرير بشكل يوميّ ويقتلوننا، وتحولت كفرنبل إلى بلد خالٍ. وانخفض عدد سكّانها من ثلاثين ألفًا إلى خمسة عشر ألفًا، ومن بقي منهم كانوا في النّهار ينزحون إلى القرى المجاورة ويعودون في اللّيل.

في تشرين الأوّل، تحرّرت معرّة النّعمان، وأهل حيش التي دُمّرت كليًّا نزحوا إلى كفرنبل. صار النازحون يموتون معنا في المجازر». يصمت رائد. وأرمي دفتري الصّغير، وأقول له: «نستريح خمس دقائق، ونشعل سيجارة».

رائد مبتسم. يعرف أنّه مسموع الكلمة. مع ذلك، لمحت شيئًا غريبًا وجديدًا في قسمات وجهه، تمامًا كما حدث مع «أبو وحيد»، إنّه الأسى! سنتين ونصف من القتل اليوميّ، النّضال المدنيّ السّلميّ، والنّضال العسكريّ المسلّح، وخطف المجموعات الدّينيّة المتطرّفة للثورة، لكنّ أيًا من الرّجلين وعلى اختلاف مسارات الاثنين، كانا لا يزالان مؤمنين بأنّ لا حلّ من دون سقوط نظام الأسد.

أمسك بدفتري وأقول: «بلغني أيّها الملك السّعيد...» وعلا صوتي، فاعتدل رائد في جلسته، كان يجلس متربّعًا لساعات، ويلفّ رجليه فوق بعضهما وظهره مستقيمٌ، ويقول: «طبعًا، هناك تفصيل مهمّ، وهو أنّه في شهر حزيران سنة ٢٠١٢، حصلت انشقاقات كبيرة في كفرنبل من ضبّاط وعسكر. ألف عسكريّ وخمسة وثلاثون ضابطًا عند كلّ انشقاق. كان الضّابط الأكبر رتبة هو الّذي يستلم الكتيبة،

وتحوّلت كتيبتنا إلى لواء. معركة التّحرير، كانت أيضًا بقيادة حسن السّلّوم. المشكلة أنّه بعد التّحرير بدأت تظهر روح المنافسة على السّلطة من قبل المنشقّين الجدد من الضّبّاط، والنّاس الّذين التحقوا بالثورة مؤخّرًا. وعندما تشكّل أوّل مجلس عسكريّ من ضبّاط وخمسة من الثّوريّين، انحلّ بعد أسبوع، وحصلت خلافات بين الكتائب من كفرنبل والكتائب من خارجها، وانسحب ضابط كبير كان يملك المال والسّلاح. وبقي المقدّم أبو المجد مع كتيبة فرسان الحقّ وهم الكتيبة الأولى التي عملت في الثورة، فكبرت واتّسعت، والمنضوون فيها هم الّذين حرّروا كفرنبل. منذ ذلك الوقت، بدأت الفوضى في تشكيل الكتائب العسكرية».

«لماذا لم تسيطر الكتائب الجهاديّة العسكريّة على كفرنبل كما حدث في الكثير من القرى؟»، أسأل رائد. فيهزّ رأسه ساخرًا: «كنت أعرف أنّك ستسألين هذا السّؤال، أنت تخافين منهم». «نعم أخاف، ليس على نفسي، بل على مستقبل البلد». «نعم نعم، كانت هناك محاولات منهم للسّيطرة. عرض علينا أحرار الشّام في شهر أيلول من سنة ٢٠١١ تحرير الحواجز. نحن رفضنا. خفنا أن يبقوا في كفرنبل بعد التّحرير. جبهة النّصرة أيضًا عرضت علينا في شهر شباط سنة ٢٠١٣ المشاركة في المظاهرات وبقينا نرفض. برأيي أن السّكّان المحلّيّين كان لديهم رغبة في وجود الإسلاميين لأنّهم اعتقدوا أنّهم وحدهم القادرون على تحريرهم من الأسد، لأن الإسلاميّين يملكون المال والسّلاح والعقيدة. الجيش الحرّ تمويله ضعيف ولجأ بعضهم إلى السّرقة من أجل التّمويل. السّبب الثّاني أنّ السّكّان المحلّيّين ظنّوا أنّه إذا دخل الإسلاميّون سيحقّقون الحكم العادل الرّشيد بعد عقود من حكم ظالم لم يحصدوا فيه سوى القتل والظّلم. وكان هذا النّظام، منذ

عهد الأسد الأب، يقدّم نفسه على أنّه نظام علمانيّ. لكن، وبعد أن دخل الإسلاميّون إلى المناطق المحرّرة، وحكموا، اكتشف النّاس أنّ الإسلاميّين لا يمكن أن يحكموا بالعدل، وهم نسخة عن النّظام. أنا أقصد بالإسلاميّين أولئك الّذين يريدون الخلافة الإسلاميّة وتطبيق حدود الشّرع من جماعة القاعدة. الآن صاروا شعبيًّا مرفوضين، والسّكّان المحلّيّون يريدون رحيلهم». أطلب من رائد التّوقّف مرّة أخرى: «اشرب كأس ماء يا شهريار»، أقول له.

قمت وحضّرت إبريقًا من الشّاي. فجأة دبّت الحماسة، وشعرت بأنّ بإمكاني البقاء يقظة لأربع وعشرين ساعة إضافيّة. كان يغويني تدوين شهادات النّاس على الأرض، من المعتقلين والنّاشطين والمقاتلين، أنا راوية الحكاية. أنا جزء من الخيط الواهي للحقيقة الملتبسة في التّاريخ. لا حقيقة كاملة. هناك سطور عريضة تقول أنّ نظام الأسد مارس إجرامًا لم يعرف التّاريخ المعاصر شبيهًا له، لكن من جهة أخرى هناك خيوط تقول أنّ هناك صناعة خفيّة تمّت، مع الأخذ في الاعتبار الظّروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة وطبيعة المجتمع وثقافته الدّينيّة، لتحويل المناطق المحرّرة مناطق تسيطر عليها كتائب جهاديّة. الحقيقة أيضًا تقول أنّ هذا المكان يقاوم الطّرفين، وأنّ الثّوّار، ورغم أنّ معظمهم قتل أو اعتقل أو خطف، أو خرج من البلد، ما زالوا يقاومون. مقاومتهم استثنائيّة وملتبسة ومعقّدة. وهي تتحوّل شيئًا فشيئًا حربًا دينيّة، هكذا كانت الثّورات دائمًا عبر التّاريخ. الحروب جزء من حقيقتها الحرب الأهلية، أقول لرائد وأنا أصفّ كؤوس الشّاي: «نعم، نحتاج لزمن، لكن الظّروف صعبة».

كان الشّباب ينسحبون إلى الغرف الدّاخليّة. قلت لحمّود: «لن أتحرّك قبل الانتهاء من بعض الأسئلة».

رزان سبقتنا، وبقيت أنا ورائد وحمود.

«النّاس ما عادوا يريدون الكتائب الجهاديّة، لكن أظنّ أنّ الحاضنة الشّعبيّة للثورة تضعف جدًّا، أليس كذلك؟»، هذا كان سؤالي له.

«نعم»، يجيب رائد ويهزّ رأسه كالعادة، ويلوّح بيديه. كتفاه عريضتان، مثل رجال الجبال، وهو ضخم الجثّة. يتابع: «هناك أخطاء قام بها بعض النّاشطين الأوائل، أزعجت النّاس، لكنّ الغضب الأساسيّ انصبّ على العسكريّين، لأنّ عدم قدرة العسكريّين على التصدّي للقصف المتواصل الّذي كانوا يتعرّضون له من طيران الأسد أغضبهم. كانت هناك محاولات كثيرة من قبل الجيش الحرّ في البداية لاقتحام وادي الضّيف وتحريره. عشر محاولات باءت بالفشل. وهناك كلام كثير عن خيانات. هذا الأمر أفقد النّاس الثّقة بالجيش الحرّ. كانوا في بداية الثورة يثقون به ويمجّدونه، لكنّ السّلاح كان ضعيفًا. لقد استشهد الألوف وهم يحاولون تحرير الأراضي، لكنّ عدم وجود مضاد طيران جعلنا نخسر. نحن نموت لنحرّر الأرض وهم يقصفوننا ويحرقون الأخضر واليابس، ثمّ هناك سبب آخر، للنّظام أعوانه هنا، وهم من يقوم بتشويه صورة الجيش الحرّ وفبركة الشّائعات عن الثوّار الذين عملوا في الإغاثة والإعلام والسّلاح. كانت هناك أخطاء كثيرة، لكنّ النّظام استعمل الإشاعة كأداة حرب أساسيّة في بثّ الذّعر والتّفرقة بين النّاس، ثمّ إنّنا على أبواب السّنة الثّالثة من الثورة، النّاس تعبوا وهم يبحثون عمّن يحمّلونه مسؤوليّة أخطائهم. عدم الجدوى من النّضال الصّعب كلّ هذه الفترة مع العنف الوحشيّ للنّظام، وخروج الكثير من النّشطاء والنّاس بعيدًا عن سورية، كان سببًا مهمًّا أيضًا. كتائب الجيش الحرّ تقاتل ليل نهار، دون فائدة، والأهالي يرون كيف

يموت أولادهم دون نتيجة، والإعلام يصوّر دون جدوى، والإغاثة بالكاد تأتي بربع الحاجة، ولا ماء، لا كهرباء ولا طعام... باختصار النّاس تعبت جدًا».

«هل من الممكن استعادة الحاضنة الشّعبيّة؟»، أسأله مباشرة، فينظر إليّ باستغراب، لكنّه يجيب بسرعة: «الثورة بدأت وهي ماضية، نحن كنّا مجموعات الصّفّ الأوّل من الشّباب الّذين بدأوا الثورة، منهم من استشهد ومنهم من ترك البلد. أبناء الصّفّ الثّاني من الثورة عملوا في الثورة، في المكاتب التي قمنا بإنشائها لتنظيم الحياة في أرضنا المحرّرة. مكاتب إغاثيّة وإعلاميّة وماليّة وإحصائيّة. مكتب الإحصاء مؤلّف من اثني عشر شخصًا ومعهم ستّة «كمبيوترات» لإحصاء الجرحى والمعتقلين والشّهداء ورصد ما يحصل. المهندسون يوثّقون بشكل يوميّ عمليّة الدّمار والقصف حتّى نستطيع إحصاء كلفة إعمار بلدتنا. يعني نحن عندما بدأت تصل التّبرّعات من أهالي كفرنبل المغتربين، قرّرنا أن نؤسّس مؤسّسة لتصل هذه التّبرّعات لكلّ النّاس، وحينها أنشأنا ما صار يُعرف بالمكتب الإعلاميّ، لتوزيع المال على المحتاجين، ويتكفّل بذلك، أناس مشهود لهم بالأمانة والاستقامة والاحترام بين أهالي البلدة. وأنا، كما ترين، كنت بالمكتب الإعلاميّ، في شهر تمّوز سنة ٢٠١٢. فكّرنا بمكتب للإغاثة، بعد أن صار المكتب الماليّ غير قادر على متابعة شؤون الإغاثة بسبب النّزوح الكبير من القرى إلى كفرنبل، كان عندنا خمسة عشر ألف نازح وكان يجب إطعامهم. فتحنا المكتب الإغاثيّ من سبعة أشخاص. عندما اشتدّ القتال، خرج النّازحون. والكتائب التي جاءت لمساعدتنا قمنا بإطعامها، هكذا كنّا نعمل وحدنا، من دون الاستعانة بتجارب الآخرين. نحن صنعنا أفكارنا بأنفسنا. كيف يمكننا أن نيأس من إعادة الحاضنة الشّعبيّة إلينا. هذا

أمر صعب، لكنّنا الآن نواجه خطرًا أكبر من قدراتنا. كلّ هذه الكتائب الجهاديّة والفوضى الحاصلة غير معروفة المنشإ تقف عائقًا أمامنا. بالنسبة لي، لن أتوقّف عن هذا الحلم، لدينا تجربة مهمّة وعفويّة وتراكميّة يجب العمل عليها. لن أيأس أبدًا، لكنّني لن أقول أنّني أستطيع إعادة الحاضنة الشّعبيّة ببساطة». يتوقّف رائد عن الكلام برهة، ثمّ يتابع: «أعتقد أنّ هذا يكفي، لا يوجد المزيد». وأنا توقّفت عن الكتابة، وأشعل كلّ منّا سيجارته.

كانت السماء تلمع. ولم أستطع التّفوّه بحرف واحد. رائد ينظر إلى شجرة الزّيتون، ويهزّ رأسه، والصّمت في اللّيل كان غريبًا. ليل بلا دويّ انفجارات. حينذاك كان ثقب قلبي يكبر ويكبر ويرى ألّا آخر لهذا اللّيل الطّويل.

العادات والتّقاليد هنا في الرّيف تشكّل جزءًا من هويّة ثقافيّة وسلوكيّة، حيث كانت المرأة لا تزال تعاني من الاضطهاد الّذي زادته هذه الحرب قسوة، ثمّ جاء تنظيم «داعش» و«جبهة النّصرة» و«أحرار الشّام» وغيرها من الكتائب الجهاديّة المتطرّفة لتفرض قيودًا تلغي حضور النّساء. كنّا وما زلنا نحلم ونقاوم. رزان في بداية الثلاثينات من عمرها، اعتُقلت مرّتين في سجون الأسد. صغيرة الحجم. كان بيتها حميميًا. كنت موقنة بأنّه كباقي البيوت التي عرفتها، جزء من حنيني المرّ، أستعيض عن سورية كلّها بالبيوت تلك. كلّ بيت له مكانته، بيت «أبو إبراهيم»، حيث أقيم. المكاتب الإعلاميّة، الأمكنة التي بقينا فيها لساعات طويلة محاصرين تحت القصف، بيت «أمّ خالد». بيت «عبّوش» المحترق. البيوت المتراكمة في الذّاكرة والتي تهدّمت بفعل القصف، كنّا نتحرّك كأنّنا نعيش حياة عاديّة. نحن والموت نتغازل. القصف لا يتوقّف، لكن يجب أن نعدّ القهوة بهدوء على «غاز» صغير. فنجان القهوة هذا أهمّ من فكرة الموت والحياة في صباحات القصف!

يتوجّب علينا الاعتناء بمظهرنا جيّدًا. التّنظيف اليوميّ المتكرّر بالماء الشّحيح. نفعل ما يجب أن نفعله. الحياة تستمرّ بكلّ تفاصيلها. ننتظر الشّباب ليأتوا ويصطحبونا معهم، حتّى لا نسير كغريبتين في شوارع «كفرنبل».

اعتقلت رزان في شهر كانون الثّاني سنة ٢٠١١ من قبل فرع الأمن السّياسيّ في دمشق، على الحدود الأردنيّة - السّوريّة. بقيت في سجن «درعا» مع القضائيّات المتّهمات بجرائم القتل، ثمّ نقلوها من مكان إلى آخر. كلّ يوم تتنقل إلى سجن مختلف، حتى وصلت إلى دمشق، حيث أطلقوا سراحها، وبعد شهرين اعتقلت من جديد، في فرع المخابرات الجويّة، ثم أُطلق سراحها، ولم تتوقّف عن العمل. هربت عبر الحدود، وقرّرت العودة إلى ريف «إدلب»، للعمل من أجل الثّورة. تقول رزان: «إنّ الجيش الحرّ كان في قلب دمشق، وكنّا مهيّئين لتسقط الشام. وكان مخيّم اليرموك محرّرًا، وكنّا نعقد اجتماعاتنا هناك».

عملت في الإغاثة الطّبيّة وفي التّوثيق. كانت قادرة على الجمع بين النّاس، وهي واحدة من أبرز وجوه الثورة، ولا تزال تحلم بساحاتها، رغم ما يحدث. أنا كان لي رأي مختلف، كنت أرى أنّ الثورة بدأت مرحلة خرابها الصّعب، وأنّ ما يحدث يتمّ التّخطيط له خارج الأراضي السّوريّة وخارج حدود الثورة التي حلمنا بها، لكن بالنّسبة لي، كان خيار التّخلّي عن العمل من داخل الثورة، أمرًا غير قابل للنّقاش.

جاء «أبو طارق»، انتظرنا أنا ورزان في نهاية الدّرب التّرابيّة المؤدّية إلى الشّارع. كان الرّجل خيّاطًا من قبل، وله سمعة طيّبة بين النّاس، وهو قائد قطاع عسكريّ الآن، لا يزال يحلم بسورية واحدة، ولا يرى في ما يحدث سوى حرب مضطهدين ضدّ نظام طاغية، ولا

يريد أن يسمع أيّ كلام عن الطّوائف والأديان، رغم أنّه كان يصلّي ويصوم، وملتزمًا بدينه، لكنّه كان يقول: «هذا أمر آخر، نحن نريد بناء دولتنا، ولا نريد خرابها»، سوف أذهب اليوم معه إلى «معرّة النّعمان» و«البارة». أترك رزان في البيت، ونتّجه في طريقنا.

«معرّة النّعمان» كانت مدمّرة بالكامل. وهي خطّ جبهة، ولا تزال حتّى الآن تتعرّض للقصف اليوميّ العنيف. كان هذا منذ ثلاثة أشهر فقط، والوضع الآن على ما هو عليه. ماذا بقي ليقصفوه في هذه المدينة التّاريخيّة العريقة؟ الرّجل الّذي سنذهب إلى لقائه كان أمير حركة «أحرار الشّام» في «معرّة النّعمان».

تجاوزنا منطقة الخطر التي حفظتها غيبًا لأنّني كنت أرافق رائدًا عندما يذهب إلى سوق الخضار قبل الإفطار. كنت أحني رأسي وأحبس أنفاسي لدقائق. هذه منطقة القنص التي يطلّ منها جنود النّظام. قبل أن ندخل «المعرّة» بدقائق، سقط صاروخ، وكان الانفجار عنيفًا. لم نتوقّف. استمررنا بالتّقدّم.

المشكلة التي باتت واضحة، أن سيطرة استبداديّة من نوع آخر دخلت، وصارت تشكّل عائقًا جديًّا أمام أيّ عمليّة نشاط مدنيّ، أو محاولة لتنمية المجتمع المهدّم. لكنّ البدء بخطوات بسيطة لا تستفزّ الكتائب الجهاديّة، سيكون مدخلًا جيّدًا للحفاظ على علاقة إنسانيّة بين النّساء والعالم الخارجيّ. لم يعد مسموحًا بأيّ نوع من أنواع الاختلاط. تحوّل الأمر قانونًا، والظّهور من غير حجاب، صار أمرًا غير وارد بالمطلق. أيّ امرأة غير محجّبة هي عرضة للملاحقة، وأيّ ناشط أو ناشطة مدنيّة سيكون تحت خطر الخطف أو القتل أو الاعتقال. لكنّني لن أيأس أبدًا.

كنت مصرّة على إجراء هذا الحوار مع أمير «أحرار الشام»، ولكنّني جزمت بأنّني لن أعرّفه بنفسي.

«أبو طارق» بالنّسبة للجميع أهلٌ للثّقة، وهو جدير بها. لقد كان مخلصًا للثورة وللنّاس. لكنّه المخلص اليائس!

توجّهنا إلى مكان الانفجار. القذيفة سقطت قرب مدرسة للأطفال. كان شباب جمعيّة «بسمة أمل» يشرفون عليها. القذيفة اخترقت أحد الجدران، وانهار جزء من السّقف على المقاعد الملوّنة. من غير الممكن أن يصدّق المرء أنّ هذا المكان الملوّن تمّ صنعه وسط خرائب البيوت. هو بيت قديم تتوسّطه الأشجار، وحيطانه ملوّنة، وبين ركام الحجارة، تبرز لوحات رسم عليها الأطفال بخطوط دقيقة ناعمة أشكالًا مختلفة. أمام باب المدرسة، كان يجلس رجل عجوز، وهو يرفع يديه إلى السماء. الدّخان والغبار كانا لا يزالان يملآن المكان. الرّجل العجوز أصيب ابنه بالقصف ومات في ساعته. «كان هذا صاروخ» يقول شاب واقف بالقرب منّا، وإلى الجانبين نفايات وأكوام حجارة. كنّا وسط ثلاث جبهات قتال.

بين المدرسة المدمّرة ومكتب أمير «أحرار الشّام»، الخراب يبدو جليًّا أكثر فأكثر. القمامة لا تزال في الشّوارع الخالية، وأحيانًا نلمح إشارة للحياة.

المكتب الّذي يجلس فيه أمير حركة «أحرار الشّام»، يشبه مكتب مدير مؤسّسة حكوميّة. يضع سلاحه إلى جانب الأريكة، وأمام المكتب مقاتلون للحراسة. في الجهة المقابلة، كانت عوائل تخرج وتدخل لتعيق الحركة. المقاعد والأريكة من الجلد الأسود. المكتب الخشبيّ يلمع، نظيف، ومجموعة من الأسلحة من الرّشّاشات تصطفّ وراء «أبو

أحمد». أمير «أحرار الشّام»: عمره ثمانٍ وثلاثون سنة وهو من إحدى القرى المحيطة «بالمعرّة». وكان يعمل بلّاطًا في لبنان قبل الثورة، ولديه مشاريعه هناك. عندما بدأت الثورة، ترك لبنان وجاء في الشّهر الثّامن من سنة ٢٠١١، وانضمّ إلى الحراك العسكريّ مباشرة. لم يشارك بأيّة تظاهرة سلميّة، ولا علاقة له بالحراك المدنيّ. كلّ هذا لا يعنيه، كما يقول. انتسب إلى مجموعة مسلّحة من خمسة عشر شخصًا.

«أبو أحمد» أشقر الشّعر، لحيته طويلة كثّة، معتدل الطّول، ممتلئ الجسم. يتحدّث إليّ ولا ينظر في وجهي. لم يسأل من أكون. قال له «أبو طارق» أنّني أعدُّ كتابًا وأريد رؤيته، فوافق. بدأ بمعلومات بسيطة، وكان يتوجّه بالحديث إلى «أبو طارق» مبتسمًا. طلبت منه أن يتحدّث بما يريده عن نفسه وعن حركة «أحرار الشّام»، عرفت أنّ عناصرها يروّجون لحركتهم، لذلك وجدت الفرصة سانحة لحثّه على الكلام. كانوا يشكّلون جزءًا أساسيًا من المعارضة المسلّحة الإسلاميّة، وفريقًا فاعلًا في الشّمال. أدار رأسه، ووجّه الكلام إلى «أبو طارق». قاطعه أحد المقاتلين، دون إلقاء السّلام، بأن وضع ثلاثة رشّاشات على الأريكة، ثمّ خرج.

أنظر في صفحتي البيضاء. كنت خائفة قليلًا، لأنّ أصوات القصف قريبة، ونحن بين جبهات قتال عدّة، ولم أستسغ فكرة أن أكون في حضرة أمير من جماعات الجهاديّين، وأقوم بإجراء حوار معه، وأنا بكامل هدوئي. لكنّني أبتسم، وأحاول إخراجه من تكتّمه. كان النّهار قد انتصف، وبدأت أشعر بالضّيق والاختناق، حلقي يجفّ، تعرّقت فجأة. لكن «أبو أحمد» تكلّم أخيرًا، وبدأت أكتب: «التحقتُ بالحراك العسكريّ لإسقاط نظام بشّار الأسد ولإحلال شرع الله على الأرض. عشنا تحت ظلم وإجرام حافظ الأسد وابنه أكثر من أربع وأربعين سنة.

هذا يكفي، كانوا يقومون بالتّحقيق معي فقط لأنّني أقوم بقراءة كتب ابن تيمية، وابن قيم الجوزيّة. فعلوا ذلك مرّات عدّة، مع أن جزءًا من عائلتي كان يساند النّظام، هذا نظام كافر. وما أفعله الآن جهاد في سبيل الله. عندما اجتمعنا أوّل مرّة، كنّا نملك ثلاث بنادق وسيّارة واحدة فقط، مع أبو البراء، وهو أحد مؤسّسي حركة أحرار الشّام، كان ذلك في شهر آب من سنة ٢٠١١. ناقشنا إن كان يجوز لنا قتل العسكريّين وتوصّلنا إلى أنّهم إذا انشقّوا فلن نقتلهم ولكنّهم إذا ماتوا أثناء القتال، فهذا ليس إثمًا علينا وموتهم حلال. بدأت حركة أحرار الشّام بخمسة أشخاص فقط. كانوا يقولون لي أنّ أبو البراء تكفيريّ، ويريدون منّا الابتعاد عنه. لكنّنا بقينا معًا، وصنعنا العبوات النّاسفة في طريق دوريّات الأمن. لكن، عندما تدخّل الجيش اختلف الأمر. لم نتوقّع أن يتدخّل الجيش ويقتلنا، ويقصف المدنيّين. كان هذا في بداية سنة ٢٠١٢. عندما بدأ القصف، حصلت عمليّة إبادة، واختلفت خطّتنا. كنت الأخ السّادس الّذي انضم إلى أحرار الشّام، وأنا من المؤسّسين، وتعرّفت على الأمراء الّذين قاموا بتشكيل أحرار الشّام. وبقينا أنا وأبو البراء نقوم بعمليّات التّفجير بالعبوات النّاسفة. ننتقل في سيّارة سابا وكل خمسة عشر يومًا نقوم بتغيير لونها، واكتسبنا شهرة بتفخيخ السّيّارات، والآن أنا أمير المعرّة، ولدينا كتيبة من ألف أخ مجاهد».

«لكن، ماذا تعني كلمة أمير هنا؟ لم تسمّون بأمراء؟ أنتم في «أحرار الشّام» وفي «جبهة النّصرة» و«داعش»؟...»، أسأله.

ينظر إليّ خطفًا، يهزّ رأسه، ويتابع: «الأمير يعيّن المسؤول العسكريّ، والّذي يخطّط للعمليّات، وهناك مسؤول شرعيّ كالقاضي. لدينا في الكتيبة ما يسمّى بمجلس الشّورى، لكن غالبًا قرار الأمير هو

المرجّح». أقول: «إذًا، ما الفرق بينك وبين حافظ الأسد وابنه، إذا كان الغالب هو رأيك؟». يجيب بهدوء: «ليس للأمر علاقة بي. لكن هذا قانون. . . للأمير ضعف الأصوات». لا أجادله وأترك له فرصة الكلام. كنت أصوّب عينيَّ على فوهّات الرّشّاشات الموضوعة جانبه، يتابع: «الأمير هو المسؤول السّياسيّ أيضًا. لكنّ العمل العسكريّ هو الأساس. لدينا متطوعون كثر من الإخوة الجهاديّين بين المقاتلين. نحن لا نهتمّ بالمال، لكنّه يساعدنا على استقطاب أصحاب العقيدة الصّحيحة. لا رواتب لدينا».

قاطعته: «لكنّني عرفت أنّ هناك رواتب لمقاتليكم، وهناك جمعيّات لكم ومؤسّسات تجاريّة، وهذا ليس بخافٍ على أحد». أجاب وهو ينظر في عينيَّ للمرّة الأولى، وبالهدوء نفسه: «هذا يسمّى احتياجات المقاتلين، الرّواتب من أجل أسرهم، ومصروفهم، والجمعيّات من أجل مساعدة النّاس». «والمؤسّسات التّجاريّة؟» أضيف، فيقاطعني بحدّة: «في البداية كانت هناك متاعب، لكنّنا مع معاركنا، بدأنا نغنم من السّلاح. صارت لقمتنا من الجيش. هذه أموال مسروقة من المسلمين ويجب أن تعود للمسلمين. في المعرّة هنا اشتريت عدّة صهاريج لنقل مياه الشّرب من بئر للنّاس. لا يوجد ماء ولا كهرباء. ومشاريعنا الاستثماريّة هي لمساعدة النّاس. طريقنا طويلة، وإن تنصروا الله ينصركم. يوجد لدينا مستقلّون عن الثورة. ولدينا من الجهاديين غير السوريين مخلصون لنا، ولدينا الكثير من السّوريين من الإخوان المسلمين الذين هاجروا إلى الخارج وكبر أولادهم في المنفى. هؤلاء عادوا للقتال معنا. بالعموم، هناك نسبة ثمانية وتسعين بالمائة بيننا من السوريين. كان هناك ثلاثة من الشيشان، لكنّ أصلهم سوري، هاجر آباؤهم منذ بداية السّتّينيّات».

«أبو طارق» يتدخّل، بين وقت وآخر، لإضافة فكرة، أو شرح ما هو غير مفهوم. كنت أحاول إبداء أكبر قدر من الهدوء. لكنّ الجوّ كان خانقًا، وأصوات الضّجّة خفّت في الخارج. وبدا العالم مسالمًا للحظة. نادرًا ما أحظى بذلك الصّمت في وسط النّهار. لكنّ رائحة الجلد أطبقت على صدري.

«ما هو شكل الدّولة القادمة التي تريدونها؟» قلت. نظر في عينيّ مباشرة: «ما نريده هو سقوط الطّاغية» فألححت عليه مرّة ثانية وكرّرت السّؤال، وبجدّيّة تامّة: «طبعًا، نريد إمارة إسلاميّة. سوف يكون لدينا أمير للمؤمنين، ومجلس شورى» يصمت. فأقول: «ثمّ؟». «ثمّ ماذا؟... سيكون هناك قوانين تحمي الطّوائف والنّصارى. ممنوع على المرأة الخروج من دون حجاب. السّفور ممنوع هذا أهمّ شيء».

كان «أبو طارق» ينظر إليّ، وأنا أتابع تدوين ما يقوله، وأسترق النّظر إلى «أبو أحمد». لكنّه عندما أنهى جملته الأخيرة، نظر «أبو طارق» إليّ، محذّرًا بعينيه، ابتسمت، فتابع «أبو أحمد»: «العلويّون لا بقاء لهم في سورية، المسيحيّون يعاملون معاملة النّصارى في الإسلام، ونحن نعلن أنّنا نبشّر بخلافة راشدة». يقول «أبو طارق»: «والعلويّون الذين مع الثّورة والدروز؟». «العلويّون الّذين مع الثّورة قلائل، ليخرجوا. ونحن سنقاتل العلويّين والأكراد حتى آخر قطرة دم». استغربت إقحامه الأكراد هنا، لكنّني تابعت الكتابة: «لدينا خمسة وعشرون أخًا في مجلس الشّورى، ولا نعترف بما يسمّى برلمان، ولا نقبل أن نمشي في نهج الإخوان المسلمين ولسنا متّفقين معهم. لدينا الآن أربعون سيّارة وأربعون طنًّا من المتفجرات».

كنت أشعر بقطرات العرق تنساب من تحت أذنيّ وتخترق منتصف صدري وتستقرّ في بطني. تلك القطرات تزداد، وأصابعي ترتجف.

فكّرت في تلك اللّحظة في أنّ أيّ حركة أو ردّ فعل في النّقاش ستكون قاتلة ومميتة. ركّزت في حروف الكلمات التي أكتبها، فأنا الآن كاتبة وصحافيّة يجب عليها إنهاء مقابلتها وتدوينها ثمّ الانصراف، وهذه أولويّة، ثمّ يجب رمي المرأة الأخرى التي تتنفّس الآن وتتعرّق وترتجف حنقًا وخوفًا. الآن أنا في طور النّظر إلى المرأة الأخرى التي ستكون لاحقًا.

يتابع أمير حركة «أحرار الشّام» في «معرّة النّعمان»: «نحن وجبهة النّصرة متفقون في العقيدة، نختلف في بعض الأمور، وهم رجال أشاوس».

أسأله «ما اسم أمير حركة أحرار الشّام الآن؟». يجيب بغبطة: «كبيرنا وأميرنا هو حسّان عبّود أبو عبد الله، وقد كان سجينًا وأطلق سراحه في الشّهور الأولى للثورة. نحن لدينا نخب دينيّة مهمّة، وعملنا منذ البداية على وجودهم بيننا. في أيار سنة ٢٠١١، اشتغلنا بسرّيّة وجدّيّة، ولم نعلن عن تشكيل مجموعتنا حتى نهاية السّنة. نحن الآن جزء من الجبهة الإسلاميّة السّوريّة وكنّا قبلًا أربعة فصائل، اتّحدت في ما بينها وشكّلت حركة أحرار الشّام وهي حركة الفجر الإسلاميّة، وجماعة الطّليعة الإسلاميّة، وكتائب أحرار الشّام، وكتائب الإيمان المقاتلة».

«ألم تجد غريبًا أن يطلق النّظام سراح الشيخ حسّان عبّود في هذا التوقيت بالذات؟». ينظر إليّ مستغربًا. أقول: «توقيت اندلاع الانتفاضة ضدّ الأسد؟». «لا، لم أجد ذلك غريبًا». أسأله عن داعش وموقفهم منه؟ يقول: «الإخوة في دولة العراق والشّام موجودون هنا في المعرّة، وقد شاركوا معنا في القتال وقسم كبير منهم من المهاجرين، إنّهم يريدون القتال ضد الطّائفة النّصيريّة». يقول «أبو طارق»: «تأخرنا

يجب أن نذهب»، فأهزّ له برأسي. سوف ننتهي قريبًا، يضحك «أبو أحمد» ويقول: «أنا تحت أمركم».

«كيف تتخيّل الوضع عندما يسقط بشّار؟»، أعاجله بالسّؤال. يجيب: «ستحصل نزاعات كبيرة. هناك حروب بين بعض الكتائب، ثمّ أني لا أفكّر بما سيحدث بعد سقوطه. أنا شهيد بإذن الله تعالى، أنا أصبت في المعركة ست إصابات، وبعد الإصابة الأخيرة لم أشارك سوى في معركة واحدة».

«هل صحيح أنه يوجد الآن أمراء حرب؟». يجيب: «نعم يوجد، هكذا هي الحروب». أقول له: «هذا يعني أن سورية ككيان وطنيّ لم تعد مقبولة بالنّسبة لكم؟». «كيف هذا؟» يردّ مستغربًا. «يعني أنّكم تريدون أن تكون هناك دولة الإسلام وهذا يعني انهيار كامل لسورية؟». قال: «لا، نحن فقط نُعلي راية الإسلام. سورية تبقى كما هي لكن إسلاميّة، العلويّون يخرجون». قلت له: «هم أكثر من مليوني شخص، وماذا عن المسيحيين وغيرهم من الطّوائف؟»، قال: «ليخرجوا من سورية، أو يسلموا، أو يدفعوا الجزية؟». «ومن لا يخرج؟»، قلت. يجيب: «سيلقى مصيره». «القتل؟»، أقول. «هذا جزاؤهم»، يردّ حانقًا. «والنّساء والأطفال؟». «ليخرجوا، ليخرجوا»، يردّ ولا أترك له مجالًا ليتوقّف. «والدّروز والإسماعيلية ماذا ستفعلون بهم؟» أسأله بصوتٍ عالٍ. «هؤلاء إذا عادوا إلى الإسلام أهلًا وسهلًا بهم، وإذا لم يفعلوا فهم بحكم الكفّار، ندعوهم للإيمان، أمّا العلويّون فهم مرتدّون ويجب قتلهم». ضحكتُ محاولة تغطية توتّري، وقلت: «لكنّ النّساء والأطفال، النّساء ما ذنبهنّ؟». أجاب: «النّساء يلدن الأطفال والأطفال يصيرون رجالًا، والرّجال يقتلوننا!». وقف «أبو طارق»، وقال: «هذا كلام لا يمثلكم! الله يخليكي يا مدام، لازم نمشي».

فهمت أنّه لم يعد مسموحًا لي بالحديث، وكان «أبو طارق» ينظر إليّ بذهول، وأنا هادئة تمامًا. نهضت بتثاقل، وقلت لـ «أبو أحمد»: «لكنّ هذا ليس دين تسامح، وهذه ليست إرادة الله، هذا شرّ مطبق». هز «أبو أحمد» رأسه، وقال: «دعي أمور الحرب للرّجال يا أختي».

بينما كنّا نغادر، حدثّني عن مشروعه لإنشاء مدرسة تحفيظ القرآن، وهو مشروع يأمل من خلاله بأن يضمّ أطفال «المعرّة». قال: «سمعت أنّك مهتمّة بالتّعليم» أجبت: «جدًّا يا أبو أحمد، هذا أهمّ ما علينا فعله». قال: «نحن نريد فتح مدرسة لتحفيظ أطفالنا القرآن». قلت: «جزاكم الله خيرًا، لكنّ القرآن لدين النّاس، والتّعليم لعقل النّاس، ونحن نحتاج العقل البشريّ، دع الله في الفؤاد». هزّ رأسه بسخط، وهممتُ أن أعرّفه بنفسي، لكنّ نظرات «أبو طارق» لجمتني. انطلقنا بسرعة بالسيّارة. كان «أبو طارق» واجمًا. وبقينا صامتين. فتحت كفّي، بعد أن صرت خارج « المعرّة» وكتبت تاريخ الرّابع من آب. علّمتها بشكل جيّد على راحتي.

«أبو طارق» في الأربعين. كان يملك ورشة لتصنيع بدلات الأعراس والأفراح، وكذلك ورشة «موازييك» ورخام. ميسور الحال. خرج في تظاهرات سلميّة منذ اليوم الأوّل، وهو يريد دولة مدنيّة، ويؤكّد قائلًا: «من المستحيل تطبيق الشّريعة الإسلاميّة على المجتمع السّوريّ. هذا مخالف لطبيعة المجتمع». درس حتّى الصّفّ الحادي عشر (الثّانويّ الثّاني). خرج مع الثّوّار طوال سنة وبقي ملاحقًا قبل خروج الجيش، رغم أنّه قائد قطاع عسكريّ كامل، ويندرج تحت إمرته ألوف العناصر. مع ذلك، عندما يسقط بشّار سوف يقوم بترك السّلاح ويعود إلى عمله.

زعق اللّاسلكي، وبدأ الحديث مع المقاتلين. كان «أبو طارق»

يتحدّث بلغة الأرقام، ويسأل عن احتياجات القطاعات، ويخبر الشّباب بأنه سيراهم بعد الإفطار. يعلو صوت آخر من اللّاسلكي، وتتكرّر الأرقام. أطلب منه المرور على خطّ الجبهة، فيقول أنّنا نقف على حدوده، ولن نصعد إلى أعلى الهضبة في نهاية الشّارع.

قطط تنتشر في الشّوارع. قطط هزيلة، وقطط سمينة. سمنتها غريبة منفوخة. الدّمار على ما هو عليه، يزداد فقط، وتختلط الموادّ ببعضها. هكذا في الخراب، تتماهى الأدوات والعناصر مع كتلة من القبح الغريب.

عندما نقترب من الجبهة، تتحوّل هذه الكتل المدمّرة إلى لون أسود، هي آخر مراحل تشكّل كتلتها المادّيّة، الحرق، بحيث لا يبقى منها سوى قضبان الحديد وإسمنت وحجارة. لكن هذا يكون أفضل لأنّ الأوساخ تتحوّل إلى رماد.

هنا لا أثر للبيوت، «أبو طارق» الّذي استشهد سبعة من أصدقائه منذ بدء القتال، بدا هادئًا وهو يطلب منّي ألّا أترجّل من السيّارة، وأضاف أنه «لا يمكننا البقاء لأكثر من دقائق». لم يكد ينهي جملته حتّى بدأ أزيز الرّصاص من الجهة الأخرى. أدار «أبو طارق» محرّك السيّارة وعاد أدراجه.

كان يوم أمس ثقيلًا جدًا، لأنّ عملنا كان بعد الإفطار والقصف متزامن معه، حيث الذهاب إلى المدرسة بقرية «الدار» في «باص الكرامة»، ثمّ العودة ليلًا واستقبال مجموعة من الشّباب والمقاتلين والحوار معها. جاء رجل إلى المكتب الإعلاميّ، قال أنّه قادم من الدنمارك، من أجل مارتن سودر، وهو يبحث عن خيط يدلّه عليه. وصل ليلًا، وقال أنّه يريد رؤيتي من أجل الاستفسار عمّا حصل. كنت نسيت أنّ وجودي صار مكشوفًا، ومن الخطر البقاء، لكن شيئًا من العناد جعلني أبقى لمدّة أطول، إذ لا يمكنني الاستسلام بسهولة لفكرة أنّ المناطق التي أطلقنا عليها اسم «المحرّرة» صارت محرّمة، وتشكّل خطرًا لا يقلّ عن خطر نظام الأسد، بالنّسبة لامرأة مثلي! هي أسوأ بالتأكيد. «أبو المجد»، قائد لواء فرسان الحقّ، قال إنّ عليّ ألّا أخشى شيئًا بينهم، لأنّهم يقومون بحمايتي بشكل جيّد». كنت أعرف أنّني بأمان بينهم، لكنّهم هم أنفسهم لم يكونوا بأمان. وكنتُ أودّ إتمام مهامي مع النّساء والأطفال.

سهرنا حتّى وقت متأخّر، وعندما عدت إلى بيت رزان، كانت الفتيات مستغرقات في النّوم تحت الملاءات، وأصوات ضحكات الأطفال وزعيقهم في الأسفل تعترض دويّ الانفجارات البعيدة. إنّه اليوم السّادس هنا بلا كهرباء وبلا ماء وبلا «إنترنت» إلّا ما ندر، والمولّدات الكهربائيّة لا نستخدمها إلّا للضّرورة من أجل توفير الوقود. هناك فتيات يدخلن إلى ريف «إدلب» ومناطق الشّمال. يعملن في الإغاثة الطّبيّة وفي الإطعام، وقد تطوّعن لهذا الأمر وتركن بيوتهنّ في أميركا وأوروبا والمناطق الخاضعة لقوّات الأسد.

دسست نفسي في الفراش الأوّل على الأرض وغططت في سبات عميق كقتيلة. استيقظت في التّاسعة والنّصف صباحًا. في هذا النّهار، سنذهب للقاء أمير «جبهة النّصرة».

كنت أحاول اللّقاء بأحدهم منذ أكثر من ستّة أشهر، ولم أستطع. «أبو طارق» سيأخذني إلى «البارة» حيث سنلتقيه. كتبت على راحة يدي عندما ركبت السيّارة: الخامس من آب. كانت الكتابة تمّحي في آخر النهار، وتتحوّل إلى لون أزرق تصطبغ به عروق باطن راحتي، لكنّني فكّرت في أنّ الرّحلة الأخيرة استغرقت وقتًا طويلًا، وأنّني يجب أن أفعل كلّ ما يمكنني فعله لتنشيط ذاكرتي التي بدأت تضعف. في نهاية النّهار، أكتب على دفتري في أعلى الورقة التّاريخ كاملًا، لكنّ يدي المفتوحة هي التي كانت تخبرني في أيّ يوم نحن. ندمت بعد ذلك، لأنّني لم أستخدم هذه الوسيلة منذ بداية عودتي إلى سورية. فالثّقب الأسود في ذاكرتي كان يكبر أيضًا. ثقبان يتمدّدان، بين قلبي وعقلي.

في الطّريق إلى «البارة»، يستخدم «أبو طارق» اللّاسلكي للاتّصال بثلاثة أشخاص لترتيب اللّقاء. ذهب معنا إبراهيم الأصيل، وهو شاب سوريّ متطوّع، قدم ليقوم بتدريب الشّباب على فنّ الإدارة. كان يتجوّل

في الرّيف بشجاعة وتفانٍ، ويدرّب الإعلاميّين والنّشطاء المحلّيين.

لم يكن الوصول إلى أمير «جبهة النّصرة» سهلًا، فهو مصاب برجله في آخر معركة خاضها. مع ذلك، كان مصرًا على المرابطة قرب مضادّات الطّيران، والوصول إليه كان صعبًا، فهو في منطقة قتال وخطّ جبهة.

هنا، في قرية «البارة» دمار كبير. نسمع من اللّاسلكي أصوات المقاتلين يسبّون ويشتمون، كانت قد حصلت معركة كبيرة بين كتائب «الجيش الحر» و«داعش»، و«أبو طارق» يروي لنا تفاصيل المعركة. يقول: «إن داعش سرقت الثورة، وإنّه من الصّعب تركها تفعل ما تفعله، الخيار صعب بين أن نتفرّغ لقتال جيش الأسد، أو التفرّغ لقتال الكتائب المتطرّفة والمرتزقة التي دخلت الثورة وحرّفتها. نحن ننهك من السماء، مع الطّائرات وبراميلها وصواريخها، ومن الأرض، بهذه الكتائب. النّاس تعبوا جدًّا».

الرّحلة إلى «أبو حسن»، تشبه رحلة البحث عن كنز ضائع. قبيل الوصول إليه، كان علينا الالتفاف من طرق عدّة، حسب تعليمات أحد المقاتلين المحسوبين على المكتب الإعلاميّ لـ «جبهة النّصرة»، وكان يجب أن نتقيّد بتعليماته، حتّى نصل إلى نقطة محدّدة للقائه. هذه الجولات أدخلتنا في قلب «البارة»، ثمّ أخرجتنا منها ووضعتنا على أطرافها. القصف مستمرّ. القرية محروقة ومهدّمة كباقي القرى. بعد أكثر من ساعة، ونحن نقف إلى جانب الطّريق، توقّفت سيّارة بالقرب منّا، وترجّل منها شابّان. نزل «أبو طارق» وغاب معهما لبعض الوقت، ثمّ عاد ولحقنا بهما. اجتزنا بستانًا للزّيتون، وهضبة صغيرة.

لا يوجد حياة بشريّة هنا. مرّت سيّارة جلس مقاتلون في

صندوقها. مقاتلون شباب يحملون راية سوداء مكتوب عليها: «لا إله إلا الله»، واختفت في درب فرعيّة وسط البساتين. النّهار في منتصفه، ونحن نعلم، أننا يجب أن نعود قبل الإفطار بساعة.

قال الشّاب الإعلاميّ من «جبهة النّصرة» أنّنا تأخّرنا. طلب أن يصوّرنا قبل إجراء اللّقاء. أنا رفضت، ولكنّ هذه طريقة جماعة «القاعدة» في اللّقاء بالصّحافيّين والإعلاميّين. لم يصرّ، فأنا مجرّد امرأة! بعد اللّقاء، ونحن نغادر، سأخبره باسمي الحقيقيّ، دون ذكر أيّة تفاصيل إضافيّة. كنت أشعر بحاجة إلى الانتماء إلى هذا المكان وبحاجة إلى الإعلان عن نفسي فهذا جزء من حرّيّتي. رغم معرفتي بالأخطار، لكنّ يأسي ممّا يحصل كان يدفعني إلى ذلك التّصريح. أحيانًا، كانت موجات الغضب هذه تجتاحني، لا سيّما عندما يتمّ توقيفنا من قبل حاجز «داعش» وكل أفراده غرباء من تونس والمغرب والسّعوديّة واليمن والشّيشان، ما كان يجعلني أشعر بتلك الغصّة التي تجعل كلماتي تطفو على رأس شفتيّ عندما يسألون: «مين الحرمة؟» فيقول أحد الشّباب: «خالتي أو أمّي، أختي...» وهكذا! هذه المرّة استطعت ضبط نفسي حتّى آخر لحظة.

مشينا في بستان الزّيتون حتّى وصلنا إلى مدفن رومانيّ أثريّ. كان مدفنًا بديع العمارة. لكنّه تعرّض لقذيفة، داخل المدفن، الحجارة مسروقة، بقي بعض منها، ووراء المدفن بقايا القصف قد تحوّلت ركامًا. هذا المدفن عمره قرابة الألفي سنة، لكنّ «جبهة النّصرة» تستخدمه هنا. أسأل الشّاب: «من سرق المدفن؟». يقول: «غير معروف حتّى الآن. تمّت سرقات من الطّرفين، هكذا هي الحرب».

عند ذاك، تقدّم من بين أشجار الزّيتون رجل مربوع، ممتلئ، أسمر الوجه، يرتدي عباءة رماديّة، يتّكئ على عكّازه. رجله مرتفعة عن

الأرض. كان هذا هو أمير «جبهة النّصرة» في «البارة»، ويدعى «أبو حسن».

كان «أبو حسن» يعمل متعهّدًا في بيروت، في جبل الشّوف، في جزّين ودير القمر. عمل في ترميم المنازل وبنائها، بقي سبع عشرة سنة في لبنان. يقول: «أثناء عودتي إلى سورية، عندما كنت أعود إلى البارة، كانوا يقومون باعتقالي واستجوابي، ويتّهمونني بأنّني سلفي. في إحدى المرّات اعتقلوني لسبعة أيّام، ثمّ أطلقوا سراحي. أنا لم أكن مهتمًا بالسياسة. كانت تعهّداتنا وعملنا مع الأثرياء في لبنان. اعتقلوا أخي لمدّة أربع سنوات، وأطلقوا سراحه في شهر أيّار». قلت: «في الشّهر الثّالث للثورة؟». أجاب: «نعم».

كانت هذه الشّهادة التي تتكرّر دائمًا عن إطلاق سراح السّلفيّين والإسلاميّين في شهور نيسان وأيار وحزيران، تجعل من المقولات التي تتردّد عن اعتقال النّاشطين السّلميّين وتعذيبهم وقتلهم ونفيهم، وإطلاق سراح الإسلاميّين المتشدّدين، تزداد واقعيّة أمامي.

تابع «أبو حسن»: «أنا كنت ملاحقًا، ذهبت إلى بيروت قبل أربع سنين بإخراج قيد، وبعد معرفتهم بخروجي من سورية جاؤوا إلى بيتي في البارة. طوال السّنوات الأربع الماضية، عملت بعيدًا عن سورية، ولكن عندما بدأت أحداث درعا، عدت، وكانت النّاس قد قرّرت الخروج ضدّ نظام الأسد. خرجنا في مظاهرة سلميّة في جسر الشّغور، وفي البارة وفي جبل الزاوية. لم نحمل سلاحًا حتّى الشّهر السّادس من سنة ٢٠١١، عندما بدأوا يطلقون النّار علينا عشوائيًا ويقتحمون بيوتنا. لم نكن ننوي الاشتباك مع الجيش. كانت أهدافنا مقتصرة على أجهزة الأمن. كان الجيش بالنّسبة إلينا جيشًا وطنيًا ولم نتوقّع أن يقوم بقصفنا وقتلنا. بعد مجزرة المسطومة، قرّرنا حمل السّلاح والقتال. العنف هو

الّذي جعل النّاس تحمل السّلاح. كان معي حينها بندقيّة صيد فقط، استخدمها في الصّيد وفي الأعراس. نحن من بسطاء النّاس كما ترين. لم نكن معروفين. في الثورة صرنا معروفين. اجتاح الجيش جبل الزاوية في التّاسع والعشرين من حزيران، واستخدمنا سلاحًا بسيطًا هو الكلاشنيكوف، قتلنا بعض الشّبّيحة. لم نرغب أبدًا بإطلاق النّار على الجيش في البداية. واعتقدنا أنّ ما سيحدث في سورية، سيكون كما حصل في مصر وتونس وليبيا. لكنّ الجيش اقتحم القرية وكان هناك مخبرون من أهل القرية دلّوا علينا، فتركنا بيوتنا. عندما قام أحد قنّاصة الجيش بقتل امرأة من بيت الحلّاق وهي أرملة، غضب أهل القرية، وقمنا بمهاجمة حاجز الجيش وأطلقنا عليه النّار بشكل عشوائيّ، فقاموا بقصف قريتنا بعربات بي إم بي. كنّا نظن أنّ دخول الجيش القرية هو للفصل بيننا وبين رجال الأمن. ما حصل أنه دخل لمساندة قوّات الأمن في التّصدّي لنا. كنّا أمام مفاجأة دخول الدّبّابات القرية. كان هذا احتلالًا، لذلك تركنا بيوتنا نحن الرّجال وبقيت النّساء والأطفال، وقرّرنا القتال. خمسة رجال في مواجهتهم كنّا. حدث هذا في كلّ القرى والبلدات. صارت مواجهة شعبيّة بين الأهالي من جهة، وبين الجيش والمخابرات من جهة أخرى، وكلّ قرية قامت بتسليح بعض رجالها للدّفاع عن بيوتها وأعراضها. هكذا، بدأت الثورة، بعد ذلك اختلف الأمر. عدالة قضيتنا جعلتنا على ثقة من نصرنا، وقرّرنا مداهمة حاجز الجيش في البارة والاستيلاء على السّلاح، لأنّنا لم نكن نملك السّلاح ولا المال الكافي. وقصفونا بالدّبّابات. داهمنا المخافر وفروع حزب البعث وأخذنا السّلاح، وكذلك داهمنا أفرع التّجنيد وحصلنا على السّلاح. طبعًا، كان بيننا مخبرون، وكنّا ضعفاء، لكنّنا بدأنا ننتقل لمداهمة حواجز في جبل الزّاوية، لم نقتل رجال الأمن في البداية. كنّا

نطلق سراحهم، وهذا اختلف لاحقًا. تنقّلت أنا بين إدلب وحماه وحلب، للقتال. كانت طلقة «البي كيه سيه» غالية، سعرها ألف ليرة، ولم نكن نملك نقودًا، ووحشيّة النظام تزداد. كلّ يوم مجازر وقتل وقصف واعتقال. اشترينا السّلاح من مدّخراتنا ومن موسم الزّيتون، وكنا نساعد بعضنا ونتقارب، وبدا لنا حلم الانتصار قريبًا، الأمور اختلفت لاحقًا». أسأله: «كيف اختلفت؟».

قال: «قصّة طويلة، لكنّ أهمّها أنّنا لا نملك السّلاح، وأنّنا أنهكنا وقتل معظمنا. أنا منذ سنة، قرّرت الانضمام إلى جبهة النصرة، وانضمّ إليها الكثير من الضّبّاط أيضًا. لكن، قبل ذلك كنّا شكّلنا كتيبة شهداء جبل الزّاوية، وتعرّفنا على شباب لم يكونوا حينها ما بات يعرف لاحقًا بحركة أحرار الشّام، ولم يكن حينها أيّ سلاح يأتي من الخارج في شهر أيلول سنة ٢٠١١». قلت: «كنتم تقومون بما يشبه حرب العصابات، تغيرون على الحواجز، تحصلون على السّلاح وتقاتلون النّظام به؟». أجاب: «تمامًا».

يظهر رجل من بين أشجار الزّيتون. كان من كتيبة جمال معروف. أشقر أيضًا وممتلئ. ينضمّ إلينا ولا يتحدّث، لكنّه يصغي. يتابع «أبو حسن» أمير «جبهة النّصرة»: «أغنياء القرية قالوا لنا: اشتروا مضاد طيران ونحن جاهزون. لكن لم نستطع الحصول على مضادّات طيران. ولم تكن المشكلة في التّمويل. لا يريدون بيعنا مضاد طيران، لدينا في القرية مئة شهيد. تعرّفت على اثنين من الشّباب الملتحين، وأحدهما كان صديق أخي في السّجن. خرج بعد الثورة بشهرين، وهما من الكتيبة السّلفيّة. اختفيا عشرة أيام ثمّ عادا. عرّفاني على نفسيهما بأنهما من جبهة النّصرة في ريف إدلب. حينها لم يكن لهما نشاط في جبل الزّاوية ووجودهما بسيط في إدلب. وأرادا أن أكون معهما. فانضممت

إلى جبهة النّصرة حتّى نصبح قوّة واحدة».

«وداعش؟ ما علاقتكم بهذا التّنظيم؟». لا يجيب أبو حسن بشكل مباشر: «داعش ليست موجودة على الجبهة. هي في الخطوط الخلفيّة. كانت كلّها قبلًا جبهة نصرة وهم غرباء وليسوا سوريّين غالبًا. نحن دين تسامح، سنكون رحماء مع الأديان الأخرى. عمر رضيّ الله عنه كان رحيمًا. لكنّنا نريد الدعوة إلى الإسلام، ونريد قتل بشّار الأسد». قلت له: «عمر كان أوّل المجتهدين في الدّين وأنتم تكفّرون النّاس». بدا كأنّه اكتشف أمرًا ما، نظر إليّ نظرة خاطفة من رأسي إلى أخمص قدمي، وبالابتسامة العريضة نفسها أجاب: «أنا معتدل يا آنسة! بالنّسبة لغيري أنا معتدل! ما تسمعينه لا يروق لكثيرين هنا. التّكفيريّون هنا يذبحون ويجلدون. هناك مجموعات مخترقة فينا... أنا أريد دينًا إسلاميًّا يعمّ العالم كلّه، ولكن عن طريق الدّعوة. في جبهة النّصرة نريد مجلس شورى بدل مجلس الشعب. لا نقبل بوجود النّصارى بيننا. نحن ندعو إلى دين الإسلام. من يدخل فليدخل، ومن لم يدخل يدفع الجزية، ولدينا بيت مال للمسلمين. العلويّون لا مكان لهم بيننا».

وأنا اكتب أعرف أن عيني «أبو طارق» عليّ، وإبراهيم كذلك، حيث كان يحاوره أحيانًا معي ويدخل معه في نقاش. لكن عند تلك اللّحظة، كنت أركّز أكثر على شكل الكلمات التي أخطّها، حتّى لا يدخل «أبو طارق» معه في نقاش يخص الإحراج المتعلّق بي. يتابع أبو حسن: «أنا مقاتل وعسكري في جبهة النّصرة، وأنا مسؤول عسكريّ فيها، والآن، وبعد مرور سنتين ونصف على حربنا معهم، أقول لك هذه حرب سنّيّة ـ علوية، وهي حرب طويلة ولن تنتهي قبل عشر سنوات».

يتوقّف عن الكلام. المجموعة حولنا تشارك. كلٌّ يعطي رأيه.

كانوا ستّة رجال. أصغي إليهم. يتمازحون ويضحكون. ينظر «أبو حسن» إليّ وينسحب من الحديث معهم: «أحرقوا ثلاثة وخمسين رجلًا بالأسيد في قرية بلين... هكذا من أجل ماذا! سنحرقهم. نحن نعرف أنّ العالم كله يريد بشّار الأسد، وهو لن يسقط ليس لأنّه قويّ، ولكن لأنّه مدعوم من إيران وروسيا وأميركا والصّين، لكنّنا لن نتوقّف عن قتاله. عندما يسقط سأترك كلّ هذا. وأعود للعمل كمتعهد بناء. عندي أرض زيتون والأولاد ينتظرونني مع زوجتي».

أتركه يتحدّث لا أقاطعه، فيكمل: «أنا دخلت قرية علويّة ولم أقتل النّساء ولا الأطفال. أنا ضدّ القتل. الإسلام دين تسامح، ولا إكراه في الدّين. لكنّ ما أقوله أنا مع مرور الوقت لن يبقى. أنا معتدل، لكنّ صوتي وصوت أمثالي لن يبقى إذا استمرّ الحال هكذا والحال سوف يستمرّ، لذلك أرى المستقبل أسود. من سيدفع الثمن؟ ليس بشّار الأسد. العلويّون هم الّذين سيدفعون ثمن ذلك. هم كفرة لادين لهم». «أنت مخطئ هم ليسوا كفرة»، أجبته بسرعة، ونظرت إلى أبو «طارق»، لأفهمه أنّني لن أتجاوز حدودي. فقال لي: «ما أدراك؟ أنا أعرفهم أكثر منك». فقلت: «أنا أعرفهم قليلًا! ولكن يا أبو حسن يبدو أن الشّعب السّوريّ لا يعرف بعضه بعضًا».

المدفن في الأعلى مثلّث وينتهي بشكل مربّع. القذيفة تخترقه، ومن المؤكّد أن ضرب هذه المنطقة مقصود، لأنّها منطقة حقول زيتون وليست منطقة قتال. قال الشّاب المرافق، قصفوه من أجل سرقته، مضى ذلك الرّجل الّذي انضمّ إلينا من جماعة «جمال معروف»، لكنّ الشّاب قال له: «لم يعد ممكنًا السّكوت عن ذلك، لقد قاموا بسرقة الآثار ولم يكن جيش بشّار وشبّيحته من فعل ذلك فقط». «لكنّهم فعلوا

ذلك من أجل شراء السّلاح»، يجيبه الرّجل ويصمت الشّاب.

تحت أقدامنا عالم مختلف من الكائنات. جيوش من الحشرات، تلهب وجه الحياة! يسألني «أبو حسن»: «ولماذا أنت هنا؟ وكتابك هذا ماذا سيفيد؟» أقول له: «أنا أفكر في أن أسجّل حوارات مع النّاس الّذين صاروا في الثورة، أفكّر في أن تكون هذه الحوارات صوت الّذين لا صوت لهم». «وهل سيصدّقونك؟». «ليس مهمًّا»، أجبت باقتضاب. نظر إليّ بفضول: «أنت من دمشق؟». أقول له: «ما رأيك؟» يقول: «لا أعرف، لهجتك مختلطة؟». «أنا من كلّ الأمكنة»، أردّ. يبتسم ويضيف: «لكنّ هذه شجاعة أن تأتي إلينا». «وأنت ألست شجاعًا؟». يضحك وهو يقول: «أنا رجل وهذا طبيعيّ». فأقول: «وأنا امرأة وهذا طبيعيّ»، فيتوقّف عن الضّحك.

نتركهم رغم إصرارهم على استضافتنا. «أبو حسن» هادئ، يقول أنه لن يقتل طفلًا أو امرأة مهما كلّفه الأمر، لكنّه يعرف أنّ ذلك سيحدث مع مرور الوقت. كان شجاعًا، «من الممكن الاستدلال على شجاعة الرّجل من عينيه، هذه تحتاج إلى فراسة»، قلت لـ «أبو طارق» عندما سألني عن رأيي فيه. لا بدّ من الاعتراف بأنّ الثورة علّمتني الصّبر وفنّ الإصغاء.

كنّا نتبادل الأدوار أنا وهؤلاء الرّجال المقاتلون، تبادل أدوار الحكي في السّرد. هكذا أقلب العالم رأسًا على عقب. ألعب بالسّرد. كنت أستمرّ بالحياة لأنّني بحاجة إلى حيواتهم، وبحاجة إلى تحويلها إلى كلمات. الحكاية ستنعش الحياة. ستنقذ كلّ هذا الخراب. في أسوإ الأحوال ستبقى شاهدًا. حتّى لا تذهب أدراج الرياح، وهكذا

«أبو حسن، «أبو أحمد» و«أبو المجد»، سيتحوّلون إلى صوت شهرزاد، وأنا شهريار الّذي يصغي. بالمعنى الحقيقي أنا شهريار ثنائيّ الجنس. من يصغي ليعود ويتقمّص شهرزاد، ثمّ يحكي. أنا من يتبادل الأدوار بين شهرزاد وشهريار داخل الشّرنقة نفسها، تارة أحلّ فيه وتارة أحلّ فيها. تارة أستمع وتارة أخلق الحكاية. لولا ذلك لتوقّفت عن العودة إلى سورية. وبقيت في منفاي. هذه تورية جماليّة لجنوني بمعرفة الحقيقة. تورية قبيحة أجمّل بها علاقتي بالرّغبة في كتابة الحكايات.

كان لا بدّ من العودة إلى «سراقب». تتشكّل بيني وبين نفسي آليات لتحدي فكرة الخروج نهائيًا من هذا المكان، وفكرة طردي منه شئت هذا أم أبيت. استئجار بيت في «سراقب» أو «كفرنبل»، صار مستحيلًا، والبقاء هنا والعيش بشكل طبيعيّ يبدو ضربًا من الجنون، ويفترض أنّ لكل إنسان الحقّ بممارسة جنونه. لكنّ الّذي صار عبئًا على الشّباب هو تحميلهم مسؤوليّة حمايتي ومرافقتي في كلّ مكان أريد التحرّك فيه. فكّرت في أنّه بات معروفًا لكثيرين أنّني في «سراقب». لكن، كان لا بدّ من إنهاء العمل مع النّساء.

في الطّريق من «كفرنبل» إلى «سراقب» مع منهل ومحمّد، أصوّر البيوت والأشجار والسماء، بشكل متواصل، البشر الّذين يتحرّكون في السّهول، لون السماء اللّازورديّ، الوجوه الشّاحبة للأطفال الّذين يتوزّعون على الطّرقات ويبيعون كلّ شيء.

على أبواب «سراقب»، القصف مستمرّ. هذا أمر عاديّ هنا.

«كفرنبل» مكان آمن نسبيًا، مقارنة بالجحيم الّذي تعيش فيه «سراقب».

عندما وصلنا، نزلنا مباشرة إلى القبو، كان القصف كثيفًا، ونورا و«أبو إبراهيم» يجلسان هناك.

لم أنم. بقيت حتّى الرّابعة فجرًا مرتدية ثيابي. البعوض يحرمنا النّوم. وجسمي يحكّني من لسع البعوض الّذي امتدّ حتّى جفوني، وعندما استطعت أن أغفو لساعة، كان القصف كفيلًا بإيقاظي. العجوزان نائمتان. بقيت في غرفتهما مع عيّوش. لا أعرف لمَ فعلت ذلك. جسدي صار ثقيلًا، ولم أعد أتحرّك. أردتُ الاستحمام. لم يكن هناك ماء كثير، لكنّ هناك ما يكفي لإزالة أدران نهارين متواصلين. الحمّام معضلة هنا. تبقى نورا إلى جانبي من أجل طمأنتي، تقف قرب باب الحمّام. القصف مستمرّ رغم أنّه ليس قريبًا. أستحمّ على عجل. نذهب مباشرة إلى غرفة العائلة الكبيرة حيث كان علينا اجتياز الباحة، وحيث سقطت أيضًا قذيفة بالقرب منّا ونحن نعبرها، لكنّنا ارتشفنا القهوة بهدوء إلى جانب العجوزين، واستطعت تدخين سيجارة. كان تدخين سيجارة حلمًا بالنّسبة لي في العراء. هنا نستطيع التّدخين. لوهلة، شعرت بالحزن لأنّني سأغادر بعد أيّام.

اليوم سيكون طويلًا أيضًا في الجولات على بيوت النّساء.

انتصف آب، ولا شيء يتغيّر. تتغيّر الوضعيّات الّتي يموت فيها النّاس. وتختلف طرائق موتهم، وما يبقى من أشلائهم فقط. تكرار لتفاصيل العيش، لا شيء يمكن الحديث عنه أكثر من تناسل الحكايات من الحكايات. انتقام الشّرّ من الشّرّ والبلاهة الّتي تغطّي الوجوه تحت وطأة القصف اليوميّ والاصفرار الدّائم لحدقات العيون ومجموعات

المشرّدين. لا شيء يزداد سوى حجم كرة الكراهيّة التي تتساقط عبر سموم تلقي بها الطّائرات من السماء. تتكرّر اليوميّات، وجوه النّساء الجميلات الأرامل تحت عين الشّمس، الملتفّات حول بعضهنّ، يصنعن من الموت حياة، ويقمن بتوضيب حقائب موت آخر.

لا شيء جديد. تفاصيل عن شراء كيلوغرام من الخضار، والرّحلة الصّعبة من البيت إلى سوق الخضار. رحلة مؤقّتة لموت مؤجّل ولعب لا يتوقّف مع طائرات «الميغ». الحدقات نفسها لا تتغيّر، تتحوّل لاصقات تسِمُ العيون بانفعال واحد: الرّعب، وبين تفاصيل اليوميّات والجولات المسائيّة والصّباحيّة إلى بيوت النّساء والعمل معهنّ، لا يتغيّر شيء أيضًا. تُفتح قبور وتُردم أخرى. تُكتشف جثث مرميّة في الوديان وفي الهضاب. تُهدم أضرحة دينيّة على أيدي الكتائب التّكفيريّة، وتُبنى مكانها معسكرات جديدة لـ «داعش»، وعبر هذه التّفاصيل لا تزال عروق تنبض بالمقاومة. لا يزال هناك جنود لم يقبلوا بالارتهان لإرادات الدّول الكبرى ومصالحها. جنود وناشطون مدنيّون وسلميّون يُعتقلون من قبل «داعش» ويُقتلون، أو إعلاميّون سوريّون وأجانب يتمّ خطفهم وقتلهم أو الاحتفاظ بهم من أجل الفدية، ومن يبقى تقتله طائرات الأسد.

مقاتلون شباب في أوائل العشرينات يبيعون أثاثهم ويأكلون نباتات البرّيّة ليدافعوا عن بيوتهم ووجودهم. هنا تختلط المعاني، لا شيء واضح. كتائب تتصارع مع كتائب، العسكر يأكل الثورة. العسكر الدّينيّ المتطرّف بفصائله كافّة يصير وحشًا. الأطفال الّذين نلحق بهم وهم يحملون السّلاح ويختفون بين الأزقّة ليلًا، والذين لا يتجاوز أكبرهم السّادسة عشرة. عصابات السّرقة التي تنتحل أسماء كتائب وهميّة، وتتحوّل إلى شبّيحة. البلاد التي لم تعد بلادًا، وتحوّل كلّ

جزء فيها إلى منطقة تحت سيطرة ألوية عسكريّة متناحرة، تخضع جميعها لسيطرة مطلقة لسماء قاتلة. لكنّنا هنا نتابع الحياة. هم سيبقون تحت السماء القاتلة ووحشيّة المتطرّفين الدّينيّين الجدد. أنا سأوضّب حقيبتي الصّغيرة وأتركهم ميمّمة صوب المنفى. هم وأنا نعرف أنّنا لن نتقاسم الموت سويًا، وهذه الشّراكة بيني وبينهم مؤقّتة، لكنّهم لا يريدون لي الموت. قالت لي امرأة قبل أن أغادر بيوم: «لا تموتي هنا، ظلّي معلّقة بيننا وبين العالم الخارجيّ، كوني حبلنا المعلّق». وأنا التي كنت أنظر إلى النّساء اللّواتي طبخن مختلف أصناف الطّعام ورتّبن مائدة عامرة لتوديعي، كنت أنظر بانبهار. كيف فهمت هذه المرأة التي تجاوزت السّتّين ولا تستطيع فكّ الحرف، ما أنا عليه. أنا ذلك الخيط المعلّق في الفضاء بلا بداية ولا نهاية، ولا مستقرّ لي. ولا شكل لي، ولا هويّة لي سوى لغتي، لكنّني وقبل الرّحيل بأيّام، كنت غارقة بتفاصيل الموت. وأصبت بأرق. الأيّام الأربعة الأخيرة من شهر آب، لم تغمض عيناي، لذلك اكتشفت الحياة ليلًا، والتي كانت تنشط لأنّ السماء تصمت قليلًا.

إنّه ليل يسمع بحركة النّاس الّذين يخرجون من بيوتهم لترتيب نهار موت قادم. اللّيل الّذي رافقت فيه الشّباب وهم يقومون بالإشراف على تنظيف «سراقب» من أكوام القمامة المتراكمة في الشّوارع. اللّيل الغريب السّاحر الّذي نمشي فيه ومجموعة قليلة من شباب تنظّف مدينتها وبقايا ما يرميه البشر الّذين بقوا على قيد الحياة، لتقلّل من احتمال الموت بالأمراض والأوبئة. وبين شارع وشارع، السيّارة تسير بنا، نتنقّل بين القذائف والقنابل العنقوديّة، ونختبئ عند النّاس، وفي بيوت الأصدقاء. نختبئ في بيوت تقيم عزاء لأبنائها. في بيوت ينام شبابها على فراش خفيف، وأعضاؤهم مبتورة، ثمّ نخرج، ونتابع عمليّة

التّنظيف. أضواء السيّارة مطفأة خوفًا من رشّاش فوقنا في طائرة.

الأطفال أيضًا لا ينامون. يقفون أمام أبواب بيوتهم. يراقبون عمليّة إفراغ القمامة بسيّارة مهترئة تمشي بثلاث عجلات لأنّ عجلتها الرّابعة تعرّضت لشظيّة، لكنّها تمشي وتشخر. الرّوائح قاتلة، وما يتمّ تجميعه يُحرق مباشرة.

في اليوم التّالي، أستمرّ في تنقّلي بين بيوت النّساء. هكذا... لا تفاصيل إضافيّة. تكرار يوميّ للمشهد. ساحة مفتوحة على الموت. المصادفة وحدها هي التي تقوم باختيار البشر الّذين سيغادرون لعبة العبث هذه.

في يوم الرّحيل وأنا أتّجه إلى الحدود، تحت وهج الشّمس الحارّة، لم أكن أملك أيّة مشاعر. أراقب فقط، وأتحرّك بغريزة حيوان، وأنهي ما يجب إنهاؤه بحرفيّة تقتضي أمرين: السّرعة والدّقّة. ما عدا ذلك، لا أهميّة لشيء. لا وقت للحزن. لا وقت للبكاء. لا وقت للتّفكير والتّأمّل. البقاء هنا يعطّل العقل والقدرة على التّفكير. سيكون أقصى ما يمكن الحلم به، الاستيقاظ صباحًا ونحن لسنا جثثًا تحت أنقاض، أو ننجو من تقطيع رؤوسنا على أيدي «داعش»! لذلك، كانت الطّريق إلى الحدود بمثابة نزهة، رغم حشرنا في السيّارة ورغم الحرّ، ورغم اضطرارنا للتّوقّف مرّات عدّة للاحتماء من القصف.

كنت هادئة، ولم أعد أفكّر في ما إذا كنت سأعيش أو أموت، أراقب بساتين الزّيتون، والنّاس على الطّرقات. فهمت كيف تنشأ الصّداقة اللّدودة عبر الموت، عبر تغييب العقل. هنا حفرة العدم، وهنا يمكن أن نفهم أن موتًا جماعيًّا كهذا وعنفًا تتنفّسه الأرض، وحده فقط قادر على إحداث قطيعة حاسمة مع التّاريخ الّذي سبقه. أنا الآن في

أتون الانقلاب صوب تلك القطيعة، أعرف ذلك وألمسه وأتنفّسه.

كان يجب أن نلتقي بأحد المقاتلين لأدوّن شهادته، وكان هذا فقط ما أفكّر فيه. حتّى أنّني لم أنظر كالعادة في عيون الشّبّان الجميلين المبتوري الأطراف، كما أفعل دائمًا. كنت مسربلة بتكثيف الألم وإقصائه. ما عليّ فعله. هو فصله عن دمي. مثل زنّار نار أتجنّبه. لن أنظر إلى الجموع وسأنتظر قرب السيّارة مجيء المقاتل الّذي لم يتأخّر. وهي الشّهادة الأخيرة التي سأدوّنها. كان بحوزتي أكثر من خمسين حوارًا مع المقاتلين، لكنّ هذا المقاتل، كان له وجه آخر!

لقبه «الحجي» من مخيّم الرّمل الفلسطينيّ، في مدينتي اللّاذقية. وصل في تعلّمه إلى الصّفّ الابتدائيّ السّادس. والده عمل سائق تاكسي، وهو كان عاملًا في الميناء، حليق الذّقن والشّاربين. ولد في مخيّم الرّمل الفلسطينيّ في اللّاذقية سنة ١٩٧٨، هو قائد كتيبة «أحرار اللّاذقية». يعيش متنقّلًا بين الحدود السّوريّة ـ التّركيّة وبين جبال السّاحل السّوريّ شمال اللّاذقية.

أعرّفه بنفسي ومن أكون، فيرحّب بحرارة: التقيته على الحدود السّوريّة ـ التّركيّة، كان صديقًا لميسرة، وبدا متحمّسًا لرواية حكايته. يرى أنّنا الآن في مرحلة حرب طائفيّة ستستمرّ لعشرين سنة قادمة، لن تخسر خلالها عائلة الأسد. الخاسرون هم العلويّون، لأنّ ما فعلته عصابة الأسد من جرائم، سيتمّ فعله بالعلويّين كما يقول. لم أستطع تغيير رأيه. كان يتحدّث بثقة، وتصميم، وبحقد أيضًا وبأسًى، روى لي حكايته: «كنت أعمل في المرفإ مياومًا. جميل الأسد وآل الأسد استولوا على المرفإ وحوّلونا إلى عبيد. أنا لم أكمل دراستي، وكان يجب أن أعمل منذ صغري. أكره النّظام وطائفته، لقد ذلّونا في العمل وذلّونا بلقمة العيش. ابن منذر الأسد، ابن جميل الأسد، اللّاذقية

مملكتهم ونحن العبيد، سورية كلّها يظنّونها مزرعتهم ونحن العبيد، لكن في اللاّذقية كانت الأمور أشدّ قسوة وظلمًا. لقد كنت أسمع الشّتيمة بأذنيّ من شبّيحة آل الأسد وعملائهم: سنّيّ خنزير. أنت بنت اللّاذقية وتعرفين. ممكن ابنة ضابط مسؤول، تمرّغ أنف أكبر رجل. بين سنة ٢٠٠٣ و٢٠٠٥، اكتشفنا أنهم يجهّزون لعشر حسينيّات في اللّاذقية وشعرنا بأنّ ديننا في خطر لأنّ تكتّلات شيعيّة بدأت تظهر، خاصّة بعد موت حافظ الأسد واستلام ابنه. الموضوع بالنّسبة لي هو موضوع عقيدة، فكّرنا من حينها واجتمعنا وأقرّينا بأنّ ذلك غير مقبول، حتى إنّي فكّرت أن أقوم بالتفجيرات بعد أن شاهدت يافطة مكتوب عليها: معهد لتعليم اللغة الفارسيّة في حي الزّراعة. وبدأوا يبنون الجوامع في القرى العلويّة. كان الإيرانيّون يبنونها. صمتنا سنوات على ذلك. رغم أن هويّتنا الدّينيّة تُمسّ ويتمّ الاستخفاف بها. نحن نعرف أنّ النظام السّوريّ من أيّام حافظ الأسد كان يرسل المتطرّفين والجهاديّين إلى العراق، وشيوخنا السّنّة كانوا على علاقة جيدة مع النّظام وهم جزء منه، ونحن لم نكن نريد أن نكون متطرّفين ولا أن نكون جزءًا من النّظام، فاجتمعنا كشباب لوحدنا. عندما بدأت ثورة تونس ومصر وليبيا، كنّا نتباحث في ما سنفعله، في هذه الأثناء اشتعلت درعا وحصلت مجزرة، وفي يوم الجمعة في حيّ الرّمل الفلسطينيّ في جامع المهاجرين قرّرنا أن نصلّي صلاة الغائب. وهنا خرجت مظاهرة عفويّة وحماسيّة بعد الصّلاة إلى ساحة التّكاسي ووصلنا إلى باب المفرزة الأمنية. ضربونا فأحرقنا المفرزة الأمنية وضربنا الأمن. واستمرّت المظاهرة حتى وصلت إلى جامع خالد بن الوليد، ثمّ إلى حيّ الصّليبة وكل هذا حدث بدون تنظيم وبطريقة عفويّة. في ذلك اليوم عدنا وكأنّنا نملك العالم، لقد استطعنا القول

للمرّة الأولى: الله سورية حرية وبس. في الجمعة التّالية، خرجت مظاهرات من عدّة جوامع وكان هناك عشرون ألف متظاهر، وأطلق الجيش النّار علينا، وقتل حوالى خمسة عشر شخصًا وعدد الجرحى كان كبيرًا. في الرّمل الفلسطينيّ كان هناك سلاح قبل الثورة، وهناك تجارة مخدّرات وفقر شديد وبطالة. استمرينا بالمظاهرات والعمل بشكل سرّيّ. حملنا السّلاح بشكل مخفيّ من الأسبوع الثّالث للمظاهرات السّلميّة، ولكنّه كان مخفيًّا وللدّفاع عن النّفس ولم نستخدمه. بعد مجزرة بن العلبي أظهرنا سلاحنا. في ذلك اليوم. اتّفقنا على الخروج بمظاهرات سلمّيّة، من عدّة جوامع، للاعتصام في ساحة بن العلبي في حي الصّليبة، اجتمعنا في السّاحة وكان هناك نساء وأطفال حملوا القرآن وقالوا: اعتصام حتّى يسقط النّظام. بعد صلاة العشاء وحوالى السّاعة الحادية عشرة والنّصف عرفت أنّ الجيش طوّق الاعتصام، فذهبت فورًا هناك. كان النّاس يهتفون بالاعتصام: الجيش والشعب يد واحدة، وينادون سلميّة سلميّة سلميّة. أمرهم الجيش بفضّ الاعتصام ورفضوا، فأطلق عليهم النّار بكثافة. قتل يومها مئتا شخص، أنا كنت شاهدًا على ذلك. من بين القتلى نساء وأطفال، وتكوّمت الجثث فوق بعضها. من وقف على شرفات الأبنية وشاهد ما حصل قتلوه أيضًا. الجيش فعل ذلك، وهذا ما رأيته بعينيّ كانت هناك بنت عمرها ستّ عشرة سنة، أمسكت العقيد بصدره، فطلب من العسكريّ قتلها. عندما رفض العسكريّ قتلها، قتله ثمّ قتل الفتاة. في تمام الثّانية عشرة إلّا ربع ليلًا تأتي سيّارات وتحمل الجثث، وخلال دقائق، تنظف سيّارات الإطفاء المكان، ولا يبقى أثر. كان هذا في اليوم السّابع عشر من نيسان سنة ٢٠١١. يومها قرّرنا أنّ السّلاح هو الحلّ الوحيد. وبدأنا فعلًا نأتي بالسّلاح، وكان عبارة عن بنادق كلاشنيكوف، وبمبكشن،

وصرنا نخرج مظاهرات ونحميها، ولم نسمح لقوات الجيش والمخابرات بدخول المخيم. صمدنا ستّة أشهر على هذه الحال. كنّا ضعفاء وكان هناك الكثير من المخبرين بيننا. لم نعد نملك السّلاح الكافي، وهم يطلقون علينا الرّصاص بشكل متواصل، كنت أتنقّل على درّاجة ناريّة، أنام في اليوم نصف ساعة. أُنهكت تمامًا. ولم أكن أنام في مكان واحد أو أعود إلى المكان الّذي أخرج منه، لأنّ ثلاث محاولات اغتيال نجوت منها علّمتني الحذر».

«الحجّي» لا يتوقّف عن الكلام. غاضب. حادّ ومختلف عن باقي المقاتلين الّذين دوّنت شهاداتهم، يحب الحياة! يريد أن يعيش! هو استثناء بين المقاتلين. أسرّ لي بأنّه لا يريد الزّواج كي يبقى حرًّا، وابتسم، لكنه لا يزال غاضبًا وهو يتابع حديثه: «في المخيّم كان النّاس يساعدون بعضهم بالإغاثة، وهناك نسبة كبيرة تتعاطى المخدّرات. منعنا المخدّرات، وانتشرت السّرقات، فوزّعنا حرّاسًا بين البيوت ليقوموا بمهمّة الأمن بين النّاس، وطلبت أن تفتح النّاس بيوتها لبعضها واستمرّينا نتظاهر ونمنع الجيش من الدّخول. كنّا وزعنا دوريات لحراسة مداخل ومخارج المخيّم، ونتناوب بشكل مستمرّ على ذلك، حتّى من جهة البحر. كانت مظاهراتنا كلّ جمعة تخرج من الجوامع. أكثر من عشرة آلاف شخص كنّا نخرج للتّظاهر. وأقمنا دولتنا المستقلّة في حي الرّمل الفلسطينيّ واستطعنا تنظيم حياتنا لمدّة ستة أشهر، وأسّسنا أوّل مجلس عسكريّ. كان هذا في الشّهر الرّابع من الثورة، وأنا كنت القائد الميدانيّ، ولديّ خبرة في السّلاح لأنّي كنت أستخدمه من سنوات، ومولع به. حاولنا تأخير هجوم الجيش، وحاولنا إيصال رسالة أنّنا لا نريد حرب. وفي حيّ السّكنتوري كانت الأمور سيّئة، وكلّهم مثلنا أولاد لم يتعلّموا وهم عمّال أو سائقو تاكسي وغالبيتهم

عاطلون عن العمل. صارت بيننا معركة. معنا ديناميت فقط ومعهم الزّوارق الحربيّة والدّوشكا. اقتحمونا من جهة السّكنتوري، حينها كنّا نوزّع السّلاح مجّانًا، كان الشّباب يريدون الهجوم أيضًا لكنّي منعتهم لأنّ إمكانيّاتنا ضعيفة، وقلت أنتظر ريثما يتمّ إرسال الإمداد إلينا. كنت أنتظر الجيش الحرّ صراحة. أنتظر أن تساعدنا بقيّة المناطق، لكن أيًّا من هذا لم يحدث. شعرت بأنّه تمّت خديعتنا وأنّنا بقينا وحدنا، كان يوجد معنا ثلاثة آلاف وخمسمئة طلقة وعشر بنادق، وبمبكشن، وقرّرنا أنّنا سنقاوم حتّى نموت ولن نستسلم».

يتنهّد «الحجّي»، يدخّن باستمرار ويحاول سبر ردود فعلي على ما يقوله، أنا أكتب متجاهلة نظراته:

«كانت خطّتنا أن نواجه الاقتحام. خطّة دفاعيّة فقط، وحلّنا الوحيد في هذا هو ألّا نسمح بدخول الجيش لأطول مدّة ممكنة، فنحن مجرّد حيّ في مدينة وبلد يسيطر عليه الجيش. وزّعنا المقاتلين بحيث يتبعون الحارات التي يعيشون فيها. عندما دخلت أول دبّابة المخيّم أطلقوا عليها النّار، كان هذا خطأنا. فقدنا السّيطرة على الشّباب، ولم يتقيّدوا بالأوامر وصاروا يطلقون النّار على الجنود والدّبّابات، واستطعنا المقاومة من الفجر وحتّى اليوم الثّاني ظهرًا. قصفتنا بواخرهم من البحر ودبّاباتهم من البرّ، فاقتحموا المخيّم ووصلوا ساحة التّكاسي. طبيعة الأزقّة في المخيّم ساعدتنا. قتلنا منهم خمسة وأربعين رجلًا وقتلوا منّا ثلاثة عشر ودخلوا بناقلات الجنود ونشروا القنّاصة على السّطوح وبين الأبنية. جمعنا النّساء والأطفال في شارع عين التمرة لنخرجهم من المخيّم. كانت أمّي وأختي معهم. قمنا بالهجوم على حاجز الجيش لنستطيع العبور بهم، بقينا أربعة أيام بلا نوم ولا طعام. نقاوم ونقاتل. وعندما وصل الجيش إلى السّكنتوري، هرب

الكثيرون، وأنا لم أعرف ما الّذي سأفعله. بقينا في الأبنية المهجورة وغير المكتملة البناء، نتنقل، واختبأت في أحد البيوت. أثناء ذلك اعتقلوا خمسة وأربعين شابًا في حيّ الرّمل ونحن نجونا. هربنا عبر الحدود التّركيّة إلى مخيّم يلدا. كان معي ستمئة شاب وأنا مسؤول عنهم ولا أعرف ماذا سأفعل. ولا أملك أيّ مال أقدّمه لهم. كنت ضائعًا، فذهبت إلى أنطاكية، وهناك كانت الصّدمة الثّانية حيث فوجئت بأنّ هناك من ادعى العمل الميدانيّ العسكريّ عوضًا عنّي. لقد حصلت الكثير من الادّعاءات والخيانات والكذب في الثورة. التقيت بالعديد من الضّبّاط وقدّمت لهم خططًا للمعركة، وحصلت على دفعات من الأموال من أجل السّلاح، وحرصت على عدم البدء بمعركتي قبل ضمان أن يبقى إمداد السّلاح متاحًا، وعدونا أن يأتوا بالسّلاح عبر البحر وأنا رفضت. أعرف أنّ هذا مستحيل، لقد خذلنا العالم كلّه، واليأس أصاب المقاتلين وقادة المعارك. كنّا لا نجد ما نأكله ولا ننام. طلبت المساعدة من الجميع ولم أحصل عليها ومسؤوليّتي صارت تزداد، حينها جمعت المقاتلين الّذين خرجوا معي، وقلت لهم: من يريد الالتحاق بأي جهة للقتال فهو حرّ لأنّي لا أملك السّلاح، ثمّ عدتُ للقتال في جبل الأكراد منذ بداية سنة ٢٠١٢، وبقيت هناك حتّى معركة دورين، في تمّوز. كنّا في قلب الجبل وكلّ يوم لدينا خطّة لمعركة جديدة للهجوم على حاجز أو مفرزة أمن وكنّا نستولي على السّيارات نقتل أحيانًا من فيها، ونسرقها، لأنّنا لم نكن نملك المال».

يتوقّف عن الكلام. أعرف أنّه ينظر إلي ليعاين ردّ فعلي. لا أرفع رأسي. قلمي في يدي، وأقول: «وماذا حصل بعد ذلك؟». لا يجيب. تمرّ دقائق من الصّمت. فأرفع رأسي وأحدّق فيه بثبات. كان ينظر إليّ دون أن يرفّ له جفن. قلت وأنا أحدّق فيه بثبات: «تابع»، فتابع

حديثه محدّقًا بي بالنّظرة الثّاقبة نفسها: «قبل أن يبدأ الطّيران بقصفنا كانت المعارك سهلة وكنّا نتقدّم. بعد أن بدأ الطّيران يقصفنا اختلفت الأمور. حصل ذلك منذ معركة الحفة، وبعد معركة دورين لم يبقَ عندي ذخيرة، وتُركنا وحدنا تحت القصف، تركت الشّباب في الجبال وذهبت إلى تركيا. قمت بتأمين مال وسلاح وعدت للقتال، ونقلت السّلاح من جبل الأكراد إلى جبل التّركمان، وهناك كانت أوّل معركة في جبل الـ ٤٥ والثّانية في نبع المرّ عند معبر كسب، ودخلنا بيت عثمان وهي قرية علويّة، لم يكن فيها أحد. تركوا بيوتهم، وكان قد بقي بضعة شباب فقتلناهم، أخذنا الدّواجن لنأكلها، وسرق الشّباب ما استطاعوا من طعام من أجل الكتيبة. حرقوا بعض البيوت وتركوا الباقي. بعد فترة بيع جبل الـ ٤٥ من قبل إحدى الكتائب، نحن فوجئنا بعودة الجيش إلى جبل الـ ٤٥. الخيانات لم تتوقّف بيننا. كانت الجبهات تُباع بعد أن يتمّ تحريرها. هناك من تاجر بالمعارك وبجبهات القتال، وبدمنا. أُحبطنا بسبب فقدان الثّقة ولم نعد نعرف من هو الخائن ومن هو الرّجل الّذي نثق به، وصار دعم معركة السّاحل بالسّلاح بيد مجموعة أشخاص تتحكم بمصير القتال. أثناء ذلك حدثت معركة الزّعينية وسيطرنا على الفوج ١٣٥ لمدّة ساعتين وقتلنا منهم كثيرين».

أقول له: «تتحدّث عن القتل ببساطة وسعادة. أنت قاتل؟». ينظر إليّ بغضب: «نعم، أنا قاتل. أنا أدافع عن حقّ. لكنّي لن أقتلك». قلت له: «ربّما لأنّنا على الحدود التّركيّة. تخاف على نفسك. لو كنّا داخل سورية لقتلتني!». قال: «لن أقتلك. أشفق عليك من العذابات القادمة، قتلك راحة لك! أنت في حالة لا تُحسدين عليها، ومنفصلة عن الواقع. ما يحصل الآن هو حرب دينيّة فقط!».

حدّقت في عينيه من جديد، أردت رؤيته وهو يتحدّث عنّي!
أضاف: «نعم، أنا أشفق عليك وأتمنّى أن تكوني بعيدة عن هذه الحرب القذرة. أعرف ضابطًا علويًا انشقّ، وانتحر. بعد انشقاقه وجدناه منتحرًا بكتيبة للجيش الحرّ». «انتحر أم قُتل؟»، أسأله. «انتحر بالتّأكيد. هذا كان في البداية. سأحكي لك حكاية حصلت معي في جبل الأربعين باعتبار أنّك تحبين الحكايات... أخذت معي خمسة عشر رجلًا، ووصلنا غابات الفرنلق، كانت هناك تحرّكات لجيش النّظام. سمعنا بها، وكان أمامنا جرف جبل. دخلنا في مساحة كبيرة وصرنا في قلب الجبل. وبين ثلاثة جبال، انهال علينا القصف من كلّ الجهات، فاختبأنا وراء الصّخور. كان القصف مثل المطر. طلبت من الشّباب اللّحاق بي. الطّريق ترابي، وخلفه مباشرة طريق معبّد، والمكان مكشوف، وإطلاق النّار علينا متواصل، صرخنا بالجنود: يا جنود يا عسكر انشقوا نحنا إخوانكم. فكانوا يجيبون علينا بالمسبّات، ثمّ يبدأ السّباب من الطّرفين، وصرخت بهم أن يسلّموا أنفسهم لأنّنا حاصرناهم، فردوا بالسّباب وأطلقنا النّار عليهم. هل تصدّقين، كنت منزعجًا جدًا، لأنّنا كنّا سوريّين نقتل سوريّين. ولكن ماذا نفعل؟! انسحبنا ورجعنا لموقعنا فالتفّوا علينا وقصفونا بالدّوشكا ومدافع الهاون. هربنا ونجونا، كنّا سنموت. هذه المعركة أثّرت بي، لأنّنا كنّا نسمع أصوات بعضنا بعضًا ونتحدّث. في معركة الزعينية كان قتلى النّظام يظلّون في العراء. كانوا يأتون بعد حين ويلمّون الجثث بشاحنات وأحيانًا يبقون في أمكنتهم فتنهش الكلاب الجثث. لقد قتلناهم جميعًا في معركة الزعينية ولم نترك أحدًا، وكانت الجثث أمامنا على مدّ النظر. وبعد الزعينية كان مقرّ كتيبتي في جبل التّركمان وتابعة للّواء العاشر التّابع للأركان. بقيت في الخنادق في إحدى القرى

العلويّة التي هرب أهلها وسيطرنا عليها لمدّة ثلاثة أسابيع. تقدّمنا في منطقة النّظام أربعة عشر كيلومترًا، والتحقت بي ثلاث كتائب. بعد ثلاثة شهور طلبت مؤازرة من الأركان. كنت على مرمى النّظام. بشكل متواصل قصف وقنص. كان وضعنا يشبه الانتحار ورفض أحد التّقدّم معنا، وبقيت الكتائب في قرية كنديسة، عندما شعرت بأنه سيتم بيعي أنا وعناصري وسأترك للموت، أخبرت المجلس العسكريّ بأنّي سأنسحب من المحور وانسحبت. بعد ذلك تراكمت الدّيون عليّ، وبعت مدفع الهاون والروسي حتّى أفي بالديون. عدت إلى مقرّ قيادة الأركان ووضعت نفسي تحت تصرفها، والآن اسم كتيبتي هو كتيبة أحرار اللاّذقية، أذهب معهم إلى المعارك المطلوبة منّي فقط. نحن الآن في محور مشقيتا التي تبعد عن المدينة خمسة عشر كيلومترًا».

«لكن، حسبما تقول معركة السّاحل ليست حقيقيّة؟». يجيب: «نعم، ليست حقيقيّة. أظنّ ذلك. برأيي دول الخارج تريد أن يتقاتل السّوريّون في ما بينهم لذلك يجعلوننا نكرّ على بعضنا ونفرّ... هذه تعلّمتها من أستاذ كان يقاتل معنا. لذلك، أنا الآن حزين أكثر من أيّ وقت مضى، لأنّ الكثير من الدّماء السّوريّة ستسفك مجّانًا. هناك أمر غريب أيضًا، وهو أن داعش في خط جبهة السّاحل، ولكنّها ليست في الخطوط الأماميّة. يوجد أكثر من خمسمئة وخمسين شخصًا منهم، وهم يتفرّجون الآن فقط. لا أعرف ما الّذي سيفعلونه في المستقبل! أحرار الشّام أيضًا لهم وجود، ونحن أبناء اللاّذقية الّذين نريد دولة سوريّة وطنيّة، يتمّ إبعادنا! والغريب أكثر أن داعش هي من تقوم الآن بتصفية عناصر الجيش الحرّ. يقومون بهذا عوضًا عن النّظام. منذ فترة حاؤوا بصواريخ غراد وأرادوا ضرب قرية علويّة مأهولة بالسّكّان وأنا رفضت ذلك، لكنّهم سيفعلون ذلك يومًا ويقصفون حتى اللاّذقية. قلت

لهم اذهبوا إلى مكان غير هذا. كانوا من التّونسيّين واللّيبيّين والسّعوديّين، تطوّرت المشكلة بيني وبينهم ووصلت إلى الضّرب بالأيدي». «ماذا ستفعل حجّي بعد سقوط النّظام؟»، أقول. يضحك ويحمرّ وجهه، وينظر إليّ بخبث: «لن يسقط الآن. طريقنا طويلة. نحتاج لعشرين سنة لتتوقّف الحرب، ولا أعرف ما الّذي سأفعله بعد ذلك. لكنّي أجزم أنّي لن أبقى على قيد الحياة حتّى ذلك الوقت، هذا مؤسف، فأنا أحبّ الحياة. لكنّي على خطّ الجبهة بشكل دائم. أنا في حكم الميت، لو كان هناك قائد يتقدّمنا ويرأسنا لكانت الأمور أفضل بكثير».

اللقاء مع «الحجّي» آخر المقاتلين الّذين دوّنت شهاداتهم أجهز على ما بقي في رأسي من تركيز، لكنّني ولمصادفة ما لا ينفصل عن عبثيّة ما يحصل، كنت أمشي مسربلة باللّاشيء، وواجب أن أمشي فقط لعبر البوّابة الأخيرة.

كلّ المتضادّات المتجاورة في عقلي ومن حولي لم تفلح في نزعي من بهيميّة حركتي، وأنا أنقاد وراء مجموعات العابرين. هكذا، يمكن القول أنّ العدم الّذي ينفي صفة الوجود، يعني الحياة أيضًا. أن أصف العدم، ألا يعني أن يكون هناك مقابل له؟ العدم كتلة الجزئيّات التي تتوالد من موت بعضها، وتتسرّب أمامي الآن على هيئة بشر تائهين. إنهم لا يفنون ولا يعيشون أيضًا، هم ظلال لأجسادهم فقط! تدفّق الحياة وتسارع الموت، يعني اقتراب الحياة والموت، يتلاقيان ويصعب التّمييز بينهما. هل هم أحياء أم أكفان تتحرّك؟ الجمع الخارج من الموت، الهارب من القصف إلى شقاء اللّجوء والفقر والتّيه والشّتات. الفوج الآخر المضادّ القادم إلى الموت، والمقاتلون الّذين يتدفّقون لنيل الموت كجسر نحو الأبديّة في جنّتهم المفترضة. آليّات وعربات الأسلحة والسماسرة. سماسرة البشر وسماسرة السّلاح. في نقطة ما يتلاقون، أراقبهم، وأتابع ذهولي.

هنا وعلى المعبر الحدودي الأخير ومع أفواج هائلة من البشر

المتزاحمين للخروج. هاربون وخائفون. مقاتلون جرحى، وممثلو منظّمات إنسانيّة. مراسلو إذاعات، صحافيون أجانب. المبتورو الأطراف يتقافزون بين جموع النّساء والأطفال. الجمع البشريّ يفقد حسّ الفضول، كأنّ مخرجًا سينمائيًا يقود حركتهم. عيونهم إلى الأمام، قلقة. لكنّها زائغة، تزيد حرارة الشّمس من تيهها. هنا يتكرّر المشهد رغم اختلاف بوّابات العبور والخروج. الجموع البشريّة تنزاح باتّجاه صورة متخيّلة ليوم القيامة.

مخيّم «أطمة» على ما هو عليه. ازداد عدد الأطفال الحفاة، والخيم المتناثرة وحواجز المسلّحين وغالبيّتهم من «الجهاديّين»، إضافة إلى معسكر كبير لـ «داعش» الّذي لا يبعد كثيرًا عن مخيّم «أطمة»، وهو بناء ضخم مكوّن من أقسام عدّة، بين أشجار الزّيتون، يمتدّ على مساحة عريضة، مؤلّف من طبقة واحدة، ومحاط بحراسة شديدة. ممنوع الاقتراب منه، ولا أحد من الكتائب الأخرى يعرف ما يوجد داخله. هناك سيّارات دفع رباعيّ حوله، وشاحنات تدخل وتخرج إليه، وكلّها مغطّاة بقماش من الكتّان الكاكي السّميك. أما عناصر «داعش»، فكانوا حول مخيّم «أطمة» يتوزّعون، ويعترضون الطّريق الواصل بين المخيّم مع الدّاخل السّوريّ بحواجز عدّة. وحتّى ذلك الوقت، في نهاية شهر آب من سنة ٢٠١٣، كان «داعش» يحافظ على علاقة وديّة مع الكتائب الجهاديّة الأخرى مثل «جبهة النّصرة» و«أحرار الشّام». لاحقًا سيتبدّل الوضع، وسيدخل «داعش» في حرب معها، ويتّضح أنّ مشروعه لا يقف عند حدود حيث سيظهر كتنظيم يؤسّس لدولة قادمة.

الحاجز ما قبل الأخير الّذي أوقفنا كان لـ «داعش» أيضًا. أربعة شبّان يحملون أسلحتهم ويؤرجحونها في الهواء، يقفون وأرجلهم نصف مفتوحة متأهّبين، اثنان منهم ملثّمان تمامًا، والآخران يظهران نصف

وجهيهما، ليسوا سوريّين. كنت هادئة على غير عادتي عندما رأيتهم. ليس الهدوء تمامًا، لكنّني أحدّق في نقطة ثابتة أمامي على الطّريق، ولا ألتفت إلى ما يحيط بي، وغير مكترثة بما يريدون، وبما قالوه للشّباب. انتبهت فقط إلى أنّهم بدوا أكثر عنجهيّة وثقة، صياحهم كان عاليًا. يتحرّكون كأسياد المكان. حتّى لحاهم ليست طويلة كالعادة. لهجاتهم غريبة ولم أفهم شيئًا ممّا قالوه، أشاروا بأيديهم سامحين لنا بالعبور.

عند المخيّم وعلى الباب الرئيسيّ، حاجز لمقاتلين من «أنصار الإسلام». هناك توزيع أدوار بين الكتائب المسلّحة في حراسة المخيّم كما قال الشّباب، وعلى الجانبين في الخطّ الحدوديّ الفاصل سيّارات شحن معبّأة بصناديق خشبيّة. إحدى هذه الشّاحنات، يُفرّغ جزء من حمولتها بحذر. كانت الحمولة أسلحة، هذا كان يتمّ في وضح النّهار وعلى الحدود، وبين الرّجال العجائز والنّساء والأطفال والتّجار والمهرّبين ومبعوثي المنظّمات، والصحّافيين.

على طرف بستان زيتون كان شباب من جنسيّات مختلفة، يجلسون تحت الشّمس. هم مقاتلون ينتظرون دورهم للدّخول والالتحاق بالقتال. لم يكونوا سوريّين أيضًا.

رافقني الشّباب حتّى آخر نقطة على الحدود. وهي النّقطة التي دخلنا منها، حيث كنت جزءًا من الرّكب البشريّ المرسوم كلوحة من لوحات «غويا». يلزمني أكثر من ساعة للانتهاء من نقطة العبور. فتاة جميلة إلى جانبي تندفع مع السّائرين في الرّكب، في الرّابعة عشرة، ربما أصغر سنة أو أكبر. إلى جانبها أمّها. أخبرتني أنّها تترك مخيّم «أطمة» وستتزوّج. أمّها تعبر بها إلى الطّرف الثّاني، قتل والدها في القصف، لديها خمس أخوات، وهي أكبرهنّ. سألتها عن زوجها

المستقبليّ، وماذا يعمل. قالت، أنّه يعيش في تركيا، لكنّه أردنيّ الجنسيّة، وأنها ستعيش في أنطاكيّة، لأنّه يعمل بالتّجارة بين عمّان وتركيا. لم أحاول الاستفسار عن عمر الرّجل، حتّى لا أحرجها، لكنّ الفتاة التي تدعى فاطمة، وفتيات كثيرات هنا يحملن هذا الاسم، سألتني ما الّذي أفعله هنا. أجبتها، أنّني من جبل الزّاوية. صمتت ولم تعرني اهتمامًا بعد ذلك. لكنّني رأيتها لاحقًا، وأنا أعبر إلى الجهة الأخرى من الحدود، وسيّارة أجرة تنتظرها. رجل يتجاوز السّتّين، ربّما أكبر. على جبهته الزبيبة الخاصّة بالمسلمين الّذين يصلّون، ويرتدي عباءة بيضاء. هذا رأيته بعينيّ، ولم أسمعه. كنت قريبة منهم، وسألتها: «زوجك؟»، فانكمش الزّوج، وأجابت بخفوت ونظرت في عيني خطفًا، قبل أن تدير ظهرها لي: «امممم».

الرّجل الّذي يقوم بتدوين الأسماء ويضع اسمًا مستعارًا لي، كان ينظر في وجهي قبل العبور، ويمرّ عليه كباقي الوجوه. قطرات العرق تتصبّب منه. لا زلت أرتدي ثيابي السّود مغطّاة من رأسي إلى أسفل قدميّ. ورائي صفّ طويل من النّساء والرّجال والأطفال الّذين ينتظرون أدوارهم تحت قيظ الشّمس، ولا يحملون أوراقًا تثبت شخصيّاتهم. كانت امرأة تقف وراء الزّوجة الصّغيرة تحمل رضيعها وتحاول تهدئته بغناء خافت. ألتفت إليها، الرّضيع ملفوف الذّراعين بشاش طبّيّ أبيض، من كتفيه وحتّى نهاية أصابعه. غضضت بصري وأكملت التّحديق في اسمي الجديد الّذي أغادر به. في ذلك الوقت تذكّرت الاسم الّذي سافرت به متنكّرة للمرّة الأولى التي هربت فيها من بيت عائلتي، وضحكت. لقد حملت أسماء عدّة في حياتي القصيرة هذه، وأنا أنتقل من غربة أزرع فيها جذورًا، لأعود وأقتلع نفسي.

نظر الرّجل الّذي يدوّن الأسماء وقال مغتاظًا من ضحكاتي:

«ضحكينا معك». أنا نفسي لم أعرف سبب ضحكي، فهذه العادة تعلّمتها من المقاتلين الشّباب، وصرت عندما أوشك على الاختناق، أضحك! ضحكت أكثر بصوت عالٍ، وقلت له: «لن تضحك... المشكلة إذا أخبرتك لن تضحك!»، ثمّ انسحبت من الدّور، أنظر إلى الجهة المقابلة، حيث سأصير بعد قليل في تركيا.

لا يزال الشّباب يراقبون حركتي ضمن صفّ البشر الّذين بدأوا يتفرّقون، ومن ثمّ وأنا أغادر، أحاول عدم إطالة لحظات الوداع، يكفي تلويح باليد. هم على الجهة الأخرى يتفادون الجموع. يلوّحون. معي ميسرة الّذي لم ينبس بحرف، وهو يراقب دموعي التي تدفّقت بغزارة، وتساقطت مثل أفلام الرّسوم المتحركة. ربّما لن أراهم بعد هذه اللّحظات، ألوّح ثانية. أقول لميسرة: «أنا شخصيّة كرتونيّة مع خيوط الدّمع هذه». يصمت ويشير إليّ لأتبعه. أدير رأسي أخيرًا، ما يجب فعله الآن هو إظهار أكبر قدر من التّماسك أمام الشّباب على الجهة الأخرى داخل الحدود. كانوا يراقبونني أختفي عن أنظارهم.

فكرة واحدة سيطرت عليّ بعد أن رأيت الزّوجة الطّفلة تغادر مع أمّها وزوجها الشّيشاني، هي رؤية ساحرتي الصّغيرة آلاء، بطلتي التي ستنفى في أنطاكية مع إخوتها وأبيها، أرتب الحكايات التي سأرويها لآلاء عند وصولي إلى بيتها، وكيف سأصف لها بيتها في «سراقب»، وما فعلناه في غيابها أنا ونورا زوجة عمّها والجدتان. أحضّر نفسي، لألعب معها في الحكايات. حكاية كلّ شخصيّة في هذا الكتاب، كيف سأقصّ على الصّغيرة التي نجت، حكايات جيرانها وأقربائها هؤلاء، فقد كانوا جميعهم من عائلة واحدة في «سراقب». أحاول ترتيب تفاصيلهم، ريثما أصل إلى بيتهم. أنا مجرّد قطعة لحم صغيرة قابلة للتفتت. ويجب عليّ الوصول إلى نهاية مع شخصيّة آلاء التي ستكبر

يومًا وتروي حكاية هروبها ولجوئها. وربما لن تروي شيئًا، أو ستنسى وتحاول ألّا تعرف أيّ شيء عن طفولتها.

سارت بنا السيّارة بمحاذاة الحدود. كانت سورية إلى يساري. أنا العدوّ، في دمي ثارات كلّ القتلة والمقتولين، أتنفّسهم واحدًا واحدًا. أنا الذّات المتشظيّة المنشطرة التي تقتلع جذورها، وتتقن النّموّ في تربة جديدة، ثمّ تقتلع جذورها ثانية. أنا الباحثة عن هويّة والهاربة من هويّة. من تعيش بين صالات المطارات وأرصفة القطارات. مطرودة من هذا المكان. فكرة البقاء المستحيلة توقظني من حلم العودة. أعترف لنفسي بأنّي أغادر إلى المنفى وأترك ورائي أرضًا يكتنفها الخراب وتلعب بها الخفايا، كتائب مسلّحة جهاديّة تكفيريّة تغزوها. الأرض التي حرّرها السّوريّون بدمائهم، من قرى وبلدات الشّمال، احتلّت من جديد، لم تعد أرضًا محرّرة، ولا أرضًا سورية. سرقت أحلام ثورتها. تلعب الدّول الكبرى الآن في ساحتها عبر تحريك الكتائب العسكريّة، وعبر تمويل جبهات وهميّة. الحدود مفتوحة من تركيا بشكل علنيّ لكلّ أنواع المقاتلين. وعبر سلاح يأتي من أطراف عدّة. مموّلو «داعش» من هم؟ مموّلو «جبهة النّصرة» من هم؟ من يغتال قادة الجيش الحرّ؟ من يقتل الصّحافيّين والنّاشطين السّلميّين؟ كيف تتمّ سرقة ثورة وتحويلها إلى حرب دينيّة؟ أسئلة معلّقة في الفراغ. بالنّسبة لي، سأصل إلى باريس خلال يومين، وينتهي هذا المشهد أمام ناظريّ، ستغيب السّيّارة في التّضاريس التّركية، ونذهب أنا وميسرة إلى البيت، وبانتظاري ستكون آلاء وجعبة الحكايا التي لن تتوقّف حتّى مغادرتي مطار أنطاكية إلى إسطنبول. سأروي لها أخبار الجيران، والشّباب، وسأكذب كثيرًا. لن أخبرها عن أجساد أصدقائها الأطفال الّذين ماتوا. سأودّعها بأناقة، وأعدها بأنّي سأعود بعد بضعة أشهر.

لقد دخلت طبقة جحيم أنهيت بها شهادتي الأولى في كتابي «تقاطع نيران» عن بداية الثورة وشهورها الأربعة الأولى. والآن وفي شهادتي الثّانية هذه أخرج من طبقة، لأدخل الطّبقة الأعمق من هاوية الجحيم. اختبرت هذا الشّعور: المنفى من جديد، ولا شيء أضيفه. المنفى غير المتحقّق كمنفى، والّذي لم نجد له شكلًا جديدًا في زحمة تسارع الأحداث. والّذي يحتاج إلى إعادة تعريف بالمعنى الجذريّ للكلمة. فالمنفى الّذي أغرقته الصّور المرئيّة ووسائل الاتّصال الاجتماعيّ الحديثة، لم يعد هو المنفى!

هكذا، والحدود تبتعد خلفنا، فكّرت للحظة أنّ التّبخّر بسلاسة سيكون مجديًا لي. أن تنفصل أجزاء الكتلة اللّحميّة التي هي أنا عن بعضها وتتحوّل إلى ذرّات عبثيّة في الفضاء، لهو أمر رائع ويشبه التّأرجح في ملاءة ناعمة، حيث يمكنني التّسرّب منها إلى اللّاشيء. هكذا، وفي تلك اللّحظة تذكّرت أنّنا في نهاية شهر آب، وأنّني قد لا أعود أبدًا، وأن الأرض محتلّة، والسماء محتلّة، ورأسي لا يتحرّك، مثل تمثال رخام ثقيل. عيناي جامدتان. لا ترفّان. تحدّقان في العدم الّذي خلّفته داخل الحدود.

ملحق

أنهيت كتابيَ هذا في نهاية شهر أيلول سنة ٢٠١٤، كنت توقّفت عن الكتابة بعد خروجي الأخير. ومضت أشهر لا أستطيع البدء بتدوين ما حصل. وجدت حينذاك أن لا جدوى ممّا سأكتبه، وجدت أنّ الحديث عمّا يحصل من العبث. تيبّست أصابعي، وأصبت بشلل ذهنيّ منعني من العودة إلى أوراقي وحواراتي، لم يكن من الممكن أن أواجه كلّ هذا العبث، إلّا بالعبث نفسه والاستسلام لفكرة عذبة، هي الموت! أبهى ما يمكن الحصول عليه هو مواجهة هذا الموت المكثّف والأحداث المأساويّة التي لا تترك مجالًا للعقل. الشّرور التي تنبت في كلّ مكان، تتكثّف بهذه البشاعة، بدءًا بالعلاقات بين البشر، وانتهاء ببراميل الموت. فداحة الظّلم والمجازر اليوميّة، أخرستني. لزمني وقت، لأستعيد قدرتي على الكتابة.

الكتابة هي وعي بفعل الموت. وهي مهزومة أمامه. لكنّها هزيمة شجاعة. لم أعِ هذا التداخل الحتميّ بين الموت والكتابة قبل الآن!

مضت سنة على خروجي النّهائي من سورية. لست استثناء، فالخروج المهول والكبير للشّعب السّوريّ سيصبح علامةً فارقةً في التّاريخ، أراقب ما يحصل من بعد. أن تراقب الصّورة، وتقرأ الأخبار، وتتّصل بمن بقي لا تعني الكثير. يضيع أهمّ ما في الأمر. أن تقرأ عن سقوط البراميل والقنابل لأيّام عشرة متتالية في المدينة التي عشت فيها، «سراقب»، لا يشبه أن تعيش تحت وقع انفجار تلك البراميل. *منذ سنة و«سراقب»* تقصف يوميًا بالبراميل والقنابل العنقوديّة. أن ترى الجثث المتكوّمة تحت الأنقاض، ليس كأنّك تلمسها، رائحة الأرض بعد القنابل العنقوديّة، لا تصل إليك عبر الصّور وأفلام الفيديو التي يبثّها النّشطاء الّذين ما زالوا على قيد الحياة يوثّقون ما يحصل. رائحة الاحتراق، عيون الأمّهات المرتعبات، وهسيس الصّمت الموقّت بعد دويّ كلّ انفجار. الصّورة والأفلام القادرة على جعلنا نتواصل مع ما يحصل بشكل آنيّ، لا تعني إلّا المزيد من الجنون، لأنّ مقاربة عصيّة على الفهم تتداخل بين الواقعيّ والمتخيّل، بين العبث والمنطق، وبين الموت والحياة.

لن يصدّق العالم الخارجيّ أنّ ما يحصل في سورية وعيون هذا العالم تراقبه، ليس إلّا رغبته في رؤية خلاصه نفسه. هناك من يموت عوضًا عنه، شيء ما يحرّك رغبته في متابعة الحياة وهي تموت أمامه، إنّه النّاجي الوحيد، وهذا يكفي! شيء ما كالغريزة الجنسيّة. تتلذّذ عيون العالم وهي تتلصّص على مشهد النّجاة القائم على جثث الضّحايا السّوريّين، العالم يشاهد. نعم، إنّه يفعل! وثنائيّة الصّورة المفتعلة للحرب بين الأسد و«داعش» يحمّلها ويطوّرها ويحوّلها فزّاعةً للحقل، ليريح ضميره الغائب. هذا لم يكن جديدًا على البشريّة وتاريخها. لطالما حدث هذا، لكنّه الآن يحصل علنًا ومباشرة وتحت أعيننا وبين

أيدينا. عالم الصّورة المتوحّشة التي تصنع وحوشًا لا مبالية. الآلة الإعلاميّة العالميّة التي تمهّد لنسيان الضّحايا، عبر تكثيف موتهم ونشره بوحشيّة تخلق الاعتياد، ثمّ ترميه كمادّة مستهلكة.

هكذا هم السّوريّون بعد أربع سنوات، بدأوا فيها ثورة شعبيّة سلميّة ضد ديكتاتور، تحوّلت ثورة مسلّحة، ثمّ خطفتها الكتائب الجهاديّة، وصارت سورية مسرحًا لعرائس الدّم، والآن يحتل «داعش» صدارة المشهد.

«داعش» الذي ظهر في شهر نيسان سنة ٢٠١٣، هو الآن دولة وقوّة احتلال، والغرباء الّذين تدفّقوا عبر الحدود التّركيّة، تحوّلوا آلات موت مدمّرة. التّطرّف والعنف يسيطران على كلّ شيء.

احتل «داعش» مدنًا سوريّة. التّحالف بقيادة أميركا يقصف «داعش»، يقوم بمغازلته، يضرب ويهرب، يتقدّم «الدّواعش»، وتستمرّ المجزرة، خطط وسياسات دوليّة، تمرّ ببطء، والدّماء تسيل، ملايين اللّاجئين، ملايين النّازحين، وسورية لم تعد كما كانت. صارت مقطّعة ومقسّمة. العالم كلّه مشغول بـ «داعش»، بينما طائرات الأسد تقصف المدنيّين في ريف «إدلب» وريف «دمشق»، وفي «حمص» و«حلب»، العالم يريد لهذه الصّورة أن تتبلور، ويستمرّ سقوط الضّحايا والأبرياء، من المدنيّين تحت قصف الأسد، وسيوف «داعش» وغيره من الكتائب الجهاديّة.

أتابع الاتّصال بالشّباب والنّساء في الدّاخل. محمّد لم يغادر «سراقب»، رفض أن يخرج للعلاج. وما زال لا يرى بعينه. قال لي في آخر اتّصال بيننا، أنّه عندما يصير خارج الحدود السّوريّة يشعر بـ «الاختناق». الآن هو والشّباب يحفرون مغارات تحت الأرض، يناموّن

فيها ليلًا، وفي النّهار ينقذون ضحايا القصف، ويوثّقون الانتهاكات ويساعدون النّاس. صُهيب أيضًا رفض الخروج، ولم يعد إلى أوروبا حيث كان يعيش، قال: أموت هنا، ولا أرحل. ميسرة وزوجته وساحرتي الصّغيرة آلاء، لا يزالون في أنطاكية. آلاء حظيت بأخ جديد، وهي سعيدة، وتتابع حياتها مع إخوتها، يتعلّمون التّركيّة، ويذهبون إلى المدرسة. ميسرة بين وقت وآخر يذهب إلى «سراقب». رائد فارس، تعرّض لمحاولة اغتيال، ولا يزال يتعرّض لتهديد من قبل «داعش» والمجموعات المسلّحة التّكفيريّة، ويرفض مغادرة «كفرنبل». الشّباب أيضًا رفضوا المغادرة، عبد الله وخالد وعزّت وحمّود، و«أبو طارق» و«أبو وحيد»، يتشبّثون بحلم البقاء. لم تعد أعمالهم كما كانت عليه، لكنّهم نطقوا بجملة مشتركة: «نموت هنا ولا نرحل. هذه أرضنا»، لم يقبلوا الانصياع والدّخول في لعبة الارتزاق والتّمويل والكتائب التّكفيريّة. أحمد وأبو ناصر لا يزالان يقاتلان أيضًا. لكنّ أحمد أصيب في إحدى المعارك. عبد الله تزوّج وصار أبًا. ولم يعالج ساقه وبقي يعرج. منهل استقرّ في تركيا. رزان خرجت من «كفرنبل»، رفضت ارتداء الحجاب، وتعيش في مدينة تركيّة مجاورة للحدود السّوريّة.

«أبو إبراهيم» ونورا، وهما من كنت أعيش معهما، تركا البيت وسط «سراقب»، وذهبا للعيش في المزرعة بعيدًا من القصف في سهول «سراقب». لكنّ القصف طاولهما، وحدثت مجزرة بالقرب منهما، وانتقلت معهما عنوش أيضًا. أمّا الأمّ فقد حملوها معهم، وبقيت في المزرعة. ماتت الخالة. تلك الجدّة الجميلة التي فارقت الحياة بعد أن اضطرّت للخروج من بيتها، توفّيت بعد شهر من ذهابهم إلى المزرعة. «أبو إبراهيم» يرفض الخروج من «سراقب»، ونورا التي أحبّته بشغف،

أخبرتني عبر الـ «سكايب» أنّها لن تغادر وتترك زوجها أبدًا، رغم الخوف والذّعر اللذين لا يفارقانها، تقول إنّها عاشت معه وستموت معه.

هؤلاء هم أبناء التّراجيديا الكبرى للقرن الحادي والعشرين، وهم الدّليل الدّامغ على السّقوط الأخلاقيّ للإنسانيّة.

ذهبوا إلى ثورتهم بأحلام عن الحرّيّة والعدالة. دفعوا دماءهم ثمن حلمهم المُجهض. هؤلاء هم أبناء الملحمة السّوريّة الكبرى الّذين لا أستطيع نسيانهم، في باريس حيث يفور الجمال من أصغر التّفاصيل، ويقتلني القبح. يعشش في صدري. أتنفّس البشاعة في موضع الجمال نفسه. لم تقدر بعد هذه المدينة على اقتلاعي من أرضي، المنفى الّذي اعتقدت أنّني سأطرده من حياتي وأقاومه، يتغوّل الآن. قبل هذه التّجربة، كنت غير مكترثة بتعريف المنفى كحالة استثنائيّة موغلة في ضيق الهويّة التي تحصر الإنسان في لغة أو قوميّة أو دين أو حتّى أرض وحدود جغرافيّة. نصّي وسردي هما هويتي، هكذا تصوّرت.

الرّواية هي مكاني الوحيد الّذي آمنت به، حصل هذا لأكثر من عشرين سنة، لكنّني اكتشفت الآن وبعد سنة من المنفى الّذي أعيش فيه، أنّ المنفى هو المنفى، ولا شيء آخر، هو أن تمشي وتعرف أنّك غريب.

هنا في المنفى، تعلّمت كيف أسير وأفكّر وأنا نائمة، أو ربّما ميتة! لا فرق! أنا في حالة غياب عن الواقع!

هنا أمشي برأس مقطوع. أتلمّس جسدي، أصابعي لا أعرفها. ويتحوّل نصّي إلى غربة مضاعفة. كلّما انتميت إليه، توغّلت في المنفى!